آية الله جوادي آملي

معارف القرآن





معارف القرآن

آيةُ الله جوادي آملي

معارف القرآن

مِن خِلالِ الحَوامِيم السَبع

دار الصفوة

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م



للطباعة والنشر والتوزيع



بئر العبد - خلف محطة دياب

تلفاكس: (+9611) 27 49 42 - (+9611) 55 29 00

جوال: (+9613) 80 01 49 ص.ب: 25/91 بيروت - لبنان

E-mail : dar_asafwa@hotmail.com

الــــدرس الاول

أرضية تجلي الوحي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين ، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهم آلاف التحية والثناء .

كان حديثنا حول المضمون المشترك للسور القرآنية التي تبتدىء بـ «حم» . وأهم قاسم مشترك بين هذه السور السبع المعروفة بـ «الحواميم السبعة» هو شرحها للخطوط العامة للوحي ، فهي تتناول قضية أساس تشريع الوحي وشرح حقيقته ، وتوضيح ضرورته ونتائجه ، وهي إلىٰ جانب هذا تصنف الناس من حيث تقبلهم للوحي أو رفضه ودوافع التسليم له أو التمرد عليه إلى عدة أصناف وتعطي لكل صنف حكمه الخاص .

ولأن حقيقة الوحي نزلت علىٰ قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطاهر **﴿نزل به الروح الأمين * علىٰ قلبك﴾**[1] فإن مظهر تجلّي الوحي هو القلب

(١) سورة الشعراء ، الآيتين(١٩٣ ـ ١٩٤) .

الإنساني . ويمكن النفوذ إليه عن طريقين: أحدهما طريق الباطن ، والثاني طريق الخارج

يجب على الإسان ، إما أن يتمتع بقلب طاهر نظيف عن طريق الباطن ، لتظهر حقيقة الوحي في باطن قلبه . وإما أن تكون له عين وأذن واعية ليستطيع عن طريق الفكر أن يفهم معطيات الوحي ويؤمن بها . فإما طريق الفؤاد وإما طريق الفكر ، ومن الممكن الجمع بينهما .

ما يتعلق بالأنبياء هو التوصل إلى حقيقة الوحي عن طريق الفؤاد وسماع كلام الوحي بالأذن ورؤية مَلَك الوحي بالعين . أما ما يستطيعه تلامذة الأنبياء فهو الوصول إلى الوحي إما عن طريق العلم الحصولي والتفكير والدرس ﴿**لعلهم يتفكرون**﴾ ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ وإما عن طريق تهذيب النفس وتطهير الباطن ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾[١] ﴿**إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً**﴾[٢] .

بأحد هذين الطريقين يمكن إدراك خلاصة ما أتى الأنبياء بحسب الاستعداد . وعلىٰ هذا الأساس فمن لم تكن له روح طاهرة لكي يسعى لأجل تهذيب النفس والحصول على قلب شفاف وطاهر يستطيع به أن يكون كالعين المتفجرة بحيث تنبع معرفة الحقائق من ذاته . ومن لم تكن له عين وأذن سليمة ليستمع كلام حملة الوحي وينظر ويقرأ الكتب الإلهية ويحفظ معارفها في ذهنه ويفهمها بتفكيره ، فإنه محروم من إدراك المعطيات التي جاء بها الأنبياء .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية(٦٩) .
(٢) سورة الأنفال ، الآية(٢٩) .

من هنا يصف القرآن الكريم أتباع الوحي بأن لهم قلباً واعياً حيّاً ولهم أعين ناظرة وآذان سامعة . ويقول عن جاحدي الوحي المعادين له والمتعصبين ضده **﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾**[1] . فلا هم يصغون لكلام الأنبياء ولا هم ينظرون إلى سلوكهم وتعاملهم التربوي ، ولا هم من ذوي الأفئدة لتنبع من داخلهم أحقيّة تعاليم الأنبياء .

وعلىٰ كل حال فإذا لم يكن الإنسان كالعين النابعة ليتفجر العلم الإلهي من باطنه ولم يكن كالحوض المفتوح على الأنهر الخارجية ليستمد منها ، فإنه سيبقىٰ جافاً وظمآناً . فهو كالحوض إذا سُد بينه وبين النهر أو النبع ، تراه يجف وينتهي لأنه ليس بالعين التي تنبع المياه من داخلها ولا له ارتباط بنهرٍ يستمد منه الماء .

إذا لم يسعَ المرء في تهذيب نفسه ولم تكن له أذن واعية ، سيظل يابساً وعطشاناً . فلا ينبع العلم من باطنه ولا يصله من الخارج ، بل هو في عطش الجهل دائماً .

لهذا يقول عز وجل في سورة فصلت وهي إحدىٰ الحواميم السبعة **﴿حم ، تنزيل من الرحمٰن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾**[2] .

إن هذا الكتاب يُعرِّف الإنسان بسعة الرحمة الإلٰهية **﴿ورحمتي وسعت كل**

---

(١) سورة الأعراف ، الآية(١٧٩) .
(٢) سورة فصلت ، الآيات(١ ـ ٣) .

شيء﴾[1] ويجعله مأنوساً بالرحمة الإلهية الخاصة بالمؤمنين **﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾**[2] . فالقرآن يحتوي على كلتا الفضيلتين ، لأنه نازل من قبل الله الرحمن الرحيم ، إنه (القرآن) رسول الرحمانية ورسول الرحيمية . إنه يضمن مصالح الدنيا كما يضمن مصالح الآخرة .

﴿كتاب فصلت آياته قراناً عربياً لقوم يعلمون﴾ إنه الكتاب الذي شرح آياته بشكل موسع ؛ فصلاً فصلاً ، وجزءاً جزءاً . وجعل فرقاً بين الحق والباطل في كل قضية وفصل بينهما **﴿إنه لقول فصل﴾**[3] ومع إنه كان يخاطب العرب في أول نزوله ، لأنه نزل في منطقة الحجاز ، لكنه استطاع أن يجذب إليه كل الناس في العالم ويدعوهم ويهديهم . لأنه **﴿إنْ هو إلاّ ذكرىٰ للعالمين﴾**[4] ورغم أن لسانه كان عربياً ، لكن ثقافته ومحتواه تناسب فطرة جميع البشر **﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾**[5]

يطرح القرآن الكريم مبدأي شمولية الدين الإسلامي واستمراره في عدة مواضع ، أي أن ما أتى النبي الأكرم(ص) يشمل كل البشر أولاً وهو مستمر علىٰ طول الزمن ثانياً . فهو عام ودائم .

ولهذا لم يؤمن به العنصر العربي فقط . بل آمن برسول الله ﷺ جماعة من إيران وقوم من الروم وبعض من الحبشة وقَبِل ﷺ إيمانهم . إذا كان سلمان إيرانياً وصهيب رومياً وبلال حبشياً ، وإن كانت رسائل النبي ﷺ للملوك والحكام قد وصلت أقطار العالم ، فهذا دليل علىٰ

(١) سورة الأعراف ، الآية(١٥٦) .
(٢) سورة الأعراف ، الآية(١٥٦) .
(٣) سورة الطارق ، الآية(١٣) .
(٤) سورة الأنعام ، الآية(٩٠) .
(٥) سورة الأعراف ، الآية(١٥٨) .

شمولية القرآن الكريم ، فقد كان الرسول ﷺ يدعو كل البشر إلىٰ القرآن والإسلام وكان يقول؛ إنْ لم تستجيبوا لهذا الكلام الإلهي فانتظروا سخط الله .

. إنّ الدعوة العامة هذه واستجابة البعض وإعراض البعض الآخر وفلاح المستجيبين وخسران المعرضين ، جميعها علامة علىٰ شمول وسِعة الدعوة القرآنية . وعليه فبالرغم من قوله اننا أنزلنا القرآن بلسان عربي ، لكن محتواه ليس عربياً ، بل إن مضمونه إنساني ، وإنسانية الإنسان ليست عربية ولا غير عربية .

وإذا كان للأنبياء كتاب فلا مفر من أن يكون هذا الكتاب باحدىٰ اللغات والألسن . ولكن تخصيص إحدى اللغات لا يدل على تخصيص محتواها . إذا كانت اللغة خاصة بعنصر معين فإن مضامينها لا تقتصر علىٰ ذلك العنصر ، لذا قال عز وجل ﴿ذكرىٰ للعالمين﴾ .

لكن هناك من ينتفع منه فيكون عالماً فيعقل ، لأن العلم سُلّم العقل كما إن الفهم أرضية العمل الصحيح ، والتقوى العملية أرضية خصبة لإنبجاس العيون الداخلية .

إن هذا الكتاب بشير ونذير للبشر ﴿بشيراً ونذيراً﴾[1] وذلك من أجل تنظيم إقبال الناس وإدبارهم والتعديل من شهواتهم وغضبهم وتصحيح إرادتهم وكراهيتهم وتسوية محبتهم وعداوتهم وأخيراً توفير التولي والتبري لديهم . لأن للإنسان إقبال علىٰ بعض الأشياء وكراهية لبعضها . القرآن يعدّل من حب وكراهية الإنسان ، أي أنه يرشده إلى الجهة التي يجب أن

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤) .

يسير نحوها ويحذره من الجهة التي يجب أن يبتعد عنها . وهو يحدد له أيضاً توليه وتبريه ، أي علىٰ من ينفتح وعن من يعرض .

لذلك وردت الكثير من البشرىٰ والتحذير ، بخصوص أعمال الإنسان المختلفة يقول الله سبحانه ان القرآن يبشركم بالسعادة الأبدية نتيجة الفضائل والأعمال الحسنة ، ويحذركم من العقاب الأليم نتيجة الرذائل والذنوب . لتتبرّوا من كل شيءٍ عدا الله وتتولّوا كل ما هو إلهي وتولّوا وجوهكم شطره .

﴿**فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون**﴾[1] الكثير من الناس العاديين أعرضوا ولم يصغوا . فلا هم من ذوي الأفئدة التي تتفجر منها المعارف ، ولا هم من ذوي الآذان التي تعبر من خلالها المعارف وتصل إلىٰ الفؤاد . لهذا فهم يبقون عطاشىٰ .

ونفس هذا الحرمان من المعارف الإلهية سيتجسّد في جهنم علىٰ شكل عطش يفتُّ الأكباد ، ويقول المصابون به لأهل الجنة ﴿**أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله**﴾[2] وعندها يجيبهم أصحاب الجنة ﴿**إن الله حَرّمَهما علىٰ الكافرين**﴾[3] .

ولأنه لا يوجد تكليف يوم القيامة ، إذن ليس المراد من هذه الآية الحرمة التكليفية ، بل هي الحرمة التكوينية ، أي أن الكافر محروم من ماء الجنة وغذائها ، لأن عليه أن يُهيىء الماء والغذاء في الدنيا أي في عالم الحركة والعمل .

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤) .
(٢) سورة الأعراف ، الآية(٥٠) .
(٣) سورة الأعراف ، الآية(٥٠) .

إنْ لم يطوِ الإنسان طريق الفؤاد لتنبع معرفة حقائق الأشياء من داخله ولم يسلك سبيل الفكر ليتعلم بذلك شيئاً ، فإنه سيظل ظامئاً يوم القيامة . لذا قال القرآن عن هؤلاءِ ، إنهم لا يمتلكون أذناً واعية ﴿**فأعرض اكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل فإننا عاملون**﴾[1] كما إن قوم شعيب قالوا له ﴿**يا شعيب ما نفقه**﴾[2] أي إننا لا نفهم كلامك .

كيف يستطيع أن يزدهر القلب إذا دُفِن في الأكنة ﴿**وقد خاب من دساها**﴾[3] إنَّ الذي يدفن قلبه في وحل الطبيعة ويسدل ستائر الشهوة والغضب على فؤاده ويخفيه وراء حجب الأهواء والنزعات ، فإنه قد أضاع رأس ماله وخسِر .

يقولون ان قلوبنا في أكنّة . إن قلوبنا محجوبة عمّا تدعوننا إليه ، فلا نحن نفهمه من داخل أنفسنا ولا الطريق إلى قلوبنا مفتوح لنفهمه من الخارج ، فهي محجوبة ومغطاة من الداخل ومن الخارج .

﴿**وفي آذاننا وقر**﴾ إن مسامعنا مغلقة ولا تستطيع أن تسمع كلامك فالاذن لا تستطيع أن تنقل كلام الآخرين إلى الفؤاد إلاّ إذا كانت مُفتحة وسميعة . أما إذا كانت موسدة وصماء فلا تنفذ تعاليم الأنبياء إلى القلب عن طريقها أبداً . كما إن العين إذا عجزت عن رؤية السلوك التربوي للرسل الإلهيين نتيجة الفساد ، فلن تنفذ سيرتهم القيّمة إلى القلوب عن طريق تلك العيون . وبهذا ستكون أفئدة المحرومين فارغة بلا شك ﴿**وأفئدتهم**

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان(٤و٥) .

(٢) سورة هود ، الآية(٩١) .

(٣) سورة الشمس ، الآية(١٠) .

هواء﴾[1] .

عندما سُئِل الرسول الأكرم ﷺ عن حق العين ما هو؟ قال: «النظر إلىٰ المصحف»[2] .

إن النِعم التي منَّ الله بها علينا ، سنُسأل عنها يوم القيامة . سيسألوننا هل أعطيتم حق أعينكم أم لا؟ مِن أفضل حقوق العين أن تُستعمل في قراءة الكتب المفيدة . إذا لم ينتفع الانسان من عينه ولم يطالع الكتب الإلهية ، سواء كانت تكوينية أو تدوينية ولم يعطِ العين حقها ، فإنه مسؤول يوم القيامة . وإذا لم يستمع الإنسان لأحاديث الأنبياء الإلهيين النافعة ، فإنه مسؤول يوم القيامة .

كان يقول الكافرون اننا لا نستطيع درك دعوتكم عن طريق الفؤاد ولا نستطيع أن نكون على ارتباط معكم عن طريق الأذن . فبيننا وبينكم حجاب؛ إننا محجوبون . لكن يجب أن نتأمل في هل أن هذا الحجاب جاء من الأنبياء أم أنه جاء من الكفار والمنافقين والمفسدين؟ كما يجب التدبر فيما هو الحجاب؟ وبيد مَن؟

هل إن للنور حجاب أم أن الظلمة هي الحجاب؟ هل إن القرآن حجاب ومن جاء بالقرآن محجوب؟ أم أن منكر القرآن هو المحجوب؟ من أين أتىٰ هذا الحجاب وما هو؟ هل أمر مادي فنستطيع أن نراه ونشير إليه ونقول أن هذا الأمر المادي حجاب لا يسمح للإنسان المحجوب أن يتأمل ويفهم المعارف أم أنه ليس بالأمر المادي؟ هل أن هذا الحجاب أمر قابل للرؤية أم

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية(٤٣) .

(٢) المحجة البيضاء ، ج٢ ، كتاب آداب تلاوة القرآن .

لا؟

إن الحجاب الذي يفترضه القرآن بين الرسول ﷺ والآخرين ، ليس حجاباً مرئياً . يقول عز وجل **﴿وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾**[1] فليس ثمَّ حجاب يستطيع أحدٌ أن يبصره بعينه .

قال رجل للإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه لم يعد يُوفّق لصلاة الليل ، فقال له الإمام «أنت رجل قد قيدتك ذنوبك»[2] أي أنك لست بحر بل مقيد وأسير للمعصية .

لا يُوفّق العاصون في النهار إلىٰ إحياء الليل ومرافقة مسافريه والتحدث مع خالقه **﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً﴾**[3] إن الذي تزلُّ به القدم أزاء الذنب في النهار ليست له القدرة على الوقوف بين يدي الله ليلاً وإحياء الليل . والذي تتلوث عينه بالذنوب ويلهج لسانه بالفساد نهاراً فلن يوفق لسعادة ذرف الدموع بين يدي الله ولن ينطق ليلاً بذكر الحق . وكما قال الشاعر «الجوهر الطاهر هو القابل للفيض وليس كل حجر وطين لؤلؤاً أو مرجاناً» .

من المستحيل أن يكون أسودُ الفؤاد نهاراً ممن يحيي الليل . ومستحيل أن يكون فاسد الصباح متهجد المساء .

الذنب حجاب . حب الذات نسيج هذا الحجاب ، ولا حجاب أسوأ

---

(١) سورة الاسراء ، الآية(٤٥) .
(٢) التوحيد للصدوق ، ص٩٧ .
(٣) سورة المزمل ، الآية(٦) .

من حب الذات والإعجاب بها . يقول الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام طبقاً لما رواه ابن بابويه القمي(رض) في كتاب التوحيد القيّم «. . . ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه ، احتجب بغير حجاب محجوب ، واستتر بغير ستر مستور ، لا إله إلاّ هو الكبير المتعال»[1] .

إنْ كان ثمّةَ حجاب ، فهو حب الذات لدىٰ الإنسان وإنْ كان ثمّة ستار فهو غرور المخلوق ، وإلاّ فليس هناك أي ستار . يقول حافظ الشيرازي مخاطباً نفسه «إنكَ حجاب نفسك ، فقم من هنا يا حافظ» لأنه لا حجاب بين العبد ومولاه «وجودك ذنب لا يقاس به ذنب» وعليه ، فكلما وقع الإنسان في شِباك حب الذات حُرِم من رؤية الله ولن يكون له حضور وشهود مع الأنبياء الإلهيين . لهذا قال الكافرون ﴿**من بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون**﴾ .

كان خطاب من يقفون بوجه الحق هو ﴿**قد أفلح اليوم من استعلىٰ**﴾[2] أي أن النصر لمن كان طغيانه واستكباره أكثر أما شعار الأنبياء فهو ﴿**قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾ بمعنىٰ أن من أحيىٰ نفسه هو المنتصر ومن أفلح في جبهات الجهاد الأكبر هو الفاتح .

كانت مثل هذه الشعارات المتضادة موجودة بين الأنبياء والطواغيت علىٰ طول الخط ، فالطغاة يقولون ﴿**قد أفلح اليوم من استعلىٰ**﴾ ويقول الإلهيون ﴿**قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾ . كان فرعون يقول: ﴿**قد أفلح اليوم من استعلىٰ**﴾ وكان موسىٰ الكليم يقول ﴿**لا يفلح الساحر حيث**

---

(١) التوحيد للصدوق ، ص١٧٩ .

(٢) سورة طه ، الآية(٦٤) .

أتىٰ﴾[1] إن الذي ينظر إلىٰ العالم من خلف ستائر الذنوب ، يتكلم على أساس أصالة المادة ، أما الذي ينظر إلىٰ العالم بدون حجاب فيتكلم علىٰ أساس أصالة الحق (الله) . وعند ذلك أجابهم الرسول بأن ينتظروا نتيجة أعمالهم .

ورد هذا المعنىٰ في سورة فصلت كما جاء أيضاً في سورة الإسراء **﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا علىٰ قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا علىٰ أدبارهم نفوراً﴾**[2] .

إذا لم يرَ الإنسانُ رسول الله ولم يسمع كلام الله فليعلم أنه في حجب الذنوب . ليعلم أنه بمقدار ما يُحرم من سماع كلام الحق فهو في حجاب وإذنه صماء وعليه أن يسعىٰ لرفع الحجب عنه .

لأنهم لم يصغوا عن عمد ، ختمَ الله علىٰ قلوبهم **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾**[3] ولأنهم انحرفوا زادهم الله انحرافاً ، ولأنهم مَرِضوا زادهم الله مرضاً ، وهذا لا يعني أن الله أرسل المرض وأنه ختم على قلوبهم ، إن عصيانهم وصدهم أزاء القرآن ونور القرآن الذي أنزله الله ، هو الذي أمرضهم وحرمهم .

يقول الله سبحانه **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خساراً﴾**[4] أي ان نفس القرآن ، رحمة وشفاء للمؤمنين

---

(١) سورة طه ، الآية(٦٩) .
(٢) سورة الاسراء ، الآيتين(٤٥ و٤٦) .
(٣) سورة الصف ، الآية(٥) .
(٤) سورة الاسراء ، الآية(٨٢) .

وخسار للظالمين المفسدين ، القرآن نور من الصعب علىٰ العميان الشعور به ، ولذلك فهم في عذاب .

إذا ازداد المريض مرضاً بسبب تناوله الفواكه الطازجة الحلوة الطيبة ، فليس الذنب ذنب الفواكه الحلوة . بل إن مرض الجهاز الهضمي لذلك المريض هو الذي سبب له الأوجاع . إن مثل القرآن مثل هذه الفاكهة الحلوة التي ينمو الإنسان المستعد ويتكامل إذا تناولها . أما إنْ كان مريضاً فإن جهازه الفكري سيصدر رد فعل أزاء القرآن ويتخذ موقفاً سلبياً يتمثل بالتمرد والعصيان ، وبهذا سيزداد مرضاً .

يقول عز وجل إنك إن قرأت القرآن جعلنا بينك وبينهم حجاباً لا مرئياً ولا مادياً ولا يرىٰ بالعين . وذلك من أجل أن لا يبصروك وبهذا لا يستطيعون أن يلحقوا بك أي أذىً أيضاً **﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾** إننا سنسدل على قلوبهم ستاراً وحجاباً بحيث لا يفهمون المعارف القرآنية . أي حين تُطرح نورانية القرآن ينسحب العميان إلىٰ زاوية ويضلوا في عذاب منه .

﴿وفي آذانهم وقر﴾ إنْ مسامعهم ثقيلة وقنوات نفوذ الكلام الإلهي مغلقة . وعندها تقول هذه الجماعة يوم القيامة **﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾**[1] إننا لو كنا نفهم من أنفسنا ، وكانت معرفة الحق واتباعه تنبع من داخلنا كالعين أو كانت لنا أذن وكنا كالحوض الذي يستمد الماء ، لما وقعنا اليوم صرعىٰ اللهيب الجهنمي .

والخلاصة هو أن الذي يوصل الإنسان إلى ذلك النور ، إما طريق المدرسة أو طريق إحياء الليل ، إما طريق الفؤاد أو طريق الفكر ، إما طريق

---

(١) سورة الملك ، الآية(١٠) .

العمل الصالح أو طريق الدراسة والبحث . والأفضل هو الجمع بين الطريقين . بعد ذلك يقول **﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً﴾** وبدل أن ينفروا إلىٰ الله ينفرون عن الله!! ومكان أن يتجهوا نحو الله **﴿ففروا إلى الله﴾**[1] يهربون منه عز وجل .

وعندها يكشف الله لرسوله ﷺ أحاديثهم ومؤامراتهم وقراراتهم ، فهم يقولون في مجالسهم السرية **﴿نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوىٰ إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً﴾**[2] إنهم إذ يستمعون الوحي ولا يفهمون منه شيئاً يتهامسون مع بعضهم ويقولون ان هذا إلا سحر وليس بوحي وإن هذا الشخص مسحور وليس نبي .

وفي نفس سورة فصلت هذه التي هي محل البحث ، يذكر الله قرارهم المعاند اتجاه الوحي فلأنهم لم يستطيعوا أن يستضيفوا نور الوحي إلىٰ قلوبهم ، أرادوا أن يطفئوا سراج الوحي **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**[3] .

إن ديدن الجهلاء الفارغين من صلاح البرهانْ ، هو أن يلجأوا إلى سلاح الغوغاء ولأنهم محرومون من سداد التقوىٰ تراهم يستمدون العون من سراب التسلط . لذلك قالوا لا تصغوا إلى القرآن **﴿والغوا فيه﴾** أي قابلوه باحداث الضجيج والغوغاء ، لتنتصروا .

كان إقتراح فرعون هو أنْ إنهضوا بالسحر أمام عصىٰ موسىٰ لتطفئوا نور الوحي **﴿قد أفلح اليوم من استعلىٰ﴾** واقتراح كفار الحجاز هو مواجهة

---

(١) سورة الذاريات ، الآية(٥٠) .

(٢) سورة الاسراء ، الآية(٤٧) .

(٣) سورة فصلت ، الآية(٢٦) .

القرآن باللغو والغوغاء ليكسروا سراج الوحي .

إنهم ولجهلهم بماهية الوحي . وأنه كلام مَن؟ ولجهلهم أن لله جنوداً في كل أصقاع العالم **﴿وما يعلم جنود ربك إلّا هو﴾**[١] و **﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾**[٢] تصوروا أن بإمكان اللغو والغوغاء أن تصد الوحي الإلهي في حين وفىٰ الله سبحانه دائماً بوعده أن يصون ويحفظ نور الوحي إلى الأبد .

﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾[٣] إن الغوغاء لن تعجز عن نفعهم فحسب ، بل وسيحل بهم أقسىٰ العذاب ، وسينزل بهم عقاب أعمالهم السيئة .

إنهم قالوا للرسول الأكرم ﷺ من باب التهديد **﴿فاعمل اننا عاملون﴾** أي اننا سنُنفّذ خططنا ، وكانت إحدىٰ خططهم المشؤومة هي إثارة الضوضاء والغوغاء .

يخاطب الله نبيه الكريم ﷺ **﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين﴾**[٤] أي قل إنني بشر كسائر البشر وطريق التعليم والتربية هو طريق البرهان وتقديم الفكر . وطريقي إلى الله هو الوحي ، أما طريقي إليكم فهو طريق بشري .

إنني أسمع كلامكم وأتحدث إليكم بالطريقة البشرية ، لكنني أستلم الوحي بصفتي النبوية . إنني كبشر له سبيل إلى الوحي ، أتكلم معكم

---

(١) سورة المدثر ، الآية(٣١) .

(٢) سورة الفتح ، الآية(٤) .

(٣) سورة فصلت ، الآية(٢٧) .

(٤) سورة فصلت ، الآية(٦) .

بأسلوب البحث والبرهان وأعرفكم على الحق وبصفتي رسولاً إلهياً أستطيع فهم ما وراء الطبيعة وأستلم الوحي من هناك وأوصله إليكم .

إنكم إنْ رفضتم الاستماع إليَّ واسدلتم بيني وبينكم حجاباً نسجته الذنوب . فستحرمون . فارجعوا واستقيموا واسلكوا الصراط المستقيم . وتوبوا من زلاتكم الماضية . والويل للمشركين واعلموا أنكم في النهاية ستنالون عقاباً مُرّاً على كفركم وإلحادكم .

إذن فطريق التعليم والتربية هو الطريق الاعتيادي ، ولكن **﴿يوحىٰ إليَّ إنما إلهكم إله واحد﴾** اتركوا الآلهة المزيّفة ، ليست أصنام العالم الخارجي بربكم ولا ميول وأهواء العالم الداخلي .

الويل لمن يقطع علاقته بالله وعلاقته بخلق الله في سبيل الله[1] . **﴿وويل للمشركين﴾** من هم المشركون؟ **﴿الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾**[2] فلأن المشرك غير مؤمن بالله تراه لا يؤمن بالآخرة أيضاً ويتصور أن البشر يفنىٰ بالموت إلى الأبد .

لأنه ينكر القيامة فهو يقطع علاقته بالله وبخلق الله في سبيل الله . فلا هو على استعداد لمساعدة المحرومين الالهيين ولا علىٰ استعداد لأن يخطوُ خطوة في سبيلهم . لا هو على ارتباط بالله ولا بعباد الله وفقاً للتعاليم الإلهية .

﴿الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ ولأن هذه السورة نزلت في مكة ووجوب الزكاة جاء في المدينة ، فالمراد من هذه الزكاة كما

---

(١) أي علاقته بخلق الله حين تكون هذه العلاقة في سبيل الله . م

(٢) سورة فصلت ، الآية(٧) .

يرىٰ الاستاذ العلامة الطباطبائي (رض): إما الإنفاق المستحب وإما التزكية وإما كلا الأمرين .

يقول الاستاذ في التعقيب علىٰ الآية ﴿**والذين هم للزكاة فاعلون**﴾[1] من سورة المؤمنين: أن المراد بالتزكية هنا هي تزكية النفس ، لأنه لم يأتِ التعبير بإيتاء الزكاة بل قال ﴿**للزكاة فاعلون**﴾ .

أرجو من الله تعالىٰ أن يجعل قلوبنا أوعية لمعارف القرآن الكريم وأحاديث المعصومين عليهم السلام وأن يفيض رحماته علىٰ معلمي ومؤلفي العلوم الإلهية . وأن يختم أمورنا جميعاً بالخير والسعادة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية(٤) .

الـــدرس الثـــاني

التقوى رمز نزول البركات
والمعصية حجاب مستور

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين ، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان بحثنا يدور حول المحتوىٰ المشترك للسور القرآنية السبع التي تبتدىء بـ«حم» وتسمىٰ «الحواميم السبعة» . وكان أهم مضمون مشترك لهذه السور هو تبيان ضرورة الوحي ومعطياته ، وقد تناولنا بعض البحوث عن هذا الموضوع إلىٰ حدٍ ما .

وانتهىٰ بنا الحديث إلىٰ أن الوحي الإلهي حين يُعرَض علىٰ الناس لهدايتهم ، فسيستفيد منه ذوو القلب الشفاف كعين الماء المتفجرة . أو الذين لهم أذن واعية كالحوض المفتوح علىٰ إحدىٰ منابع المياه . والجمع

بين الطريقين ممكن .

إما أن يكون الانسان كالنبع أو العين ، بحيث تنبجس من باطنه مياه المعرفة الزلال . وإما أن يكون كالحوض الذي يستمد الماء من خارجه ، وإلاّ بقي ظمآناً وجافاً . أي؛ إما أن يصل إلىٰ هذه المعارف عن طريق تصفية القلب وتهذيب النفس بواسطة الشرع ، وإما أن يستمع إلىٰ ما يقوله المتيمون [ذوو القلوب] السماويون . فإذا لم يكن هو من المتيمين الذين ينبع ماء الحياة من داخلهم كالعين ولا كان من المتعلمين الذين يستمعون لكلام المعلمين الإلهيين أي كالحوض الذي يأخذ ماءه من النهر الخارجي ، لا بد أن يضمحل ويجف .

الكفار ووفقاً لتحليل القرآن الكريم لم تكن لهم قلوب طاهرة لتتفجر معرفة اسرار العالم من باطنهم كالعين ، ولا كانت لهم آذان صاغية ينتفعون بواسطتها من كلام الرسل الإلهيين .

جاء في روايات المعصومين(ع) أنه «من أخلص لله أربعين يوماً فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه»[1] فمن جعل جميع شؤونه خالصة لله اربعين يوماً واخلص نفسه لله لا أن اعماله كانت خالصة فحسب بل كان قلبه خالصاً ولم تكن اعماله وحدها لله بل لم يسمح لغير الله بالتسلل إلى حرم روحه عندها تنفجر ينابيع الحكمة من قلبه على بنانه وبيانه وجميع جوارحه كذلك .

من الممكن أن لا يذهب الشخص إلىٰ المدارس ويكون مع ذلك مُعلِّم الأساتذة . ومن الممكن للأرض أن لا تستمد الماء من النهر أو البحر ،

---

(١) البحار ، ج٧٠ ، ص٢٤٩ .

لكنها ترو أراضٍ واسعة من داخلها . لأن أعيناً زلالاً ما تنفك تنبع من باطنها . إذا لم يتعرف الشخص علىٰ الوحي لا عن طريق الفؤاد ولا عن طريق الأذن ، فهو محروم من معرفة الرسالة الإلهية وبالنتيجة فإنه لن يمتنع عن الإيمان بها فحسب بل سيُبدي العناد والتمرد في مقابلها .

أما الذي يسعىٰ في سبيل سلوك طريق الفؤاد أو من أجل فتح قنوات الحواس ، أو الذي يجهد من أجل سلوك أحد هذين الطريقين ، فسوف تصله معرفة الحق إما من داخل نفسه أو من خارجها ، وسيخضع إزاء الوحي . لأنه يفهمه ويستسلم له ، وهذا الأمر أي المعرفة من الداخل أو من الخارج أمر ظريف ودقيق ولا يحظىٰ به أيُّ شخصٍ كان .

وبشكل عام فإنَّ رزق الله الحلال يأتي من طرق ظريفة[1] ، وخاصة الرزق المعنوي . لقد بين الله سبحانه أصلَ الرزق على أنه أمر ظريف ودقيق واعتبر طريق الوصول إلى الأرزاق طريقاً ظريفاً أيضاً .

يعتبر القرآن الكريم مفاتيح كل خزائن الرزق بيد الله . ويعتبر فتح هذه الخزائن من الأمور الدقيقة ، وأما الأشخاص الذين يستطيعون الإفادة من هذه الخزائن فإنه يعتبر طريقهم طريقاً دقيقاً أيضاً .

يعتبر القرآن هذه الأمور الثلاثة من الأمور الدقيقة والقضايا الظريفة . وعندها يتضح أن ليس كل ما في أيدي الناس هو من رزقهم . فإذا لم يكن ذلك حلالاً فهو ليس من الرزق . ليس كل ما في حوزة الإنسان سواء كان حلالاً أو حراماً ، هو من رزقه . بل حتىٰ لو كان حلالاً فليس جميعه من

---

(١) كلمة ظريف هنا وفيما يلي ترجمة حرفية لما استعمله المؤلف ومراده منها ظاهراً معنى الدقيق والخفي واللطيف (المترجم) .

زرقه ، بل إن رزق الإنسان هو ما يستهلكه . ليس من رزق الإنسان ذلك المقدار الذي يذخره للجيل اللاحق ويحفظه في خزانة الورثة وذلك أن ﴿**إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾[1] إن الله هو واهب الأرزاق ولا يمكن أبداً أن ننسب المال الحرام إلىٰ الله ومن هنا فلا شك أن المال الحرام ليس من الرزق .

إذا حصل المرء علىٰ شيءٍ عن طريق الربا والرشوة وما شاكل فلن يعتبر ذلك من رزقه . بل المال الحلال فقط هو الذي يُعدُّ من الرزق ، وطريق الحلال بدوره طريق ظريف .

يقول عز وجل في سورة الشورىٰ ﴿**له مقاليد السماوات والأرض**﴾[2] أي أن خزائن السماوات والأرض وما حولها وكذلك مفاتيحها ، كلها ملك لله ، وليس لأحد سلطان عليها . فليس ﴿**عنده مفاتح الغيب**﴾[3] وحسب بل إن كل السماوات والأرض ومفاتيحها بيد الله .

إذا أراد إنسان أن يفتح جانباً من جوانب السماوات والأرض وينال منها شيئاً فلن يستطيع الإستفادة منها ما لم يسلك الطريق الصحيح لمعرفتها وفتح أبوابها .

ليست مفاتيح الغيب لله فقط ، بل إن مفاتيح عالم الشهادة عنده أيضاً . لأنه ﴿**لله ما في السماوات وما في الأرض**﴾[4] ﴿**له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾[5] إن الله يبسط الرزق لمن يرىٰ في

---

(١) سورة الذاريات ، الآية(٥٨) .
(٢) سورة الشورىٰ ، الآية(١٢) .
(٣) سورة الأنعام ، الآية(٥٩) .
(٤) سورة البقرة ، الآية(٢٨٤) .
(٥) سورة الشورى ، الآية(١٢) .

ذلك مصلحة له ويضيق الرزق علىٰ من يرىٰ في ذلك مصلحة له ، ذلك أن الله ﴿بكل شيءٍ عليم﴾[1] .

في كثير من الأحيان ، إذا نزلت أرزاق كبيرة علىٰ إنسان متوسط الرزق فلن يستطيع أن يسيطر علىٰ نفسه ، بل سيُبتلىٰ بالمعصية . أو أن البعض لا يستطيع أن يعيش في فاقة وإذا هبط مستوىٰ معيشتهم ، أصبح دينهم في خطر .

إذا أراد الله أن يربّي إنساناً بصورة جيدة ضَمِنَ له معيشة بمقدار مصلحته . ولكن لا يظن المستكبر من هذا أن إستكباره كرامة له . ولا يظن المعوزون أن فقرهم إهانة لهم كما جاء ذلك في سورة الفجر ، فلا الإستطاعة علامة الكرامة عند الله ولا الحرمان من التمكن المالي علامة الضعة ، ليس أياً من هاتين الحالتين سبباً للفخر أو الضِعة . بل إن كلاهما إمتحان إلهي «الغنىٰ والفقر بعد العرض علىٰ الله»[2]

لا يعلم أحد اليوم من هو المتمكن الحقيقي ومن هو المعوز الحقيقي؟ أما غداً يوم الحساب ويوم العرض علىٰ الله فسيتضح من هو المتمكن ومن هو المعوز؟ إن ذلك اليوم ، يوم اتضاح الفقر والغنىٰ .

﴿له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم﴾ إن الله سبحانه عليم بكل شيء ، بالرزق والمرزوق ، ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾[3] إن الله يتعامل مع عباده

---

(١) سورة الشورى ، الآية(١٢) .

(٢) نهج البلاغة ، الحكمة ٤٤٦ .

(٣) سورة الشورى ، الآية(١٩) .

بلطف ، فهو لطيف ويعامل عباده بلطف ورقة وظرافة ودقة .

ليست طريقة تقسيم الله للرزق ، أمراً مادياً وعلنياً وعاماً ليفهمه الجميع ويروه ، بل إن الله يتعامل مع عباده بمنتهىٰ اللطف .

ووفقاً لرأي الاستاذ العلامة الطباطبائي(رض) ، بما أن الله اللطيف يوزع الرزق ، يتضح أن توزيعه أمر ظريف ودقيق جداً . يبتني في تقسيمه علىٰ الدقة واللطف والظرافة في أصله . إن مسألة إيصال الرزق ظريفة إلى درجة أن أحداً لا يعلم عن أي طريق يصل رزق الإنسان ولا يعلم مقدار ما يصل لكل إنسان .

هنالك مهمة يجب علىٰ الانسان أن يحملها علىٰ عاتقه من أجل ضمان الرزق ، وهي العمل . العمل ضروري للإنسان ، أما الرزق فهو علىٰ الله ، ولا يمكن أبداً التنبّوء بكيفية وصول الرزق .

﴿**وهو القوي العزيز**﴾ إنه عز وجل إذا أراد أن يمنح الرزق لشخص فإن له القدرة علىٰ هذا وقدرته لا يمكن إختراقها . إنه عزيز في نفسه وعزيز قبال الآخرين وهو قوي في نفسه وقوي بالنسبة للآخرين . إنه قدير من جهة وغير قابل للإختراق من جهة أخرىٰ [أي لا منازع ولا راد له في قدرته ـ م] وهو يقوم بهذا العمل بدقة خاصة ، هذان أمران .

والثالث هو أن طريق الرزق طريق دقيق وظريف أيضاً ، وقد قال سبحانه ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾[1] إن التقوى والاستقامة والورع التي هي الطرافة والدقة في العمل ، هي مفتاح السبل إلى تلك الخزائن والأرزاق الدقيقة .

---

(١) سورة الطلاق ، الآيتين(٢ و٣) .

العالم بأسره مخزن لله ، ومفاتيحه بيد الله ، وهذا أمر دقيق . والله سبحانه يفتح أبواب خزائن رزقه بدقة بحيث لا يشاهد ذلك أحد . ويوصل الرزق إلى البشر بظرافة ودقة بشكل لا يعلم به أحد . وعلىٰ الإنسان الجدير بالإرتزاق أن يكون ظريفاً في عمله . فالظرافة في السلوك هي نفسها التقوىٰ العقائدية والأخلاقية والعملية . فيجب عليه أن يكون دقيقاً وعميقاً جداً .

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ ليس المراد بالرزق هو الرزق الظاهري فقط ، بل الرزق المعنوي أيضاً . وبالطبع فإن الطريق الذي يوصل الإنسان السالك إلى هذه المعارف هو الصراط المستقيم الأدق من الشعرة والأحدّ من السيف .

كما إن المعصية ، حجاب مستور ، فإن طاعة الله مفتاح مستور ، أي أن مفتاح الأرزاق المعنوية وهو التقوىٰ ، مفتاح مستور ، وكذلك مِغلاقُ الأرزاق العينية أي الذنب ، مِغلاق محجوب .

﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾[1] أوضحنا في البحث السابق أن الذنب حجاب يمنع الإنسان من مشاهدة جمال وجلال الحق ويمنع كذلك من إحياء الليل وقيام الأسحار . وكما إن الذنب ستار غير مرئي فإن التقوىٰ مفتاح غير مرئي ، ولأن روح الإنسان موجود مجرد وغير مرئي ، فإن ستائرها ومفاتيحها غير محسوسة كذلك .

إن مفتاح خزائن الرزق بيد الإنسان المتقي . يقول سبحانه؛ إتقوا الله ليصلكم رزقكم من حيث لا تحتسبون . في بعض الأحيان يفتح الإنسان كتاباً

---

(١) سورة الإسراء ، الآية(٤٥) .

من أجل قراءة موضوع ما ، وفجأة يكون من نصيبه معرفة حقيقة لم يكن يتصور أن يحصل عليها «كن لما لا ترجو أرجىٰ منك لما ترجو»[1] .

تحركَ النبي موسىٰ الكليم علىٰ أمل النار وصعد إلىٰ أعلىٰ الجبل ، فكان نور الوحي من نصيبه ﴿**إني آنست ناراً**﴾[2] قال لأهله انتظروني لآتيكم بالنار لعلكم تصطلون وذهب راجياً للنار لكنه حصل علىٰ نور النبوة .

وكذلك سحرة فرعون الذين ذهبوا بأمل الجائزة ، من أجل أن يكونوا في ميدان السباق هم الغالبون ويحظوا بجائزة فرعون ، ولكنهم عادوا وقد ظفروا بالايمان وتوحيد الله . وهكذا ملكة سبأ حين قرأت رسالة سليمان عليه السلام تحركت علىٰ أمل الظفر والتمتع بالقدرة الظاهرية ، إلاّ أن الاسلام كان نصيبها .

إذا كان للإنسان قابلية ذاتية . وكان علىٰ معرفة بالطريق الدقيق ، وكان له نصيب من ظرافة التقوىٰ ، ستأتيه أرزاقه الظريفة من خلال قنوات لا يمكن التنبوء بها . وإذا تصور الإنسان أن خزائن الرزق رهينة بكسبه فهو مخطىء .

إن الله سبحانه وفي الوقت الذي يرىٰ فيه الكسب والعمل والجهد والسعي ضرورياً ويفرض علىٰ البشر العمل من أجل كسب أرزاقهم ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها**﴾[3] فهو يقول من باب تنبيه الناس إلىٰ التوحيد الربوبي؛ أن مفاتيح الأرزاق بيد الله وطريق فتح خزائن الرزق بيد الله وبامكانه سبحانه أن يرزق الانسان من طرق لم ولا يحتسبها

---

(١) من لا يحضره الفقيه ، الحديث ٣٦٠٩ .
(٢) سورة طه ، الآية(١٠) .
(٣) سورة الملك ، الآية(١٥) .

ليتضح أن نظام الخلقة نظام التدبير الإلهي . وأن الله وحده يدير العالم .

في الكثير من المواضع ، يُهيىء الإنسان مقدمات الأمور ، ولكنه لا يحصل على نتيجة ، كما إنه في بعض الأحيان ينال نتائج مفيدة لم يكن قد هيأ مقدماتها ليتجلّىٰ أن الله سبحانه مدبر أمور الإنسان كما هو مدبر سائر الأمور .

يقول الشاعر الفارسي ما معناه «العالِم بأعمالنا في أعمالنا ، إن تفكيرنا في أعمالنا ضرر علينا» .

الإنسان ذو التقوىٰ لا يخاف ولا يقلق علىٰ رزقه أبداً . الإنسان المتيم [ذو القلب] يعلم أن الله يرفع عطشه الداخلي هذا بكوثر المعرفة . وإذا أراد شخص أن يفتح نافذة فؤاده من الداخل وقناة أذنه من الخارج ، فسينال من طرق الغيب العلوم والمعارف وهي أفضل رزق وأظرف نصيب .

عندما سُئل أحد المعصومين عليه السلام ؛ لماذا بعض العقلاء قليلوا الرزق؟ أجاب عليه السلام ؛ أوليس العقل والعلم من الرزق؟ أوليس العلم هو أفضل الأرزاق؟ أوليس من أفضل أطعمة الإنسان العلم الصحيح؟

ينقل المرحوم الفيض في تفسير الآية ﴿**فلينظر الانسان إلى طعامه**﴾[1] عن الإمام الباقر عليه السلام أنه اعتبر العلم من مصاديق الطعام وقال؛ فلينظر الإنسان ممن يأخذ علمه؟ وعن أي طريق يطلب العلم؟ وبأي بذور تخضرُّ مزرعة فؤاده؟ ومن أي نبع يحصل على الماء؟

إذن فأفضل رزق هو الرزق العلمي ، ومفتاح خزائن العلم الحقيقي بيد الله سبحانه ، والتقوىٰ هي التي تمهد السبيل إليه . من هنا يقول تعالىٰ عن

---

(١) سورة عبس ، الآية(٢٤) .

المتقين ذوي الإستعداد لقبول الوحي الإلهي **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾**[1] .

يرىٰ القرآن الكريم أن نيل السعادة رهين بركنين ، الأول هو الروح الطاهرة وهذا هو الحسن الفاعلي . والثاني هو العمل الصالح وهذا هو الحسن الفعلي . إذا تطهرت روح الشخص نتيجة اعتقاده الصحيح ، ولكنه لم يُظهِر إيمانه واعتقاده في العمل الصالح ، ولم يفعل الخيرات ، فلن ينتفع من مجرد الإيمان . كما إنه إذا فسدت روح الشخص نتيجة الكفر والنفاق فلن ينتفع يوم القيامة من أعماله الخيرة .

إذن فمن أجل الظفر بالسعادة لا بد من تحقق هاتين الركيزتين . الأولىٰ الروح الطاهرة المعتقدة أي الحسن الفاعلي والثانية العمل الصالح الحسن أي الحسن الفعلي ، فباتحاد هذين يصل الإنسان إلىٰ السعادة الأبدية . أما من أجل الإبتلاء بالشقاء فإن فقدان واحد منهما يكفي ، وليس من الضروري زوالهما معاً . لأن الإنسان المفسد لا بد وأن ينال جزاءه ، سواء كان مسلماً أو كان كافراً ، لأنه مع وجود فرق بين المسلمين الفاسدين والكافرين من حيث الخلود في الجحيم ، ولكن لا يوجد فرق بينهما من حيث أن لكل ذنب جزاء ولكل مذنب عقاب .

من هنا عندما تطرح قضية الثواب والجنة ، يضع القرآن شرطين ، أحدهما الإيمان والثاني العمل الصالح . أما حين تطرح قضية العقاب والجزاء فإنه يضع شرطاً واحداً وهو السيئة والعمل القبيح .

لهذا قال **﴿إن الذين آمنوا﴾** الركن الأول **﴿وعملوا الصالحات﴾** الركن

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٨) .

الثاني . **﴿لهم أجر غير ممنون﴾** والتعبير عن الأجر بكلمة الأجر هو بحد ذاته من باب العناية واللطف الإلهي ، لأن الإنسان يعمل من أجل تكامل ذاته ، ولكنه يأخذ الأجر من الله . هذا التعبير جاء من أجل الترغيب . كأن يقول الإنسان لإبنه : أنك إن درست جيداً ونجحت في الإمتحان فسأعطيك جائزة في حين أنه يدرس من أجل كمال نفسه ، ومع ذلك يضمن الوالد له جائزة .

مع إن هذا المثال يختلف عن المُمثَّل ، لأن الوالد على كل حال ينتفع من كمال ولده ويلتذ بهذا الكمال ، لأنه محتاج وعن هذا الطريق يرفع قسماً من حاجاته المعنوية . أما الله سبحانه فهو الغني المحض لذلك فهو لا ينتفع من إيمان المؤمنين ولا يتضرر من كفر الكافرين **﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾**(١) .

إن الله تعالى لا يستفيد شيئاً من كمال أحد من الناس حتىٰ لو أسلمت كل المجتمعات البشرية . ولا يضرُّ الله شيءٌ حتىٰ لو كفر كل من علىٰ الأرض . وعليه فثمة فرق بين هذا المثال والممثل له . لكننا أوردناه من أجل تقريب المعنى إلى الذهن .

يقول الله ان للمؤمنين أجراً ، إنهم عملوا لأنفسهم ومع ذلك ينالون أجراً . بالرغم من أن العِوَض والمُعوّض ، أي التوفيق إلىٰ العمل الصالح والثواب عليه كلاهما من الرزق الإلهي .

﴿أجر غير ممنون﴾ والنقطة الأخرىٰ الدالة على اللطف ، هي أن الثواب الإلهي لا يصاحبه المَنُّ أو الإنقطاع ، إنه ثواب دائمي ، لأن الحياة في جنة الخُلد خالدة ، ولا تستتبعها مِنّة أو انقطاع **﴿عطاء غير**

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية(٨) .

مجذوذ﴾[1] وحين لا تكون هناك منّة عليهم سيكونون في راحة واطمئنان روحي .

ولأن القرآن الكريم نور ، وادعاء شيءٍ من دون تقديم البرهان لا نور فيه ، من هنا يقيم القرآن البراهين المتعددة على دعاواه ، فهو يقدم الأدلة اليقينية علىٰ دعاوىٰ المبدأ والمعاد والنبوة **﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين﴾**[2] .

اليوم يعني المرحلة والمقطع التطوري ، وليس المراد به الأربعة والعشرين ساعة . بل إن الله خلق الأرض خلال دورتين من سيرها حتىٰ غدت على شكلها الحالي ، أفتجعلون لله سبحانه أنداداً وأمثالاً وشركاء؟

وتتبعون أهواءكم وميولكم أو القوانين والمقررات الوضعية بدل أن تطيعوا الله الواحد . الله هو رب ومالك ومدبر كل العوالم . أنتم أيضاً خاضعون لتدبير الله الربوبي **﴿ذلك رب العالمين﴾** .

خلق الله الأرض في يومين **﴿وجعل فيها رواسي من فوقها﴾**[3] أي جعل في الأرض جبالاً راسية تحفظ الأرض وتصونها من الإضطراب والميلان ، وأودع فيها بركات جمة ليضمن للناس إحتياجاتهم .

﴿وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾[4] والمراد بهذه الأيام الأربعة هي الفصول الأربعة كما أسلفنا ، أي أن المواد الغذائية تستحصل من الأرض خلال السنة ، وليس المراد من هذا الاحتساب من الأيام الستّة التي

---

(١) سورة هود ، الآية(١٠٨) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٩) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(١٠) .
(٤) سورة فصلت ، الآية(١٠) .

خُلِقتْ فيها السماوات والأرض .

فقد ورد في عدة مواضع من القرآن أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام أي في ست مراحل تطورية . وقال في سورة فصلت أننا خلقنا الأرض في يومين وقال في نفس هذا المضمار أيضاً أن الله خلق السماوات في يومين ﴿**فقضاهن سبع سماوات في يومين**﴾[1] اذن فكل السماوات خُلقت في دورتين وخُلقت الأرض في دورتين كذلك . وما يتبقّىٰ من مجموع ست دورات استغرقها تحوّل الخلق في كل نظام المادة والحركة ، هو دورتان أخريان خصصت لخلق ما بين السماوات والأرض . وإذا أخذنا في الحسبان الأيام (دورات) الأربعة المخصصة لتقدير الأقوات والمواد الغذائية فيكون المجموع ثمانية أيام (دورات) وليس ستة أيام ، لأن هناك يومان لخلق الأرض ويومان للسماوات وأربعة أيام لتقدير الأطعمة . من هنا يلزم أن لا نعتبر هذه الأيام الأربعة الخاصة بتقدير الأطعمة من سنخ تلك الأيام الستة الكلية الجامعة .

وكما قال الأستاذ العلامة الطباطبائي(رض) فالظاهر أن هذه الأيام الأربعة هي نفسها الفصول الأربعة ، أي أن الله سبحانه يضمن الحاجات الغذائية في الأرض خلال أربعة فصول .

وبعد أن أصبحت للأرض قابلية صنع المواد الغذائية ضمن أربعة فصول بفضل وهداية الله سبحانه ، قال عز وجل ﴿**سواء للسائلين**﴾[2] أي أن الفيض متساوٍ لكل السائلين . وبالرغم من أن كل ما في السماوات والأرض سائلون ﴿**يسأله من في السماوات**

(١) سورة فصلت ، الآية(١٢) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(١٠) .

والأرض﴾[1] وأن ألسنة كل الموجودات ناطقة بالسؤال وأن كل من يسأل يجاب إلىٰ سؤله ويحصل علىٰ ما يريد **﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾**[2] لكن المراد بهذا السؤال ليس مجرد السؤال اللفظي ، بل هو السؤال بلغة الاستمداد والقابلية الذي يصدر له جوابٌ مناسب يقيناً ، وإلاّ فالسؤال اللفظي الذي لا ينطبق علىٰ سؤال الحال والقابلية ، ليس بسؤال حقيقي ، ولا يأتي الجواب إلاّ بما يتناسب والسؤال بلغة القابلية ، وبغير هذا فجميع الموجودات سائلة وكلها تجاب علىٰ أسئلتها الواقعية .

وقد أشار الله إلى هاتين القضيتين في آية واحدة وقال **﴿يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾**[3] أي أن هناك سؤالاً من جانب المخلوقات في كل لحظة وجواباً من الله سبحانه في كل لحظة . فثمة سؤال وحاجة بشكل دائمي من هذا الجانب وثمة فيض جديد ومواهب مستمرة في ذلك الجانب . لأن العبودية من هذا الجانب والولاية من ذاك .

يقول عز وجل في الآية المنظورة **﴿سواء للسائلين﴾** كل من سألَ ينال ، أي أن باب المواهب والإجابة مفتوحة بوجه الجميع ، ويبقىٰ الأمر فيمن يسأل وماذا يسأل؟ إذا كان السؤال صحيحاً فالجواب قطعي ، وإن أراد سائلٌ الظفر برزق غير متوقع ، فليس أمامه إلاّ أن يسلك طريق التقوىٰ ، فقد قال سبحانه **﴿ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** .

ولأن الرزق من الأمور الظريفة ، فإن مفتاحه الظريف في يد أمناء الغيب ، وليس غير التقوىٰ مفتاحاً للرزق الحلال . وليس ثمة رزق حلال

---

(١) سورة الرحمن ، الآية(٢٩) .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية(٣٤) .

(٣) سورة الرحمٰن ، الآية(٢٩) .

كالمعرفة والعلم الالهي ، فمعرفة الله أفضل وأكرم الأرزاق . يقول الإمام الحسين بن علي عليه السلام في دعاء عرفة «ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك»[1] .

﴿سواء للسائلين﴾ حين يقول الله إسألوني لأفتح لكم أبواب الرزق فهو لا يعني الإكتفاء بالتقوى والإقتصار على التضرع ، لأن دعاء من يتملص من مسؤولياته العملية غير مستجاب . بل إن العمل المشروع هو بحد ذاته سؤال بلغة القابلية ويستتبع الجواب الصحيح حتماً .

ثم يقول في تتمة تبيان نظام الخلقة ﴿ثم استوىٰ إلىٰ السماء وهي دخان﴾[2] أي أن الله سوّىٰ السماء بعد خلق الأرض ، وهناك بحث مفصل في الآيات الأخرىٰ حول هل أن السماء خلقت قبل الأرض أم الأرض قبل السماء ، يفيد أن الأرض دُحيت بعد خلق السماء ﴿والأرض بعد ذلك دحٰها﴾[3] .

وعلى كل حال ، فقد اكتُفيَ هنا بذكر هذه النقطة وهي أن السماء كانت بحكم الدخان وأن الله بقصد تسوية السماوات وترتيب الكواكب أمرها والأرض أن تخضع أزاء الإرادة الإلهية ﴿فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾[4] .

من الضروري التدبر في هل أن خطاب الله للسماء والأرض من باب الإستعارة والتمثيل أم أنه خطاب واقعي؟ وهل أن السماء والأرض تتكلمان

(١) مفاتيح الجنان ، دعاء عرفة .
(٢) سورة فصلت ، الآية(١١) .
(٣) سورة النازعات ، الآية(٣٠) .
(٤) سورة فصلت ، الآية(١١) .

وتسمعان بشكل واقعي ، أم أن هذا الحوار مجاز وإستعارة؟

فلو كانت السماء والأرض تتكلمان واقعاً ، كان أمر الله سبحانه لهما خطاباً حقيقياً . لأن الله يقول **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**[1] أي أن أمر الله إذا أراد شيئاً هو مجرد الإيجاد والخلق ، وبهذا سيكون هذا الخطاب حقيقياً .

ولكن من أجل تحقّق الخطاب الحقيقي لا تكفي صلاحية المتكلم ، بل لا بد من صلاحية المخاطب أيضاً ، وهذا ما لا يتحقق أبداً بدون شعور ووعي المخاطب ، لأنه إنْ لم يكن للسماء والأرض شعور ووعي لا يمكنهما التحدّث والإستماع . وبهذا فلا يكون هذا الأمر والطاعة والسؤال والجواب أكثر من كناية وتمثيل .

وبما أن القرآن نور وليس فيه أي إبهام وغموض وفيه تبيان لكل المعارف يقيناً ، فإنه قد أوضح هذه القضية أيضاً وهي أن الشعور موجود في كل العالم ، وكل موجودات العالم سميعة ومتكلمة وبصيرة وكل ما في الأمر أنها لا تتكلم معنا أو أننا لا نسمع كلامها ، وهي تشهد علىٰ البشر يوم القيامةِ إذن فلا بد أنها تفهم ما يقع للإنسان في الدنيا .

وردت مسألة حديث وشهادة بعض الأجسام ضد المفسدين يوم القيامة في عدة أماكن من القرآن أحدها في نفس سورة فصلت هذه **﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾**[2] أي أن أجهزتهم الحسية كالسمع والبصر تشهد عليهم وكذلك أجهزتهم الحركية كالأعضاء والجلد .

---

(١) سورة يس ، الآية(٨٢) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٢٠) .

قواهم الادراكية ووسائلهم الحركية كلها وكلها تشهد ضدهم .

وحين يعترض المفسدون علىٰ أعضائهم وجلودهم أنْ لماذا شهدتم بما يضرنا ﴿**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا**﴾[١] يجيبون أن الله الذي أنطق كل شيء منحنا النطق لنتكلم هنا ﴿**قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء**﴾[٢] .

وهذا يدل علىٰ أن كل شيء يتكلم ، وبالطبع فإن التكلم فرع من الادراك لأنه لا يُسمىٰ كل صوت بالنطق ولا كل صوت يصدر من اصطدام شيئين بالحوار .

وعليه فإن الأرض والسماء تتكلمان وتفهمان أيضاً . والنتيجة أن خطاب الله لهما خطاب حقيقي . وتكلمهم أيضاً تكلم حقيقي .

والنقطة الثانية هي قوله ﴿**إئتيا طوعاً أو كرهاً**﴾ الكره في مقابل الطوع . إذا فُرِض شيءٌ من الخارج وكان خلافاً للإرادة والرغبة الداخلية فهو كره (بفتح الكاف) أما الألم والتعب المرافق للميل الداخلي فهو الكُره (بضم الكاف) .

يوضح القرآن الكريم حادثة ولادة الحامل بالشكل التالي ﴿**حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً**﴾[٣] في حين أن الوالدة تحب وتعشق هذه الحالة إذن فالأمومة ليس فيها كَره بل فيها كُره وصعوبة .

وبعد تجلّي الفرق بين الكَره والكُره يأتي البحث القائل؛ هل أن السماء

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٢١) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٢١) .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية(١٥) .

والأرض تطيع أمر الله رغماً وقسراً وغصباً ، أم أنها تطيع الأوامر الإلهية بدون فرض وإكراه خارجي ؟

ولسان حالهما هو ﴿**قالتا أتينا طائعين**﴾ أي ليس ثمة أي كره وإجبار وأننا نطيع أمر الله طوعاً ، إذن ليس في الأمر قسر وإجبار خارجي .

أما ما جاء في بعض الآيات القرآنية من أن ﴿**وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾[1] فإن الجمع بينه وبين ما ذكرناه سابقاً يؤدي إلىٰ أنه لا إجبار ولا إكراه في نظام الخلقة . لأنه ليس هناك شيء خارج نظام الخلقة كلها ، ليستخدم الإجبار بحق موجودات نظام الخلقة .

ولكن عند قياس البعض بالبعض الآخر ، تظهر قضية الكره وعدم الرغبة وما شاكل . وكما أوضحنا في قضية الخير والشر فإن الخير أمر وجودي وذاتي وكذلك هو أمر نسبي ، أما الشر فهو أمر عدمي ونسبي فقط ، أي أنه ليس ذاتياً . أي حين يهب إعصار ويكسر أغصان شجرة تريد النمو والإثمار ، أو يحدث ما يفتّت براعمها فإنها برغم من تحملها لهذا لكنها تقبله كرهاً لا طوعاً .

وهذا هو الشر الاضافي الذي يحدث أثناء قياس بعض موجودات عالم الطبيعة ببعض نتيجة التزاحم والإصطدام . أما كل نظام الخلق فهو واحد يبدأ من المبدأ الواحد ويتجّه نحو ذلك المبدأ الواحد ﴿**ألا إلى الله تصير الأمور**﴾[2] .

كما إنه لا يوجد في كل النظام شر ذاتي ووجودي؛ بل هناك شر إضافي

---

(١) سورة آل عمران ، الآية(٨٣) .
(٢) سورة الشورىٰ ، الآية(٥٣) .

ونسبي فلا يوجد إكراه ذاتي ووجودي بل هو إكراه إضافي ونسبي ، من هنا جاء في بعض الآيات القرآنية ﴿**طوعاً وكرهاً**﴾ أي أن بعض الحوادث سلبية بالنسبة لبعض الموجودات ، ولكنها بصورة عامة إيجابية وحسنة .

لذلك ورد في الآية المعنية : ﴿**قالتا أتينا طائعين**﴾ أي أن السماء والأرض قالتا اننا لم نتبع الأمر الالهي طوعاً ورغبةً ، بل اننا تابعين لأوامر الله التكوينية مع سائر الطائعين . لذا جاءت الصيغة صيغة الجمع ﴿**طائعين**﴾ ، بمعنىٰ أن كل العالم مطيع ونحن معهم من المطيعين ولم تكن الصيغة بالمثنىٰ ، بل جاءت كـ ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ فهم يرون أنفسهم بمعية كل السالكين والسائرين إلى الله وتقول : إننا لا نعبدك فقط ونستمد منك العون ، بل إننا نعبدك جميعاً ونستعين بك جميعاً .

أرجو أن يسلك الكل هذا الدرب وأن يجعل الله قلوب الجميع أوعية للمعارف الإلهية وأن يفيض علىٰ أساتذتنا بالرحمة ويختم أمور الجميع بالخير والسعادة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الدرس الثالث

العين والأذن واليد والأقدام شهود على الأفعال

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهم آلاف التحية والثناء .

حديثنا عن المضمون المشترك للسور السبع التي تبتدىء بكلمة «حم» وتُعرف بـ «الحواميم السبعة» . المضمون المشترك للسور السبع هو شرح ضرورة الوحي والخطوط الكلية للوحي والنبوة العامة .

من المعطيات العامة للأنبياء عليهم السلام دعوة الناس إلىٰ أصول التوحيد والنبوة والمعاد . وكان كل نبي يتلقّىٰ هذه الحقائق الثلاث من المبدأ المتعالي ويبلغها للأمة . ولأن كلام كل الأنبياء في خصوص أصل المعارف واحد ، فإن من يقبل إدعاءات أحد الأنبياء ، يكون قد قَبِل دعاوىٰ سائر

الأنبياء ، ومن يرفض كلام أحد الأنبياء يكون قد رفض منطق بقية الأنبياء ، لأن سلسلة الأنبياء الكريمة تتلقّىٰ الأمور من مبدأ واحد وتدعو الناس إلى هذا المبدأ الواحد ، أي أنهم يأخذون الوحي من الله ويدعون المجتمعات البشرية إلى الله ، وقولهم أحسن الأقوال .

بما أن منطق كل الأنبياء وطريقهم واحد ، فإذا رفضت جماعة كلام أحد الأنبياء يكونون في الحقيقة قد رفضوا كلام كل الأنبياء . لذلك عندما يتحدث القرآن الكريم عن تكذيب قوم معينين لنبيهم ، يقول أنهم كذبوا جميع الأنبياء ، كقوله **﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾**[١] أو **﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾**[٢] أو **﴿كذبت عاد المرسلين﴾**[٣] والحال أنهم كذبوا أنبياءهم فقط .

إن الألف واللام في كلمة **﴿المرسلين﴾** تفيد العموم والشمول ، أي جميع المرسلين ، في حين أن لأصحاب الحجر مثلاً نبي واحد وعندما كذب أهل تلك المنطقة كلام نبيهم قال القرآن أنهم كذبوا كلام كل المرسلين **﴿كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾** .

السبب في هذا هو أن الأنبياء أخوة ، وبالرغم من أنهم ولدوا من أمّهات عديدة إلاّ أن دينهم وكلامهم واحد . وبالتالي فإذا قال شخص انني أرضىٰ بما يقوله هذا النبي ولا أقبل ما قاله ذاك النبي ، فهو في الحقيقة لم يقبل كلام أيٍّ من الأنبياء .

إن الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ولا يؤمنون ببعض ، كالقائلين **﴿نؤمن**

---

(١) سورة الحجر ، الآية(٨٠) .
(٢) سورة الشعراء ، الآية(١٦٠) .
(٣) سورة الشعراء ، الآية(١٢٣) .

ببعض ونكفر ببعض﴾[1] أنهم أرادوا إما التفريق بين الأنبياء أو التفريق بين الله والأنبياء ، والحال أن جميع الأنبياء وكل كلامهم كلام الله . وكل ما يقوله نبيٌّ حول الأصول العامة للدين ، يقوله سائر الأنبياء ، إذن فإذا كذّب قوم كلام أحد الأنبياء فإنهم في الحقيقة كذّبوا كلام الله وكلام كل الأنبياء .

وهكذا فإن الذين يقبلون كلام أحد الأنبياء إنما يقبلون كلام جميع الأنبياء ويقولون **﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾**[2] كلهم صادق ومُصدَّق وكلهم يدعو الناس إلى الله . وعلى هذا الأساس يتضح لماذا حين يروي القرآن قصة قوم كذبوا نبيهم يقول أنهم كذبوا جميع الأنبياء ، والسبب هو أن كلام جميع الأنبياء واحد ، وهو دعوة الناس إلى التوحيد والمعاد والنبوة .

ـ أهم عامل في تقوىٰ وعدل وقسط المجتمع . هو إعتقادهم بحضور وشهادة الله في كل المراحل والمواقع . وأهم عامل في فساد البشر هو نسيانهم هذه الحقيقة وهي أن لا يعتبر الإنسانُ اللهَ شاهداً لأعماله ولا يرىٰ نفسه في محضر ومشهد الله . والسور السبعة المعنيّة توضح هذه القضية بكل جلاء فلا يكون الإنسان متقياً وصالحاً إلاّ إذا اعتقد أنه في محضر ومشهد الله في كل شؤون حياته . ولا يكون تابعاً لهواه وساقطاً إلاّ إذا لم يجد هذه النظرة التوحيدية وغفل عن أن الله شاهد لكل أعماله . جاء في سورة فصلت وهي احدىٰ الحواميم السبعة **﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمىٰ على الهدىٰ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون﴾**[3] اننا هدينا قوم ثمود وأرشدناهم إلى طريق السعادة ووهبناهم العقل في باطنهم وأرسلنا لهم

---

(١) سورة النساء ، الآية(١٥٠) .

(٢) سورة البقرة ، الآية(١٣٦) .

(٣) سورة فصلت ، الآية(١٧) .

رسولاً من خارجهم ، لكنهم فضلوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ وأحبّوا العمه عن الحقيقة ورجحوه علىٰ الهداية ، ولأنهم فضلوا العمىٰ على سلوك الطريق الصحيح ، حل بهم عذاب الذلة والوضاعة على شكل صاعقة قاتلة .

ذكرنا في البحوث السابقة أن الاستكبار يتبدل ذلاً . إذا استكبر أحدٌ أزاء الحقيقة ، فلأن تكبره واستكباره كاذب ولكل كاذب ، أمرٌ صادقٌ يقابله فإن في باطن هذا الإستكبار والإستعلاء الكاذب ذلةٌ وضِعةٌ خفيّة .

إذا تكبر شخصٌ ، فلأن تكبره وتعاظمه كاذب وفي غير محله ، وكل أمر مزيّف وفي غير محله يقابله أمر حقيقي وفي محله ، فإن ذلته وضعته في محلها ما دام تكبره في غير محله . الذي يحمل تعاظماً مزيّفاً ، يحمل كذلك سقوطاً وتهافتاً حقيقياً . فالحقيقة إذن هي أن الإنسان المتكبر ذليل وحقير .

إن يوم القيامة هو يوم ظهور البواطن ﴿**يوم تبلىٰ السرائر**﴾[1] في يوم القيامة يُفضح باطن الإنسان المستكبر الذي لبس ثوباً من التكبر الكاذب على باطنه المشبع بالذلة والحقارة والوضاعة الحقيقية .

يقول القرآن إن الذين يعاندون أمام الحق باستكبار ، سوف تجتاحهم صاعقة الذل والتهافت ﴿**فاستحبوا العمىٰ على الهدىٰ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون**﴾ إن هذا المستكبر الظاهري ، هو الهيّن الواقعي . وهذا المستعلي المزيّف هو الوضيع حقيقةً . وإذا أراد الله أن تظهر الحقيقة أنزل الله عليه عذاب الذل والهون الشامل فتظهر حقارتهم ويصبحوا هيّنين أذلاء .

إن سبب هذا الهون هو سلوكهم غير المحمود ﴿**بما كانوا يكسبون**﴾ لأن ما كانوا يفعلونه هو طريق للذل والضعة والحقارة ، إنهم بتكبرهم

---

(١) سورة الطارق ، الآية(٩) .

الكاذب سقطوا في منحدر الذلة والضعة .

إن الإنسان الذي يقف بمواجهة الحق إنما يمهد الطريق لهزيمته . يقول الحق المحقق ، مولىٰ الموحدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «من صارع الحق صرعه»[1] وإذا صرعَ الحقُّ شخصاً ، ظَهَرَ باطله ، ولأن الحق عزيز فسوف يكون ذليلاً أمامه وتظهر ذلته أثناء صراعه مع الحق .

لأن الحق ثابت ومتين فإن ما يقابله مضطرب ومتزلزل ، وتزلزله يظهر عندما يقف في مقابل الحق . ولأن الحق عَذبٌ لأهل الحق ، فإن مقابله مُرّ ومرارة هذا الصريع تظهر في فمه ، من هنا قال عز وجل ان الذين ينهضون في وجه الحق يبتلون بعذاب الهون والذل ، وسبب هذا الذل هو سلوكهم نفسه .

أما الذي لا يقف في مواجهة الحق ، بل جعل نفسه شفافاً كالمرآة لينعكس عليه الحق . ولم يفكر أبداً بأن يطفىء نور الحق ، وإنما تراه واقفاً في ساحة الحق لأجل الإستفاضة ولأجل أن يسطع الحق علىٰ روحه ، يقول الله سبحانه عن هؤلاء ﴿**ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[2] فالذين يعتقدون ويؤمنون من حيث الروح ، وكانت التقوىٰ والاستقامة سيرتهم العملية ، ولم يكونوا يعملون بالأحكام الإلهية في بعض الأمور فقط كأنْ يقوموا بالواجب وينتهوا عن الحرام ، بل كانت سيرتهم هي مراعاة الأحكام الإلهية في كل شؤون حياتهم ، هؤلاء سوف ينجيهم الله . ﴿**كانوا يتقون**﴾ . هنالك فرق كبير بين عبارة ﴿**إتقوا**﴾ التي تحكي عن الزمان الماضي وعبارة

(١) نهج البلاغة الحكمة ٤٠٠ .
(٢) سورة فصلت ، الآية(١٨) .

﴿**كانوا يتقون**﴾ والتي تحتوي فضلاً عن الفعل المضارع كلمة ﴿**كانوا**﴾ إلى جانب الفعل المضارع مما يدل على الإستمرار ودوام التقوىٰ .

إن هؤلاء هم الذين كانت التقوىٰ أساسهم ﴿**أفمن أسس بنيانه علىٰ تقوى**﴾[1] أنهم بنوا حياتهم علىٰ أساس التقوىٰ المكين . والذي يجعل من التقوىٰ والورع أساساً ومرتكزاً لحياته ، سيبقى ثابتاً على هذا الأساس .

ثم يقول أن سبب نجاة أهل التقوىٰ هو أنهم اعتقدوا بأن الله شاهد لأعمالهم في كل الأحوال وأنهم في محضر ومشهد الله في كل شؤون حياتهم ، وكانوا يعلمون أن الشاهد علىٰ سلوكهم اليوم هو القاضي والحاكم غداً في القيامة . إن الناظر اليوم هو الحكم غداً .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «إتقوا معاصي الله في الخلوات فإن الشاهد هو الحاكم»[2] إذا كان شاهد العدل هو القاضي وناظرُ ساحة الحادثة هو حاكم المحكمة ، أفتراه يحكم بغير القسط والعدل؟ والذي يعلم بأن الله سبحانه شاهد لجميع أعماله سيسلك درب النجاة .

إن الإنسان المؤمن لا يعتبر الله شاهداً له فقط ، بل يراه شاهداً لكل شيء . فنظرة المؤمن الحكيم هي : إن الله سبحانه شاهد لكل شؤون الإنسان وشاهد لكل شؤون العالم بأسره ، وأحد هذه الشؤون هو الإنسانية ﴿**إن الله على كل شيء شهيد**﴾[3] .

إنْ كان المراد من كلمة شهيد هو الشاهد ، يكون مفاد الآية أن الله

---

(١) سورة التوبة ، الآية(١٠٩) .

(٢) نهج البلاغة ، الحكمة ٣١٦ .

(٣) سورة الحج ، الآية(١٧) .

حاضر في كل شيء ومحيط به ومشرف عليه ، وإنْ كان المراد بها المشهود يكون المعنىٰ أنَّ الله مشهود قبل كل شيء ، فكلما أراد الإنسان أن ينظر إلى شيءٍ ، نظر إلى الله أولاً ومن بعد ذلك ينظر إلى ذلك الشيء . فالله مشهود فوق كل شيء **﴿إن الله علىٰ كل شيءٍ شهيد﴾** أو **﴿وكان الله على كل شيءٍ رقيباً﴾**[1] كل ما تصدق عليه كلمة (شيء) وله نصيب من الوجود ، من المادة إلى العقل الأول ، ومن عالم الطبيعة إلىٰ عالم المثال والعقل ، ومن التراب إلى سدرة المنتهىٰ ، كلها وكلها خاضعة لرقابة الله .

إن نظرة الإنسان المؤمن المتأله عن عالم الخلقة هي ما ذكره القرآن في خصوص الإنسان من أن **﴿وهو معكم اينما كنتم﴾**[2] في أية ظروف كنتم ترافقكم الحقيقة التي خلقت العالم ، أوليس الموجود المحدود مُحاطاً في كل شؤونه بالحقيقة اللامحدودة . إذا افترضنا وجود محيط غير محدود ووجود قطرة أو ندىً أو موجة في هذا المحيط اللامحدود ، فإن هذا الندىٰ أو الموجة محاطة ومتضمنة في المحيط أينما كانت .

ومع أنه لا يوجد شيءٌ يُصور إحاطة الله المطلقة ، لا مثال البحر والقطرة ولا البحر والندىٰ ولا البحر والموجة ولا مثال الصور والمصور لأنه **﴿ليس كمثله شيء﴾**[3] ولا مفر من ضم الإعتراف إلىٰ جانب المعرفة . فمهما عرف البشرُ الله وعلموا به فيجب أن يكون هناك إعتراف بالعجز إلىٰ جانب هذه المعرفة والقول **﴿ليس كمثله شيء﴾** وهذه الآية من أحكم محكمات الآيات القرآنية . ولهذا فالإعتراف بالعجز «ما عرفناك حق

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية(٥٢) .
(٢) سورة الحديد ، الآية(٤) .
(٣) سورة الشورى ، الآية(١١) .

معرفتك» موجود إلىٰ جانب كل درجات العرفان .

إن الله لا يقول عن الإنسان ﴿**هو معكم أينما كنتم**﴾ فقط ، بل ويقول ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾[1] ذلك الله القيم والقائم والشاهد والحاضر في جميع شؤون الإنسان وكل ما يكسب الإنسان فهو منه ، لا يمكن لأعمال الإنسان أن تخرج عن حيطة شهوده . المؤمن المتأله يرىٰ من الآية الكريمة ﴿**ونجينا الذي آمنوا وكانوا يتقون**﴾ ان الله قائم عليه في كل حالاته ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾ ويرىٰ أن الله بالمرصاد ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾[2] ليس الله عالماً وشاهداً وناظراً فحسب بل هو رقيب وراصد أيضاً .

إذا كانت نظرة الإنسان إلهية ولم يُفضِّل علىٰ الحق شيئاً ، أيّدَ الله قلبه ﴿**كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**﴾[3] وأخذ بيده ، وإنْ لم تكن نظرة الإنسان إلهية ورجّح أهواءه علىٰ الحق أمسك الله بيديه ورجليه ليُسرع في الإنحراف ﴿**يسارعون في الكفر**﴾[4] .

ليس معنىٰ أن الله بالمرصاد وأنه في كمين هو أنه ناظر للأعمال فقط ولا يصدر منه رد فعل قبالها . بل هو بالمعنىٰ الذي أسلفنا ذكره ، لهذا قال ﴿**وإن عدتم عدنا**﴾[5] وقال أيضاً ﴿**وإن تعودوا نعد**﴾[6] إذا عدتم عاد فيضنا ـ عودوا من الضياع ، ليعود إليكم اللطف .

---

(١) سورة الرعد ، الآية(٣٣) .
(٢) سورة الفجر ، الآية(١٤) .
(٣) سورة المجادلة ، الآية(٢٢) .
(٤) سورة آل عمران ، الآية(١٧٦) .
(٥) سورة الاسراء ، الآية(٨) .
(٦) سورة الانفال ، الآية(١٩) .

إن الله لا يترك الإنسان وشأنه في الدنيا ، ولا يحاسبه علىٰ أعماله في الآخرة فقط ، بل إنه يُمتّع الإنسان بالثواب على الأعمال الحسنة في الدنيا أيضاً ويجزيه علىٰ إساءته بالعقاب ، مع أن الجزاء النهائي يحصل في الآخرة فقط . إذن فالمؤمن الإلهي يفهم معنىٰ ﴿هو معكم اينما كنتم﴾ ويشاهد مفاد **﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾** ويعلم محتوىٰ **﴿إن ربك لبالمرصاد﴾** أيضاً .

ليس معنىٰ أن الله بالمرصاد هو أنه في كمين أو خندق محدد ، لأن الموجود اللامحدود كل الكون كمينه . وكل الحالات مراصد إطلاعه . كل شؤون الحياة الإنسانية كمين لله .

المؤمن المتأله هو الذي يرىٰ هذه المعارف . لهذا فهو يراقب مسلكه وثوابه هو ما قاله الله ﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ .

أما الكافر المفسد فلأن هذه الحقيقة غير مكشوفة لديه ، تراه وكما ذكرنا في البحث الماضي في جدار وستار من الذنوب والغفلة **﴿وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾**[1] وقد مر بنا شرح هذه الآية ، إنهم نسوا الله وظنوا أن ليس هناك شاهد وناظر لساحة عملهم ولا يوجد من هو لهم بالمرصاد وتصوروا أن **﴿قد أفلح اليوم من استعلىٰ﴾**[2] واعتقدوا أن **﴿يحسب أن ماله أخلده﴾**[3] وتوهموا أن بإمكانهم بالقدرة الزائلة المحدودة أن يخلدوا . كل هذا نتيجة العمىٰ الذي أدىٰ بهم إلى كل هذه المسكنة والسوداوية **﴿ويوم يحشر أعداء**

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٥) .

(٢) سورة طه ، الآية(٦٤) .

(٣) سورة الهمزة ، الآية(٣) .

الله إلى النار فهم يوزعون﴾[1] إنهم يحشرون إلى النار يُوفدون علىٰ الله المنتقم القهار ، إذا كان المؤمن يصل إلى الله الرحمٰن الرحيم فهم يصلون إلىٰ الله المنتقم القهار .

المؤمن يلاقي الله بصفته رحماناً رحيماً ، ويعلم أن الله قادر منتقم ولا يشمله قهر الله وانتقامه ، بل يشمله عطفه . والكافر يسير إلى لقاء الله المنتقم القهار ويرى أنه ارحم الراحمين لكنه مشمول لقهره وانتقامه فقط ، لهذا فهو يلجىء ويطلب أن يكون من نصيبه شيءٌ من الرحمانية والرحيمية ، ولأن السبيل إلىٰ أي عمل مسدود **﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾**[2] و**﴿فلا أنساب بينهم﴾**[3] أي أغلقت أبواب الأنساب والأسباب ، فإنه لا يوجد هناك أي عمل يمكن للإنسان أن يمارسه بصفته عملاً إختيارياً ، لأن تلك الساحة ساحة الجزاء وليست دار العمل ، لذا فلن تنفعهم إستغاثتهم في شيء .

يُحتفظ بجماعة من أهل جهنم لتأتي البقية ، وبعد أن يجتمعوا يحشرون إلىٰ مقرهم الأصلي وهو النار **﴿حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾**[4] حين يصلون إلى جهنم يبدأ محل جديد للشهادة . في مضمار السؤال والجواب هنالك سؤال يطرح وإجابة تُعطىٰ ، وهناك شهادة تُقدّم وما شابه . عندما يصلون جهنم تشهد أيدي وأرجل المفسدين أيضاً ، فهناك أيضاً سؤال من جديد وشهادة من جديد . تشهد عليهم آذانهم وأعينهم وجلودهم .

---

(١) سورة فصلت ، الآية(١٩) .
(٢) سورة البقرة ، الآية(١٦٦) .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية(١٠١) .
(٤) سورة فصلت ، الآية(٢٠) .

ـ يمكن أن نفهم عدة نقاط من قوله أن عيونهم وآذانهم وجلودهم تشهد ضدهم ، وقد ذكرنا سابقاً بعض هذه النقاط . النقطة الأولىٰ هي؛ أن الأعضاء والجوارح تتكلم يوم القيامة وتشهد ويخاطب الإنسان المحكوم عليه بالنار جلده أنْ لماذا شهدتَ ضدي؟ فتجيب الأعضاء أن الله الذي أنطق كل شيءٍ أنطقنا أيضاً .

النقطة الثانية هي : أن هذه الأعضاء إذ تشهد يوم القيامة فهي تفهم أعمال الإنسان في الدنيا . لأن الأعضاء والجوارح لو لم تكن تفهم شيئاً في الدنيا أثناء القيام بالأعمال ، فلن تكون شهادتها مسموعة يوم القيامة . إذا قلنا أن الله يعطيهم العلم يوم القيامة وهي ليست بعالمة في الدنيا عند حدوث العمل ، فحسب قول العلامة الاستاذ الطباطبائي (رض) لن تكون الحجة تامة .

يوم القيامة هو يوم الإحتجاج ، إنْ لم تكن الأعضاء تفهم شيئاً في الدنيا والله هو الذي يمنحها الفهم والإدراك في الآخرة لتستطيع أن تتكلم ، فسوف يحتج المجرم يومئذ ويقول؛ يا إلهي إنَّ هذه الأعضاء والجوارح لم تكن لتفهم شيئاً وأنت الذي ألهمتها وأوحيت لها الأمور ، ولم تكن لتعلمها من قبل .

إن الشهادة لا تكون مسموعة في المحكمة إلاّ إذا كان صاحبها قد سبق له أن تحمّل وشهد أصل الحادثة ، أي علىٰ الشاهد أن يكون قد شاهد لقطة الحادثة من قبل واختزن وحفظ في داخله فصولها . وبعد ذلك يُدلي بما شاهده وفهمه في المحكمة إذن فلا بد في البداية من مقام اختزان وتحمّل الحادثة ، وبعد ذلك يأتي مقام تقريرها والإدلاء بها وهو ما نسميه بأداء

الشهادة . إذا كانت اليد والرجل والجوارح تشهد يوم القيامة ، فلا بد أن تكون قد فهمت هذه الأعمال في الدنيا ، وهذه هي النقطة الثانية . وعليه فليس الإنسان وحده صاحب الشعور والفهم بل إن جميع أعضائه وجوارحه تفهم وتعي .

والنقطة الثالثة هي أن الشهادة غير الإعتراف . إذا ارتكب الإنسان معصية بعينهِ أو أذنه أو جلده أو أعضائه ، فهل اليد هي العاصية أم الإنسان نفسه؟ هل أن عينه هي التي عصت أم هو نفسه؟ هل أذنه هي العاصية أم ذاته؟ إذا كانت اليد هي المذنبة فيجب أن نسمي كلام اليد إعترافاً وليس شهادةً . إذا كانت العين هي العاصية ، فيجب أن نفهم كلام العين بأنه إعترافاً وليس شهادة . وإذا كانت القدم هي العاصية فيجب أن نُعدُّ كلامها إعترافاً لا شهادة .

من قول القرآن أن الجلد والعين والأذن تشهد علىٰ الإنسان ، يتضح أن الإنسان هو مرتكب المعاصي ، وليست الأعضاء والجوارح أكثر من وسائط . المذنب الحقيقي هو روح الإنسان وليست أعضاؤه وجوارحه . إن العين والأذن تشهد على الذنوب التي ارتكبت بواسطتها ، وكذلك علىٰ الذنوب التي ارتكبت عن طريق بقية الأعضاء ، أو المرتكبة بواسطة القلب .

فمثلاً حين يستمع الإنسان إلى الغيبة ، تشهد العين يوم القيامة وتقول؛ انني شاهدته (الإنسان) قد حضر مجلس الغيبة واستمع إليها . الأذن هي التي تقوم بهذا الذنب ولكن العين هي التي تشهد ضد الإنسان به . والشخص الكاذب أو المستغيب أو المُفتري ، يقوم بالذنب بواسطة لسانه ، لكن الأذن تقول؛ أنني سمعته يكذب ويستغيب ويفتري ويُهين أو يلهج بالكفر أو ما شاكل . . .

يقوم الإنسان بهذه الذنوب عن طريق اللسان ، لكن الأذن تشهد عليه وتقول؛ إنني سمعت هذا الشخص يرتكب المعصية الفلانية بلسانه فالعين والأذن تشهد على الذنوب التي ترتكب بواسطتها وكذلك علىٰ الذنوب التي ترتكب بواسطة بقية الأعضاء .

وإذا كان المجرم الحقيقي هو نفس الإنسان ، والعين والأذن والأعضاء والجوارح بمثابة الأدوات . فسيسأل الإنسان يوم القيامة؛ فيما استخدمت هذه الأدوات والجوارح؟ ويقال له في الدنيا أنْ يستعمل العين والأذن والفؤاد في الطريق الصحيح ، لأنه مسؤول ومحاسب عنها جميعاً في الآخرة .

﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا﴾[1] أي أن الانسان مسؤول عن أذنه وهي قوته السامعة وعن عينه وهي جهازه الباصر وعن فؤاده وهو مركز فهمه وقراراته . وليست هذه القوىٰ هي المسؤولة ، لا العين مسؤوولة ولا الأذن مسؤولة ولا القلب مسؤول ، بل هي مسؤولٌ عنها وليست مسؤولة .

الله يسأل ، يستوضح ، يسألُ موبّخاً ، والانسان مسؤول **﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾**[2] يوم القيامة ، يوم السؤال ، ولا يُستثنىٰ أحد أبداً . فالأنبياء مسؤولون والأمة مسؤولة . الله هو السائل والجنود الالهيون السائلون ، أما الإنسان فهو مسؤول ، والعين والأذن والفؤاد مسؤولٌ عنها . يُسأل الإنسان ماذا فعلت بأذنك؟ وماذا نظرت

---

(١) سورة الإسراء ، الآية(٣٦) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية(٦) .

بعينك؟ ولفهم وحزم أي أمر استعملت قلبك؟ كيف استخدمت مركز الفهم والتصميم هذا المسمىٰ بالفؤاد؟

في اللغة الفارسية يستعمل الحرف از (مِنْ) علىٰ الأشخاص فنقول؛ إسألْ مِنْ فلان . أما في اللغة العربية فيستخدم الحرف (عن) الذي يفيد الحرف (از) علىٰ القضايا والأمور . لا علىٰ الأشخاص ، جاء في القرآن: ﴿**ويسألونك عن الروح**﴾[1] أي يسألون منك عن الروح ، فأنت مسؤوول ، وقضية الروح هي المسؤول عنها . ﴿**يسألونك عن الأهلة**﴾[2] أي يسألون منك عن الأهلة إذن فالشخص مسؤول والعين والأذن والفؤاد مسؤولٌ عنها .

للأستاذ العلامة الطباطبائي(رض) كلام حول؛ كيف يُسأل الإنسان عن قلبه وكيفية تصوير ذلك؟ حول العين ، فيمكن أن تُسأل حقيقة الإنسان؛ فيمَ استخدمتِ عينك؟ وحول الأذن ، يمكن أن تُسأل حقيقة الانسان؛ فيم استخدمت أذنك؟ ولكن كيف يكون الفؤاد مسؤولا عنه؟ وهل الإنسان سوىٰ الفؤاد؟ هل الإنسان شيءٌ غير حقيقة القلب؟ .

ومجمل ما ذكره العلامة هو أن؛ ذات الإنسان تظهر لنفس الإنسان وتخرج هذه الأنا الباطنية يوم القيامة فيُسأل الانسان عن طريق هذه الأنا الدنيوية؛ فيمَ استخدمت قلبك وهو مركز الفهم في العقل النظري ومركز القرار والارادة في العقل العملي؟ إذن ، بما أن جميع الأعضاء والجوارح شاهدة فهي جميعاً واعية في الدنيا ومن الممكن أن يشهد مركز الارادة على

---

(١) سورة الاسراء ، الآية(٨٥) .

(٢) سورة البقرة ، الآية(١٨٩) .

الإنسان يوم القيامة .

وهذه الشهادة هي ما يعبر عنها أحياناً بالإعتراف **﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾**[١] يُعبّر عن شهادة القلب احياناً بالإعتراف ، مع انه من الممكن أن تطلق كلمة الشهادة على الاقرار ، كما في الآية **﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم﴾**[٢] فهنا أطلقت الشهادة وطبقاً للقرينة على الإعتراف .

والخلاصة هي أن هذه الآية الكريمة تتضمن النقاط المذكورة ، وهي أن العين والأذن والجلد والأعضاء وجوارح الإنسان تشهد عليه ، مما يشير إلى أن المسؤول الوحيد في المحكمة هي الحقيقة الإنسانية ، وأما العين والأذن وباقي الأعضاء والجوارح فهي أدوات . إنها تفهم وتشهد وكلها حاضرة يوم القيامة وكلها تُحضَر لتشهد هناك .

الكفار لا يرون هذه الحقيقة ، ولهذا يستسلمون للفساد . بينما يرىٰ المؤمن المتأله هذه الحقيقة ويركن إلى الإيمان والتقوىٰ ، قال الله عن المؤمنين **﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** وقال عن الكافر **﴿ويوم يحشر أعداء الله إلىٰ النار فهم يوزعون﴾** وهذا يحتاج إلىٰ شرح وتوضيح أكثر ، سنقوم بهِ في المحاضرة القادمة إذا وفقنا الله تعالىٰ .

نقسم على الله بكل انبيائه واوليائه أن يجعل قلوبنا جميعاً أوعية لمعارف القرآن الكريم وأحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام . وأن

---

(١) سورة الملك ، الآية(١١) .

(٢) سورة النساء ، الآية(١٣٥) .

يحشر معلمي العلوم الإلهية وأساتذتنا ، خاصة العلامة الطباطبائي (قدس سره) مع الأنبياء والأولياء الإلهيين . ويختم أمور الجميع بخير وسعادة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الـدرس الرابـع

مشاهدة حضور الله
أهم دافع للامتناع عن الذنوب

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهم آلاف التحية والثناء .

ما زال حديثنا عن المحتوىٰ المشترك للسور السبع المبتدئة بـ «حم» والمسماة بـ «الحواميم السبعة» واحدىٰ المضامين المشتركة في هذه السور السبع ، شرح ضرورة الوحي وتوضيح الخطوط العامة له وتبيين ما يحمله الأنبياء .

بما ان الأنبياء يتلقون الكلام من مبدأ واحد ويدعون الناس إلى حقيقة واحدة ، فإن مضمون كلامهم مضمون واحد ، ولهذا يُصدِّق كل نبي كلام وتعاليم النبي السابق ﴿مصدقاً لما بين

يديه﴾[1] وإذا كذبت فئة كلام هذا النبي فكأنهم كذبوا ورفضوا كلام كل الأنبياء وإنْ قبِلوا كلام نبي فقد قبلوا كلام كل الأنبياء .

ذكرنا أن أهم ما أتى به الأنبياء عليهم السلام دعوة الناس إلى أصول الدين؛ التوحيد والمعاد والنبوة ، ومن أهم مضامين الوحي هو أن الإنسان لا يتكامل ولا يصل إلىٰ تعالي الإنسانية إلاّ إذا اعتبر الله شاهداً في كل شؤونه الحياتية واعتبر نفسه في مشهد ومحضر الله في كل الأمور .

وإذا لم يشاهد الإنسان نتيجة لقصر نظره ، سوىٰ الطبيعة والمادة ولم يفكر في غير المادة ، فإنه لن يرى نفسه في حضرة الله . إنه لا يرىٰ نفسه في حضرة حاكم محكمة العدل ، ولأنه لا يتملك هذه الرؤية تراه منحرفاً عن خط السعادة في تنظيم أموره ولا يؤدي ما أمر الله بأدائه ، بل يتبع ما يمليه عليه هواه .

إن هذه الفئة التي لا تخرج نظرتها العلمية عن حدود الطبيعة ، لا ترىٰ ما وراء الطبيعة أي العالم المحيط والمشرق علىٰ عالم الطبيعة . وقد أمر الله نبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بخصوصهم أنْ **﴿فأعرض عن من تولىٰ عن ذكرنا ولم يرد إلاّ الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم﴾**[2] إنهم لا يتجاوزون حدود الطبيعة ليروا خالقها .

أوضحنا سابقاً أن البشر ينقسمون إلىٰ مجموعتين في مقابل الوحي ، الأولىٰ هم من يرون الله حاضراً وشاهداً لأعمالهم في كل الشؤون الحياتية ويرون أنفسهم في محضر الله ، وهم أهل التقوىٰ والإيمان والناجون يوم

---

(١) سورة البقرة ، الآية(٩٧) .

(٢) سورة النجم ، الآيتين(٢٩ و٣٠) .

الحساب **﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**[1] .

المجموعة الثانية هم الذين يجاهدون الحق وهم لذلك محكومون بالسقوط لأنه «من صارع الحق صرعه»[2] إنهم ونتيجة عدم إعتقادهم بأن الله شاهد لأعمالهم يرمون بأنفسهم في المفاسد وينالون عقابهم على ذلك **﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون، حتىٰ إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾**[3] .

تبيّن في البحث السابق أن الاعتقاد بشهادة الله للأعمال سبب في النجاة والاعتقاد بالانقطاع عن الله سبب في المسكنة . واتضح أن كل ما في العالم له شعور وفهم للحوادث وأن أعضاء وجوارح الإنسان مطلعة علىٰ كل شؤونه الحياتية وأنها تشهد عليه يوم القيامة . وقد ذكرنا النقاط الواردة في الآية الكريمة **﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾** .

إتماماً للبحث الماضي وتمهيداً للبحث الحالي واللاحق ، يجب أن لا ننسىٰ هذه النقطة وهي أن سبب السعادة الوحيد هو أن يرىٰ الانسان نفسه في مشهد مَن بيده نظام الخلق . من توفر لديه هذا النظر الإلهي نجا من الهلاك ومن لم تتوفر لديه هذه المعرفة وكان أعمى حسب تعبير القرآن الكريم كان أسيراً وصريع الهوىٰ .

عندما يشرح القرآن سيرة الأنبياء عليهم السلام يقول: أنهم كانوا يرون الله شاهداً لكل أفعالهم ولذلك لم يكونوا مستسلمين للفساد والهلاك ، فلا يلقون بانفسهم لذل الشهوات ولا لذل الحقارة والخوف ، لا هم يسقطون في

---

(١) سورة فصلت ، الآية(١٨) .

(٢) نهج البلاغة ، الحكمة ٤٠٠ .

(٣) سورة فصلت ، الآيتين(١٩ و٢٠) .

الفساد عند الانجذاب للملائمات ولا عند مواجهة المنفرات ، ولا يقعون في هلاك الجهل على صعيد الأفكار ولا يصيبهم الوهن في الإرادة عند اتخاذ القرار .

عندما يروي القرآن الكريم قصة يوسف الصدّيق عليه السلام يذكر سبب عصمته علىٰ النحو التالي؛ لأنه شاهد برهان ربه فقد امتنع عن ارتكاب الذنوب ﴿**ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾[1] كان لتلك المرأة نية سيئة وهمّة علىٰ الإثم اتجاه يوسف الصديق في قلبها ورأسها . أما يوسف عليه السلام فإنه لم يبتلَ لا بأصل الإثم فقط بل حتىٰ بقصده . إن البحث في الآية يعود على مرحلة العزم والقصد ، ولا يصل إلى حد الفعل الخارجي . لم يحدث ذنبٌ في مقام الفعل بل الكلام إنما هو عن مقام النية والارادة والعزم فحسب .

أرادت تلك المرأة المعصية وهمّت بها ، أما يوسف الصديق فلأنه رأىٰ برهان ربه لم يهم ولم يعزم على الذنب ولم ينوِ المعصية ، أي أنه لم يمتنع عن فعل الإثم فحسب بل لم تكن لديه إرادة الإثم أيضاً . فهو لم يكن مصوناً على صعيد الظاهر فقط ، بل كان مصوناً ومعصوماً على صعيد الباطن أيضاً .

حتى النية السيئة لم تنفذ إلى الروح الطاهرة ليوسف الصديق عليه السلام لأن الله قد قال ﴿**وهم بها لولا أن رأىٰ برهان ربه**﴾ أي لولا أنه رأىٰ برهان الحق ، حيث أن الله سبحانه هو نفسه برهان ونور باهر ، أو لولا أنه رأىٰ البرهان من جانب الله لهَمَّ بها . أي لو لم يرَ برهان الله لحصلت لديه النية ،

---

(١) سورة يوسف ، الآية(٢٤) .

أمّا وقد رأىٰ برهان الله فإنه لم ينوِ الذنب .

نوت تلك المرأة نية سيئة بينما لم تحصل لدىٰ يوسف الصديق حتى النيـة السيئـة ، لأن روح يوسـف عليه السلام شـاهـدت بـرهـان ربهـا ، كـانـت عينـه الواعية اليقظة ترىٰ ﴿**نور السماوات والأرض**﴾ . القلب الذي يرىٰ الله ليست لـه نية غير الله . يقـول عز وجـل في هـذه الآيـة أن السر في عـدم نيـة يـوسـف الصديق علىٰ الإثم هو مشاهدته لبرهان الله . وهذا يدل علىٰ أن مشاهدة حضور الله لا تعصم الإنسان عن الذنب الظاهري وحسب وإنما تحفظه عن الذنب الباطني أيضاً .

حيث يقول الله ﴿**وذروا ظاهر الاثم وباطنه**﴾[1] فالسبب هو أن من يرىٰ الله بصفته «هو الظاهر» لن يرتكب المعاصي الظاهرية ولا يرتكب الذنوب في الظاهر . وإذا شاهد الإنسان الله بصفته «هو الباطن» فلن يرتكب الذنوب الباطنية ولا يرتكب الذنب في الباطن والخفاء ، لأن الله ظاهر في باطن كل باطن ، وهو شاهد في ظاهر كل ظاهر .

إن كـان الحـرم الآمـن لقلـب الصـديـق يـوسـف ، حـرم معصـوم ، فهـذا يعود إلىٰ أن عين فؤاده قد شاهدت الله ، وإذا شاهدت عين الفؤاد الله فلن يُعرِض الإنسان عن السوء فقط ، بل لا يحق للذنب والسوء أن يدخل إلىٰ حرم فؤاده الأمين . هنا محل شهود الله وليس مكاناً للشيطان ، لهذا قال عز وجل؛ لأن قلب يوسف الصديق شاهد برهان ربه فلم يُمسك عن الإثم فقط بـل لـم يهـمّ بـالإثـم ولـم ينوهِ وبهـذا لـم تنفـذ نيـة الـذنـب إلى قلـب الصـديـق يوسف .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية(١٢٠) .

ليس أنه لم يذهب يوسف صوب الإثم فحسب ، بل ولم يأتِ الإثم صوبه . لهذا قال عز وجل **﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾**[1] ولم يقل أننا صرفنا يوسف عن السوء والفحشاء بل قال صرفنا السوء والفحشاء عنه ـ لا سبيل للسوء إلىٰ يوسف ولا للحرام طريق إلى حريمه ، ولا ممر للأجنبي إلىٰ حرم الفؤاد . لم يذهب الذنب نحو يوسف ولم يذهب يوسف نحوه **﴿لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾** وليس «لنصرفه عن السوء والفحشاء» .

ثم يذكر القرآن سبب عدم نفوذ الذنب إلىٰ الحرم الآمن ليوسف الصديق وهو **﴿انه من عبادنا المخلصين﴾**[2] والعباد المُخلَصين أعلىٰ من المُخلِصين ، إن أهل الخلوص في السيرة هم الـ **﴿مخلصين له الدين﴾**[3] إنهم يؤدون القضايا العقائدية والأخلاقية والسلوكية خالصةً لله في كل المراحل الثلاث . فهم من المُخلِصين ، ويختار الله من بينهم أشخاصاً اسمهم المُخلصين .

المُخلَص هو الإنسان الذي يجتبيه الله من بين المُخلصين «الذين استخلصهم الله لنفسه» المُخلَصين هم من الصالحين وليسوا ممن **﴿عملوا الصالحات﴾** فمن كان في مقام العمل الصالح يختلف عمن هو صالح في مقام جوهر ذاته ، ومن كان صالحاً في مقام جوهر ذاته كالرسول الأكرم(ص) وأهل البيت(ع) والأنبياء الالهيين العظام **﴿إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّىٰ**

---

(١) سورة يوسف ، الآية(٢٤) .

(٢) سورة يوسف ، الآية(٢٤) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية(٢٩) .

الصالحين﴾[1] فأولئكَ من المُخلَصين .

حين يكون الإنسان مُخلَصاً أي يكون خالصاً علىٰ صعيد الذات ويختاره الله من بين عباده خالصاً لنفسه ، لا يستطيع الشيطان أن يصل إليه ، لأن منطقة وساوس الشيطان تحددت في القرآن ، فقد قال الشيطان انني أغوي عباد الله وأوسوس في صدورهم **﴿إلا عبادك منهم المُخلَصين﴾**[2] .

ليست للشيطنة محل في تلك المرتبة ، لأن الشيطان ينفذ من طريق الشك ويوسوس ويترك الإنسان في شك لينحرف به عن الطريق تدريجياً .

ولأن الباطل غير موجود إطلاقاً في بعض المراحل الوجودية ، فإن الشك لن يكون موجوداً كذلك . لأنه حين لا يكون للباطل وعمل السوء سبيل إلى تلك المرتبة ، فلن يكون للشك سبيل أيضاً . فالشك هو هل أن هذا الشيء من القبيل الأول أم من القبيل الثاني؟

إذا لم يكن ثمة باطل في إحدىٰ مراحل عالم الوجود فلن يكون هناك شك فالإنسان حين يشك في شيءٍ هل هو حق أم باطل ، لا بد أن يكون هنالك باطل في تلك المرحلة . أما حين يكون كل ما هو موجود حقاً ولا يمكن للباطل أن يدخل إلىٰ تلك المرحلة ، فلن يدخل الشك ، لأن الشك حيلة عدم علم الإنسان بشيء أنه من قبيل الحق أم من قبيل الباطل .

إنْ لم يكن ثمّة شك في إحدىٰ المراتب أو المراحل لن تكون ثمّة وسوسة ، لأن الشك والتردد بداية الوسوسة . فالشيطان يخدع الإنسان عن طريق الفكر والتأمل ، والفكر يُضَرُّ عن طريق الشك أولاً ، ثم يتبدل إلىٰ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية(١٩٦) .

(٢) سورة الحجر ، الآية(٤٠) .

شك وهم وظنون متناقضة ، إلىٰ أن يُسوِّد ساحة القلب علىٰ صورة جهل مركب .

إذن فحين لا ينفذ الباطل إلى إحدىٰ مراتب عالم الوجود ، لن يكون الشك نافذاً إليها ، وحين لا ينفذ الشك لا تنفذ الوسوسة ، وحين لا تنفذ الوسوسة لن ينفذ الشيطان الوسواس . لهذا فهو يعترف صراحة بأن حدود نفوذه هي حدود الإخلاص . إذا ارتقىٰ عبد إلى مقام المُخلَص فلن يكون لي سبيل إلى مقام إخلاصه ﴿**إلاّ عبادك منهم المخلصين**﴾ .

يقول الله عز وجل أن يوسف الصديق من المُخلَصين ولا يصل الذنبُ إليه لأنه من المُخلَصين ، ويقول الشيطان انني لا أمتلك سلطاناً علىٰ العباد المُخلَصين وحتىٰ ذلك العدو الذي اتهم يوسف اعترف في نهاية المطاف بالمؤامرة وقال ﴿**الآن حصحص الحق أنا راودته . . .**﴾[1] إنني التي حاولت أن أخترق إرادته ولم أنجح .

إذن فقد شهد الله على عصمة يوسف بالإضافة إلى شهادة اعدائه الأصليين والفرعيين له بالصيانة من الوساوس والذنوب . ليست هذه الأمور موضع البحث حالياً ، لأن الحديث عنها ينضوي ضمن البحث في سيرة الأنبياء .

أما موضع البحث فهو أن يوسف الصديق ولأنه شاهد برهان الرب أو البرهانَ الذي ﴿**هو الرب**﴾ وهو﴿**نور السماوات والأرض**﴾، فقد حرسته هذه المشاهدة من نية السوء . نستنتج أن مشاهدة الحق لا تدع الإنسان يتلوّث أبداً . أما العلم الحصولي والنظريات الفطرية فهي احياناً تتفق والمعصية .

---

(١) سورة يوسف ، الآية(٥١) .

لكن العلم الشهودي لا يسمح للإنسان أبداً بالمفاسد .

إن ما يهتم به القرآن الكريم هو مشاهدة الخالق وآياته أي العلم الشهودي الذي يحفظ المؤمنين من نوايا السوء والذي إذا افتقد وَقَعَ الإنسان في الفساد .

في نفس هذه السورة المباركة التي تناولنا بعض آياتها في المحاضرة الماضية نقرأ عن المفسدين في محكمة الله وحين يشاهدون أعضاءهم وجوارحهم تشهد عليهم إنه : ﴿**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء**﴾(١) ولا يُراد بهذا أن الله جعلنا الآن من المدركين والواعين ومنحنا العلم الآن ، بل إن الله أودع هذا العلم مع وجودنا ومَنَّ علينا بالفهم والعلم في الدنيا فأدركنا أعمال البشر هناك ونطقنا بها هنا .

لو كانت الأعضاء والجوارح تفهم في الآخرة فقط أن الإنسان مجرم ولم تكن لتفهم هذا في الدنيا ، فلن تُسمَع شهادتها يوم القيامة . يجب أن يكونوا ذوي فهم من البداية ويوم القيامة يشهدون . من الممكن في يوم القيامة وهو يوم الإحتجاج أن يقول الإنسان لله ؛ انك أنت الذي علّمتَ يدي ورجلي وإلاّ فهي لم تكن لتعلم .

إنْ كانت شهادة الجوارح مسموعة يوم القيامة فهذا يدل أنها كانت تفهم في الدنيا وستشهد في الآخرة ، ولهذا كانت شهادتهم مسموعة . وإنْ كان الله سبحانه قد أنطقهم يوم القيامة فهذا لا يمنع قبول شهادتهم . لأنهم يظهرون ما كان في باطنهم ، لا أنهم يشهدون بالباطل . بل هم يظهرون ما في سرائرهم ولا يتكلمون باطلاً . كل ما فهموه في الدنيا يبرزوه في

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٢١) .

الآخرة . يأمرهم الله أن ينطقوا به نفسه ، لا أنه سبحانه يُعلمهم أو يأمرهم أن يشهدوا زوراً وباطلاً .

﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾[1] هو الذي خلقكم في الدنيا وهو الذي يحييكم في الآخرة . هو الذي أحضر في الآخرة أيديكم وأرجلكم وكل جوارحكم ، جسمكم وروحكم وجاء بها إلى القيامة . عندها يقول الله للمفسدين؛ أن الذي سوّد أيامكم وانحرف بكم هو جهلكم .

إنكم لم تكونوا تعلمون أننا نرىٰ ، لم تكن لكم الرؤية التي تدلكم علىٰ أننا وجنودنا شهداء علىٰ أعمالكم .

تبيّن في البحث الماضي أن الشيء الوحيد الذي يحفظ الإنسان في اكثر حالات الذنب حساسيةً ، هو مشاهدة برهان الرب ، والشيء الوحيد الذي يسقط بالانسان إلى هاوية الإنحطاط هو عدم رؤية الله ، يقول الله إنكم ضللتم لأنكم لم تروني **﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾**[2] .

إنكم لم تستتروا ولم تحتجبوا لئلا تشهد عليكم أيديكم وارجلكم وجوارحكم وبهذا لم تحترموا شهادة الله لا انكم لم تحترموا شهادتها فحسب . تصورتم أني غير حاضر على مسرح اعمالكم والحال أن هذه كلها جنودنا . إنكم إذ لم تعيروا إهتماماً ليدكم ورجلكم وسمعكم وبصركم ففي الحقيقة لم تعيروا إهتماماً لجنودي . إنكم حين توهمتم أنها لا ترىٰ ظننتم

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٢١) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٢٢) .

أنني لا أرىٰ أيضاً . هؤلاء جنودنا وهم حاضرون في كل مكان . الله شاهد والجنود الإلهيون حاضرون عند كل الأفعال التي يقوم بها الإنسان أو لا يقوم بها .

إن الله وجنوده شهداء لأعمالكم في كل المراحل والمقاطع . وكان إهمالكم موجّهاً في الحقيقة إلى شهود الله وجنوده لا إلىٰ الجوارح فقط . لأنكم ظننتم أنها لا ترىٰ . بل ظننتم أنني (الله) لا أرىٰ ولأنكم ظننتم أن الله لا يشاهد أعمالكم ، فقد أدىٰ بكم هذا الظن والوهم الساذج إلىٰ هذا المحل العسير .

﴿**ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون**﴾ تصورتم أن الله يرىٰ أعمالكم الحسنة فقط أو العلنية فقط ، ولا يرىٰ الأعمال السيئة والخفية والأعمال التي تحملونها في داخلكم . وحين لم تروا الله ولم تروا أنه الشاهد ، فقد اسقطكم هذا الوهم .

يقول عز وجل في سورة يونس ﴿**وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه**﴾[1] .

﴿**وما تكون في شأن**﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ ﴿**وما تتلوا منه من قرآن**﴾ أي لا تقرأ على الناس آية من عند الله . وبعدها يخاطب كل الناس ويقول ﴿**ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه**﴾ أي أننا حاضرون كلما دخلتم في عمل وباشرتموه .

إن التعبير بصيغة الجمع يدل علىٰ أن الله وجنوده واعضاءنا وجوارحنا كلها شهود على أعمالنا . يقول؛ إننا جميعاً شهود . هؤلاء جنود إلهيون .

---

(١) سورة يونس ، الآية(٦١) .

ليس للإنسان المجرم هذه النظرة . مع انه قد فهم الكثير من المسائل الإسلامية بتفكيره الحصولي . لكنه حين لا يشاهد برهان الرب يستسلم للهلاك .

﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾[1] هذا الوهم السيء هو الذي أدىٰ إلى إنحطاطكم ، إن الإنسان يسقط من أوج السعادة بواسطة هذا الوهم الساذج ، وينحرف عن الصراط المستقيم بهذا الوهم الساذج . وبتعبير الاستاذ العلامة الطباطبائي(رض) فإن للقرآن تعبيران عن المفسدين تارة يقول أنهم يسقطون من الأعلىٰ وتارة يقول أنهم ينحرفون عن الصراط المستقيم ويقول تارة **﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾**[2] انهم ينحرفون عن هذا السير الأفقي وهو السير المستقيم . وتارة يقول انهم يسقطون من الأعلىٰ في هذا السير العمودي **﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾**[3] .

لقد بيّن الله هذه القضية العميقة علىٰ شكل قياس منطقي فقال؛ لا تطغوا ، لأن من يطغىٰ ويتجاوز حدود مهامه يحل عليه غضب الله ، ومن يحل عليه غضب الله فقط سقط **﴿لا تطغوا فيه﴾** لماذا؟ لأنه **﴿فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوىٰ﴾** .

ويقول في سورة الحج **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي عليه الريح في مكان سحيق﴾**[4] جاء التعبير هنا بالسقوط .

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٢٣) .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية(٧٤) .
(٣) سورة طه ، الآية(٨١) .
(٤) سورة الحج ، الآية(٣١) .

وقال أيضاً في الآية موضع البحث؛ أنه ظنكم الساذج الذي أسقطكم **﴿ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾** .

﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾ وكانت نتيجة جهلكم أنكم خسرتم رؤوس أموالكم ، لأن الآخرة ليست محلاً للعمل ، العمل محدود بحدود العمر الدنيوي أي في عالم الحركة والتكامل . وليست الآخرة وهي دار الجزاء والقرار بدار للعمل . ولأنها ليست دار العمل فهي ليست دار الرصيد . علىٰ الإنسان أن يستخدم أرصدته ورؤوس امواله خلال الدنيا في سبيل إكتساب الوارد المعنوي ، وإلاّ كان من الخاسرين . وإذا وُفّق أن ينفق رأس ماله من أجل كسب السعادة فيمكنه أن يأمل مستقبلاً مرضياً **﴿يرجون تجارة لن تبور﴾**(١) .

عرّف اللهُ أفضلَ طرق التجارة علىٰ النحو التالي **﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله﴾**(٢) الإيمان بالله تجارة مربحة . إن الذين خسروا رأس مالهم **﴿فما ربحت تجارتهم﴾**(٣) لم ينتفعوا شيئاً ، بل **﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾** .

مصدر خسران الرصيد هو عدم مشاهدة حضور الله ، إذا لم يعتبر الانسان الله شاهداً لأعماله فسيقترف أي عمل كان . هذا كلام كل الأنبياء . وهو مضمون مشترك يمكن استنباطه من «الحواميم السبعة» مفاده أن كل إنسان يُبعث يوم القيامة برفقة شاهده الباطني ، كما إنه يعيش حالياً برفقة هذا الشاهد .

---

(١) سورة فاطر ، الآية(٢٩) .
(٢) سورة الصف ، الآيتين(١٠ ـ ١١) .
(٣) سورة البقرة ، الآية(١٦) .

﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾(1) لا يعيش الإنسان بدون شاهد . الجنود الإلهيون يراقبون حوادث حياته حالياً . كل امرىءٍ يأتي يوم القيامة يسوقه سائق من الوراء ومعه شاهد علىٰ أعماله .

إذا لم يستحضر الإنسان في داخله هذا المشهد والحضور وتصور أن الله لا يراه ، سيقع أسير أصدقاء السوء الذين سيخيّمون في داخله ويبنون لهم منازل هناك . يقول القرآن الكريم عن الذين لم ولا يرون الله أن أصدقاء السوء سيخيمون في سرائر قلوبهم . ويقال لهم ان عليكم الإبتلاء بعذاب الحريق .

﴿فإن يصبروا فالنار مثوىً لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾(2) **﴿ولا يؤذنَ لهم فيعتذرون﴾**(3) .

ليس لأحدٍ يومئذ الحق في الكلام ولا له الحق في الإعتذار ، لأن الحجة تامة في الدنيا ولا مكان للإعتذار يوم القيامة **﴿قد تبيّن الرشد من الغي﴾**(4) الساقط إنما سقط بعد اتضاح الحق من الباطل **﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾**(5) والراشد راشد بعد اتضاح الحق **﴿ويحيي من حي عن بينة﴾**(6) إذن فلا محل للعتبىٰ وللإستعتاب ، ولا مكان لاسترضاء المولىٰ عز وجل .

عندها يقول **﴿وقيضنا لهم قرناء﴾**(7) أي جعلنا للمفسدين قرناء . إن

---

(1) سورة ق ، الآية(٢١) .
(2) سورة فصلت ، الآية(٢٤) .
(3) سورة المرسلات ، الآية(٣٦) .
(4) سورة البقرة ، الآية(٢٥٦) .
(5) سورة الأنفال ، الآية(٤٢) .
(6) سورة الأنفال ، الآية(٤٢) .
(7) سورة فصلت ، الآية(٢٥) .

الذي أطفأ هتاف العقل في داخله ورفض رسالة الأنبياء في خارجه وربّىٰ اعداءه الداخليين واستضاف اعداءه الخارجيين ، تكالبت عليه المؤامرات من الداخل والخارج .

أرسل الله للإنسان سراج ونور الهداية من داخله ومن خارجه «إن لله على الناس حجتين ، حجة ظاهرة وحجة باطنة فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة وأما الباطنة فالعقول»[1] إذا أطفأ الإنسان سراج عقله نتيجة الشهوات ولم يتبع النبيين إبتليَ بالشيطان من داخله وبأصدقاء السوء من خارجه .

﴿فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾[2] يزيّن ويزخرف أصدقاءُ السوء لهم ماضيهم ومستقبلهم ، ويُصوّرون لهم أعمالهم بأنها الحق مقابل الأنبياء ويقولون؛ إن ما تفعله حضارة وسعادة وما يقوله الأنبياء رجعية وإنحطاط . يُظهِرون أعمال المفسدين الباطلة زاهيةً وجذابة ويبرزون أعمال الأنبياء والأولياء الحقّة بأنها رجعية واسطورة وانحطاط .

﴿وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين﴾[3] الجن كالانس ينقسمون إلىٰ قسمين ، مؤمن وكافر ، إنهم كالبشر لهم موت وحياة ، وهذا البحث خارج عن حديثنا . يقول عز وجل أنهم كالجن والإنس الضالين ، سينالون العذاب .

جمع الجن جِنّة وليس أجنّة ، فأجنّة جمع جنين **﴿وإذ أنتم أجنة في**

---

(١) أصول الكافي ، كتاب العقل والجهل .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٢٥) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(٢٥) .

بطون أمهاتكم﴾[1] .

وعلىٰ كل حال فالجن والبشر كلاهما علىٰ نوعين ولكل منهما موت وحياة .

هؤلاء المفسدون يبتلون مع أولئك المفسدين في مكان واحد . وخطاب المفسدين حين لا يمتلكون برهاناً هو **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**[2] .

وقد مر بنا هذا البحث وهو أن ضوضاء وغوغاء الكفار لا ولن تؤدي إلىٰ إطفاء نور القرآن ، فالقرآن كلام الله النيّر ولا يقبل الإنطفاء .

نقسم على الله وهو نور السماوات والأرض بذاته المقدسة أن ينير قلوب الجميع بنور القرآن ونسأله أن يجعل ختام أمور الجميع إلىٰ خير وسعادة ويغرق بالرحمة أرواح المؤمنين عموماً وعلى الخصوص مؤلفي العلوم الإلهية واساتذتنا خاصة المرحوم العلامة الطباطبائي .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة النجم ، الآية(٣٢) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٢٦) .

الـــدرس الخامـــس

الارتباط بمبدأ العزة
هو السر في عصمة الوحي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلىٰ الله علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين ، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان بحثنا عن الموضوع المشترك بين السور السبع التي تبتدىء بالأحرف المقطعة «حم» والتي تعرف باسم «الحواميم السبعة» ، لأن الحروف المقطعة في أوائل السور ترمز إلىٰ مضامين تلك السور ، ومضامين هذه السور السبع مضامين مشتركة ، لهذا كانت الحروف المقطعة في بداية هذه السور مشتركة أيضاً .

أهم مضمون مشترك بين هذه السور السبع ، بيان الخطوط العامة للوحي وأصل ضرورة الوحي ، وبيان مبدأ الوحي وشرح ما يحمله الوحي

وتوضيح نتيجة العمل بالوحي .

جاء في سورة فصلت وهي إحدىٰ هذه الحواميم السبعة أن هذا الكتاب بُعث من قبل المبدأ العزيز الحكيم . أي أن الوحي نزل من مبدأ العزة والحكمة . ما ينزل من حضرة الله الحكيم هو الحكمة . وما ينزل من حضرة الله العزيز هو العزة . وبهذا سيكون نفس الوحي والقرآن حكيماً وعزيزاً . لأنه مُنزّل من مبدأ الحكمة والعزة .

الله تعالىٰ ، حكيم بذاته ، وكتابه حكمة وحكيم بالعرض . والله تعالىٰ عزيز بذاته وكتابه عزيز بالعرض .

بما أن القرآن وكذلك الوحي الإلهي ، حكيم ، فإن محتواه محكم وحكيم أيضاً .

ولأنه عزيز وغير قابل للإختراق ، فإن مضمونه يمتاز بالعزة وعدم القابلية للإختراق . ولهذا لا يمكن بأية وسيلة مقارعة الوحي الإلهي المسمىٰ بالقرآن الكريم .

فلا يمكن الوقوف أمام وحي الله بالشبهات العلمية ، لأن جميع هذا الكتاب حكمة . ولا يمكن إطفاؤه بالدسائس والقدرات الطاغية ، لأن كل آياته عزيزة وغير قابلة للإختراق ولا تستسلم لأي قدرة ، ولا تستطيع صلابة أية قوة أن تترك أثراً علىٰ حرم القرآن .

لا يمكن بواسطة الشبهات العلمية إبطال هذا الكتاب كما لا يمكن إطفاء نوره بقوة وقدرات الظالمين . فلا جهل أهل الشبهات ولا قوة الأقوياء ولا قدرة السيوف ولا دسائس الشيطان ولا أي عامل آخر بامكانه المقاومة أزاء هذا الكتاب الإلهي **﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب**

عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[1] .

فالذين كفروا وقارعوا القرآن ، لن يستفيدوا من عملهم المشؤوم هذا شيئاً ، لأن هذا الكتاب غير قابل للبطلان ، وليس للبطلان سبيل إلىٰ حرم القرآن الآمن فهذا الكتاب كتاب عزيز .

العزة هي الصلابة وعدم القابلية للإختراق والنفوذ . فالحجر الصلب غير القابل للنفوذ يسمىٰ «حجراً عزيزاً» والأرض المُحكمة التي لا تقبل النفوذ تسمىٰ «أرض عزاز» أي أنها صلبة وغير قابلة للإختراق . وذلك الإنسان الذي لا يستسلم للقوة فلا يؤثر فيه التهديد ولا التطميع هو **﴿المؤمن العزيز﴾ ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**[2] .

الكتاب الذي لا يمكن النفوذ إليه بطرح الإشكالات عليه ، كتاب عزيز ، وذلك الأمر الرفيع العميق الذي يستحيل إبطاله أو القضاء على آثاره بالشبهات العلمية ، وهو أمر عزيز . حيث أنه لله نفوذ في كل العالم ولكلامه حضور من أعماق الأرض إلى عنان السماء فلا يمكن دحض هذا الكلام من فوق لأنه كلام **﴿من الله العزيز الحكيم﴾**[3] .

فليست هنالك يد فوق القرآن تستطيع أن تُفني وتمحق هذا الكتاب . ولأنه نافذ إلىٰ أعماق عالم الوجود ، فلا توجد قوة لها سبيل إلى أسسه وقواعده لتجتثها .

إذن فمن المستحيل إبطال هذا الكتاب . لهذا قال عز وجل **﴿لا يأتيه**

---

(١) سورة فصلت ، الآيتين (٤١ ـ ٤٢) .
(٢) سورة المنافقون ، الآية(٨) .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية(٢) .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أي لا يأتيه الباطل في زمان الوحي ولا بعده ، لا في زمان النبي الأكرم ﷺ ولا بعد وفاته ، فما يصدر عن الحق المحض مصون من البطلان في الحاضر وفي المستقبل .

ولأن الذلة تقابل العزة والباطل يقابل الحق ، فكلام الذين نهضوا بوجه القرآن والذين حاربوا الأنبياء والرسول الأكرم ﷺ سيضربون من الأعلى كما سيجتثون من الأساس والجذر **﴿فأتىٰ الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف﴾**[1] .

إن أوامر الله تهدم قواعد وأسس قصور الطغاة .

فإذا بنىٰ وأقام شخص بناءَ الاشكال والشبهة أمام وحي الله ، هدّم الله جذور هذه الشبهات وحطّم أساس هذه الاشكالات والنقد والشبهات بينما لا يلحق الأذىٰ بالوحي السماوي لا من الجذور والقواعد ولا يُدفع من الأعلىٰ لأنه **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾** .

إن الله سبحانه وبعد أن ينقل شبهات وإشكالات منكري الوحي ويرد عليها يقول: عندما عجز مفكروهم أزاء ما أتى به الوحي ، بدأوا يفكرون بالتآمر والخطط المشؤومة وقالوا؛ ما دمنا عاجزين عن مقاومة الوحي بالبرهان والإستدلال ، يجب أن نمنع من تقدّمه بالغوغاء والضجيج .

وصمَّم المشركون أن يثيروا الغوغاء مقابل الوحي ، ويطلقوا الصرخات والضجيج فلا يسمحوا لكلام رسول الله ﷺ أن يصل مسامع الآخرين . ويمانعوا من سماع الناس لكلامه ، ومن أن يقيم ﷺ مجالس درسه بهدوء .

---

(١) سورة النحل ، الآية(٢٦) .

يذكر الله تصميمهم هذا في نفس هذه السورة ويقرر أن تصميمهم هذا ليس مثمراً . كان قرارهم أن لا يستمعوا إلى القرآن ويصدوا عن وحي الله بالغوغاء والضجيج والصراخ وإيجاد الفوضىٰ **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾** [1] **﴿لا تسمعوا لهذا القرآن﴾** أي لا تستمعوا أنفسكم له ولا تميلوا إليه **﴿والغوا فيه﴾** أي خرّبوا مجالس درس الرسول باللغو والصراخ والضوضاء ، فلا تذهبوا ولا تتركوا الآخرين يذهبون ، ولا تقبلوه ولا تجعلوا الآخرين يقبلوه. كان قرار الكفار هذا يمثل أفضل محاربة للوحي .

﴿لعلكم تغلبون﴾ لعلكم بهذين العملين تنتصرون وبواسطة الضوضاء تغلبون فربما أصابكم الظفر بتخريبكم مجالس درس النبي ﷺ . ولم يكن هذا دأبهم مع مجالس درس الرسول الأكرم ﷺ فقط ، بل إن القرآن يعرّف الكفار والمنافقين بصورة عامة علىٰ أن أسلوبهم أزاء المعارف والفضائل الأخلاقية وأعمال الخير هو أنهم يمتنعون عنها ويمنعون الآخرين أيضاً **﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾** [2] .

فهم إلى جانب إبتعادهم عن حريم الوحي الإلهي ، يُبعِدون الآخرين أيضاً . إنهم علىٰ غير استعداد لسماع كلام الحق كما أنهم يمنعون الآخرين من هذا الإستعداد أيضاً .

الثاني بالهمزة هو البعيد ، والناهي هو المانع . فلا هم يتقدمون لقبول كلام الحق ولا يسمحون لغيرهم باكتساب الفضائل ، ولا هم يبادرون إلى

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٢٦) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية(٢٦) .

أعمال الخير ولا يتركون أيادي الآخرين تمتد إليها .

هذا هو البرنامج العام للكفار والمشركين مقابل وحي الأنبياء والذي ذكره في هذه السورة ، لا هم يحضرون مجالس إرشاد الرسول الأكرم ﷺ ولا يَدَعون الآخرين يحضرون هذه المجالس .

ولكن لن تفشل هذه الدسائس فحسب ، بل إن الله يقول عن عاقبة أصحابها **﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾**[1] إننا سنبتليهم بعذاب شديد ، القليل منه يسبب أقسىٰ الآلام والويلات .

لا تتناول هذه الآية سوىٰ مقدار تذوّق العذاب ، ولا تتناول أصل العذاب الذي لا يطاق أبداً . فالدخول في عذاب يوم القيامة أو تحمل نارها غير تذوّق هذا العذاب وهذه النار . فمثلاً ؛ قد يغرق الإنسان تارة في البحر ، وقد يتذوق تارة مقداراً من ماء البحر والتذوق غير الغرق . يقول عز وجل أن العذاب الذي سيحيط بهم يوم القيامة ، لو تذوّقوا مقداراً قليلاً منه لوجدوه شديداً ، فضلاً عن أصل العذاب .

يُعرّف القرآن الكريم بعض آثار ذلك العذاب على النحو التالي : **﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾**[2] فعذاب الآخرة محيط به من كل جانب ويحلُّ به ألمٌ قاتل من كل صوب .

أي أنه يلمس العذاب القاتل بواسطة حاسة اللمس **﴿كلما نضجت**

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٢٧) .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية(١٧) .

جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾[1] كما يتذوّق العذاب القاتل عن طريق حاسة الذوق ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾[2] ويحس كذلك بالعذاب القاتل عن طريق السمع ﴿سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾[3] .

كما إن صيحة يوم القيامة صعبة ومجهدة إلىٰ درجة أنها لا تستطيع أي مقاومة أن تقاومها . وكذلك يشاهد العذاب القاتل بحاسة البصر داخلياً وخارجياً ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً﴾[4] .

ومع انه يحشر أعمىٰ ويقول ﴿لم حشرتني أعمىٰ وقد كنت بصيراً﴾[5] ويحرم من مشاهدة المناظر الممتعة ، لكنه يبصر المناظر المؤلمة ببصره ، ومشاهدتها بدورها أمر قاتل .

كما إنه يتحمل باقي العذابات التي تفرض عليه من الخارج ، وأهمها نار الله ، التي تصل إلىٰ فؤاده وداخله ﴿نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة﴾[6] فأصل العذاب لا يطاق بأي شكل من الأشكال . ويقول عز وجل في هذه الآية أن مقداراً قليلاً منه إذا تذوقه الإنسان كان شديداً ، فضلاً عن أصل العذاب .

﴿فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ وقد قال تعالىٰ عن المؤمنين ﴿ولنجزينهم أحسن الذي كانوا

---

(١) سورة النساء ، الآية(٥٦) .
(٢) سورة الدخان ، الآية(٤٩) .
(٣) سورة الملك ، الآية(٧) .
(٤) سورة السجدة ، الآية(١٢) .
(٥) سورة طه ، الآية(١٢٥) .
(٦) سورة الهمزة ، الآيتين (٦ و٧) .

يعملون﴾[1] .

والسبب في أن الله يجزيهم علىٰ أسوأ أعمالهم هو أنهم وقفوا وبشكل تام وبكامل قدراتهم أمام الوحي الإلهي ، لكنهم لم يستطيعوا تحقيق شيء ، لا بإيجاد الشبهات ولا بالغوغاء والضجيج . لا العلماء الماديون ولا المهرجون الماديون . لا الجهلاء بضجيجهم ولا العلماء بأفكارهم ونظرياتهم . ليس منهم من يستطيع المقاومة ازاء وحي الله .

ويقول القرآن الكريم؛ إنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، جماعةً بالدعايات وجماعة بالغوغاء والصراخ . اولئك العلماء بالشبهات والدعاية العلمية التي يبثونها من بياناتهم وبنانهم (كتاباتهم) ، واولئك الجهلة بغوغائهم وكلتا الحالتين تنشآن من مصدر واحد ، يقول : **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾**[2] .

لا يمكن لنور الشمس أن ينطفىء بنفخات الفم . مهما وقف الجاهل أمام الشمس ونفخ من فمه ، فلن يؤثر ذلك على ضوء الشمس . يقول عز وجل؛ إن نور القرآن لن ينطفىء بأفواه الغوغائيين ولا بأفواه دعاة السوء .

ذلك العالم المادي يوجد الشبهة بفمه وذاك الجاهل المادي يصرخ بفمه ، وكلا العملين بمثابة نفخات الفم مقابل الشمس .

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره﴾[3] يقول الله سبحانه في عدة مواضع من القرآن أن سياسة الكفار هي أن يطفئوا نور الله بأفواههم أو

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية(٧) .

(٢) سورة الصف ، الآية(٨) .

(٣) سورة الصف ، الآية(٨) .

بدعاية السوء أو بالغوغاء ، لكنهم لن يوفقوا أبداً فكل نار يوقدها المشركين سوف يطفئها الله .

هذان أصلان قرآنيان الاصل الأول أن نور الله لا تطفؤه الأفواه **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره﴾** .

والأصل القرآني الثاني هو **﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾**[1] إذن فالله يطفىء نار الكافر ، أما نور الوحي فليس هنالك شيء بإمكانه أن يطفئه .

وقد قال في هذه الآية أيضاً؛ ان هؤلاء يريدون مواجهة الوحي بألسنتهم وأفواههم ولكنهم لا يفلحون في ذلك وجزاؤهم هو ما ذكرناه سابقاً **﴿ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون﴾**[2] والسبب الحقيقي لصيانة القرآن من كيد ألسنة المغرضين هو ما أشرنا إليه فيما سبق من أن القرآن كتاب عزيز **﴿إنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾** .

من المستحيل أن يخترقه شيءٌ بعنوان الشبهة العلمية أو أن يقلل من متانته العلمية . ومن غير الممكن أن يدخل حريمه أجنبي ويزيد أو ينقص فيه ، ومن المستحيل أن يأتي دخيل يغيّر في هذا الكتاب ويلحق الضرر بأصل محتواه أو الغاية منه أو ما يحمله .

يجب أن تكون تربية الإنسان على أيد الله . وليست هنالك طريقة لتربية الإنسان غير الوحي . وإذا أصيب هذا الوحي بالتحريف والتغيير

---

(١) سورة المائدة ، الآية(٦٤) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٢٨) .

والتبديل ولم يأت وحي آخر يعوض عن هذه النواقص فسوف يختل السبيل المستقيم للإنسانية ولا يمكن لهذا الخلل أن يتفق مع الهدف من الخلقة .

ولهذا يقول عز وجل في سورة الحجر : **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[١] ويقول في السورة التي نحن بصددها : **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾** .

وسبب مصونية القرآن هو عزته **﴿إنه لكتاب عزيز﴾** إنه كتاب غير قابل للإختراق ، لا الإختراق العلمي ولا الإختراق العملي ، فلا يمكن النفوذ إليه بواسطة الشبهة ، ولا يمكن الوقوف أمام تقدمه بالقوة . والموجود المُحكم الصلد الذي لا يقبل الإختراق يسمىٰ بـ «العزيز» ولهذا فالقرآن عزيز وأهل القرآن أعزة .

﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ وعلىٰ ذلك لا يمكن بأي شكل من الأشكال الوقوف بوجه القرآن ، وحين لا يستطيع الإنسان الوقوف بوجه الوحي ، لن يكون له سبيل إلّا القول به . فإذا كان ثمة عقل ومنطق فإنه يتقبل القرآن .

إذا أراد شخص أن يجابه القرآن فقد سعىٰ إلىٰ هلاك نفسه بيديه ورجليه **﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾**[٢] يقول القرآن؛ إذا هلك شخص وتحطّم ، فإن ذلك يحصل بعد اتضاح وانكشاف الأمور . ولا يكون الهلاك من دون حجة وبينة . كما أن السعادة والموفقية لا تكون إلّا بعد اتضاح الحق **﴿ويحيى من حي عن بينة﴾**[٣] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية(٩) .

(٢) سورة الأنفال ، الآية(٤٢) .

(٣) سورة الأنفال ، الآية(٤٢) .

الأمر الواضح الذي يكون ظاهراً وجلياً كالشمس يقال له «بينة» . حدّد الرسول الأكرم(ص) وطبقاً لما رواه المرحوم المحقق (رض) في الشرائع ، مهمة الشاهد وقال؛ إذا كان الأمر جلياً لكَ مثل الشمس فاشهدْ وإلاّ فلا «على مثلها فاشهد أو دع»[1] .

تسمىٰ الشهادة «بينة» أي أنها واضحة وجليّة . وقد قال الله في تلك الآية؛ ان قضايا القرآن بينة كالشمس . ومَن وقف محارباً الحق الواضح كالشمس فسيهلك لا محالة وهلاكه أيضاً إنما يكون بعد البينة والإتضاح .

ويقول في نفس هذه السورة؛ ان الذين وقفوا أزاء القرآن قد أعموا أعينهم وأصموا آذانهم عن عمد **﴿قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمىً اولئك ينادون من مكان بعيد﴾**[2] فهذا الكتاب للمؤمنين شفاء وهداية ويعالج جميع أمراضهم العقائدية والاخلاقية وغيرها .

الجهل الذي هو أسوأ الأمراض الباطنية يُعالجُ بعلم القرآن . والشك الذي هو مرض باطني يُعالَج بيقين القرآن . والحزن والغم اللذان هما من الأمراض الباطنية يعالجان بسكينة . والخوف والفزع من الأمراض الباطنية التي تُعالَج بطمأنينة القرآن . الإضطراب والقلب من المستقبل التي هي أمراض باطنية ، تُعالَج بثباته وعزمه .

من هنا فليس للمؤمن خوف ولا حزن خلافاً للكافر والمنافق المُعذّب دائماً بين جداري الخوف والغم . فالمؤمنون ينالون الولاية تحت ظل

---

(١) الشرايع ، كتاب الشهادات .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٤) .

القرآن ، وميزة الولاية النجاة من عوامل السوء هذه **﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**(١) .

السر في أن الإنسان المؤمن لا يخاف من أي شيء ولا يشعر بالحزن والهم ازاء أيٍ من الأمور ، هو أنه يرىٰ مستقبله مُشرقاً . ولا يحزن علىٰ ما فاته . ولا يخاف من الآتي ، لأنه راضٍ عن ماضيه ومتفائل لمستقبله .

للمؤمن ماضٍ مشرق ومستقبل مشرق ، لهذا فلا الماضي يحزنه ولا المستقبل يخيفه .

أما السر في أن الكافر خائف وحزين دائماً مع انه يمتلك كل المزايا المادية حسب الظاهر ، فهو أنه قلق من المستقبل لئلا يصاب بالفقر أو لجهله كم من السنين سوف يبقىٰ حياً . فقد تجذر مرض الخوف والحزن في باطنه ، وليس القرآن شفاءً بالنسبة له . لأنه لا يستخدم دواء التربية الإنسانية هذا ، فتراه مريضاً دائماً **﴿في قلوبهم مرض﴾**(٢) .

الكافر لا يستقر أبداً الكافر وغير المسلم لا يتحرر مطلقاً من الغم والحزن ، ولا يصل إلى اليقين . لا تستطيع كفه أن تصل إلى عروة اليقين أبداً . ولا يستطيع أن يُخلّص نفسه من يد الشكوك والظنون . غرقت رجلاه في الشك ، ولم تمسك يداه باليقين ، فهو في ضيق من هذا **﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾**(٣) أجل ، مَن أعرض عن السند الأصيل للطمأنينة والأمل ، إبتليَ بضيق الخوف والحزن **﴿من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾**(٤)

---

(١) سورة يونس ، الآية(٦٢) .
(٢) سورة البقرة ، الآية(١٠) .
(٣) سورة البقرة ، الآية(٢٦٨) .
(٤) سورة طه ، الآية(١٢٤) .

كما ان الذي يستعصم بالسند الأصيل للطمأنينة والأمل فلن يفشل في أي من أموره وأعماله **﴿من يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾**[1] ليس هنالك مرض أشد من مرض الفؤاد ، وليس هنالك دواء كالقرآن الكريم يشفي أمراض الأفئدة . **﴿شفاءٌ لما في الصدور﴾**[2] فهو يرفع الشكوك والإشكالات في البحوث العلمية بالإضافة إلىٰ انه يرفع الحزن والخوف في البحوث العملية . إنه يمنح اليقين في القضايا العلمية ويهب الطمأنينة والسكينة في المسائل العملية . فالمؤمن في سكينة .

أحد أساتذتنا في الحكمة الإلهية ، المرحوم آية الله الحاج الشيخ محي الدين الإلهي القمشه اى (رض) ، عندما كانت ايران مضطربة ومهاجمة من قبل الشرق والغرب من كل جانب . قال هذا الحكيم الإلهي الكبير وقد أمسك بالقلم لكتابة بعض الأمور العقلية ، عندما أخبروه أن البلاد في أتون النار ، قال بمنتهىٰ الطمأنينة : **﴿لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا﴾**[3] فنحن والطمأنينة ، نحن والسكينة ، نحن والإستقامة ، نحن والثبات .

ينقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه في معركة بدر لأنها كانت أول معارك الإسلام ضد الكفر ولم يكن لمسلمي صدر الإسلام سابق حرب ومعارك ولم تكن لديهم الإمكانيات الحربية اللازمة ، وكانت قوات الأعداء أضعاف قواتهم من حيث العدد فضلاً عن تفوقهم في الإمكانيات والمعدات الحربية وفي الرفاه والقدرة الإقتصادية . لهذا كان البعض قلقين من هذه الحرب غير المتكافئة . أما الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقد قضىٰ الليل حتىٰ

---

(١) سورة الطلاق ، الآيتين(٢ ـ ٣) .
(٢) سورة يونس ، الآية(٥٧) .
(٣) سورة التوبة ، الآية(٥١) .

الصباح بالعبادة والدعاء إلىٰ جانب إحدىٰ الأشجار ولم يداخل الإضطرابُ الحرمَ الآمن لقلبه المطهر صلى الله عليه وآله وسلم .

فالإضطراب مرض القلب والطمأنينة سلامته . وذوو القلب السليم مصونون من مرض الإضطراب والقلق . أما من ﴿**في قلوبهم مرض**﴾ فهم أسرىٰ الإضطراب بينما الذين تشملهم الآية ﴿**إلاّ من أتىٰ الله بقلب سليم**﴾[1] فيتمتعون بتمام الطمأنينة والسكينة .

إن القرآن الكريم يعالج بالبرهان الاشكالات في الحكمة النظرية والتي تمثل مرضاً بالنسبة للفؤاد ، وكذلك يعالج بالتهذيب والتصفية أمراض الفؤاد في الحكمة العملية من قبيل الخوف والحزن والإضطراب فيُدخِل السكينة على القلب ، أولم يضمن الله سبحانه الأرزاق؟ يقول عز وجل : ﴿**وما من دابة في الأرض إلاّ علىٰ الله رزقها**﴾[2] .

أوليس الله برازق كل هذه الحيوانات المفترسة والزاحفة؟ أوليس الله لم يخلق ثعباناً ولا عقرباً من دون أن يخلق رزقه معه؟

أوليس الله وطبقاً لقول مولىٰ الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام : «يعلم عجيج الوحوش في الفلوات و . . . واختلاف الحيتان في البحار الغامرات»[3] وحسب قول الشاعر : «يعلم حاجة النملة بغيبه حتى لو كانت في باطن شوكة في صخرة صماء» .

إذن فليس للقلق علىٰ الرزق مبرر سوىٰ الوساوس الشيطانية إننا بحاجة

---

(١) سورة الشعراء ، الآية(٨٩) .

(٢) سورة هود ، الآية(٦) .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٩ .

إلىٰ الرزق . لكننا نتصور أن علينا الإختزان والاكتناز بحيث نصير خزنة غيرنا ﴿**تحبون المال حباً جماً**﴾[1] يُقبّح اللهُ سبحانه الحب الشديد للمال ويعتبره مرضاً من الأمراض . لكنه الإنسان المؤمن في حِلٍّ من هذا المرض تحت ظل القرآن الكريم وواصل إلى عافية السخاء والطمأنينة .

﴿**هو للذين آمنوا هدىً وشفاء**﴾ إنه الهدىٰ علىٰ صعيد الحكمة النظرية والشفاء علىٰ صعيد الحكمة العملية . هو هادٍ للعقل النظري كما هو شافٍ للعقل العملي ﴿**والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمىً**﴾ في نفس هذه السورة آية ذكرناها سابقاً تقول ﴿**وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب**﴾[2] الذي لا يستمع إلى الآيات الإلهية ويمنع الآخرين من الإستماع إليها هو مريض في قضاياه العلمية بالجهل والشك . ومريض كذلك في قضاياه العملية بالحزن والخوف .

أما المؤمن فهو واصل إلىٰ اليقين والنور في القضايا العلمية ، لأن الله ضامن تعليمه عن طريق العلوم القرآنية ﴿**الرحمٰن، علم القرآن، خلق الانسان، علمه البيان**﴾[3] وواصل كذلك في القضايا العملية إلىٰ مكان لا يطاله الخوف والحزن ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ .

أرجو أن تشافىٰ قلوبنا ببركة القرآن الكريم من الأمراض العلمية ومن الأمراض العملية وان تكون قلوب الجميع أوعية لمعارف القرآن الكريم

---

(١) سورة الفجر ، الآية(٢٠) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٥) .
(٣) سورة الرحمٰن ، الآية(١ ـ ٤) .

وأحاديث المعصومين عليهم السلام ويغرق معلمي ومؤلفي العلوم الإلهية برحمته الواسعة . وأن يستجيب هذه الأدعية في حق كل المؤمنين .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الـدرس الســادس

احياء المجتمعات البشرية عن طريق التفكير الصحيح

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتَدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث في المضمون المشترك للسور السبع التي تبدأ بـ (حم) والمعروفة باسم (الحواميم السبع) وقد وصلنا إلى نتيجة هي أن المضمون المشترك لهذه السور السبع هو بيان ضرورة مسألة الوحي وخصائص الوحي وبيان مبدأ الوحي وما جاء به . وشرحنا أن الناس ينقسمون إلى فئتين في قبال الوحي ، وما هي نتيجة القبول بالوحي؟ وما هي الثمرة اللذيذة للقبول بالوحي ، وماذا تكون نتيجة مقاومة الوحي السماوي؟

في هذه السور ، تم بيان مسألة أن الوحي السماوي الذي جاء لهداية الانسان ، يسعى إلى افهام الانسان بمصالحه المادية والمعنوية ، عن طريق الفكر ، لأن الانسان كائن مفكر ، أي أنه يعمل بفكر ويعيش بفكر ، وإذا

اصابه نفع أو ضرر فانه ينتفع أو يتضرر عن طريق افكاره ، وشرح له كذلك الامور المضرة به ، حتى يفهمه عن طريق الفكر كل ما يؤثر في سعادته ، ويثير فيه الشوق عن طريق القلب ، فيفهم الفكر وينجذب بالقلب ، كما ينبهه عن طريق الفكر إلى كل ما يضره حتى يدرك ضرر ذلك الأمر وينزجر عنه قلبيا .

ولما كان أهم هدف لنزول الوحي الالهي ، هو تربية الانسان ، وتربية الانسان غير ممكنة إلا عن طريق الفكر ، لأن الانسان ليس كالشجرة التي تتغذى بالماء والهواء ، وليس كالحيوان الذي ينمو بالرعي والعلف بل هو كائن مفكر ، لا يمكن هدايته ما لم يؤمّن فكره ، لذا ذكرت في هذه السور استدلالات كثيرة حول التوحيد وضرورة الوحي والمعاد حتى تتعرف المجتمعات الانسانية على هذه الاصول ، من خلال التفكير ، وتنقذها من الجهل والشك وتوصلها إلى اليقين والطمأنينة .

وقد طرحنا في الدرس السابق بحثاً استناداً إلى الآية **﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾**[1] ، وكانت خلاصة هوان القرآن شفاء وهداية للمؤمنين لأنهم استمعوا له وفهموا مسائله بالتدبر وقبلوا بقوانينه ، وهو عمى للكافرين ، لأنهم لم يستمعوا ولم يروا ، كانت آذانهم ضعيفة السمع وعيونهم لا ترى فلم يسمعوا ولم يروا .

إن الانسان إذا لم يستفد عن طريق العين والاذن ، فليس أمامه طريق آخر لنضجه وهدايته ، وإذا أراد الانسان أن يهتدي ، فيجب أن يفهم ويسمع ويرى ، حتى يهتدي من مجاري الادراك والفكر هذه .

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٤) .

عن أي طريق يهتدي من لا يستمع إلى القرآن ويتجاهل استدلالاته؟ والذي يقول: **﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾**[1] والذي طرح في صدر هذه السورة (حم فصلت)، عن أي طريق يمكنه ادراك معارف القرآن؟

بما أن الانسان، كائن مفكر، كما سبقت الاشارة، إذا أراد أن ينحرف ينحرف عن طريق الفكر وإذا أراد أن يهتدي، فإنه يهتدي عن طريق الفكر، فإذا أراد الشيطان النفوذ في الانسان، فان فكره هو الطريق الوحيد لنفوذ الشيطنة. وإذا أراد الملك النفوذ في الإنسان، فطريق الفكر هو العامل الوحيد لنفوذ الملائكة.

إذا أراد الله أن يسلط الشيطان على الانسان، يغريه بالشيطنة عن طريق الافكار، وإذا أراد ارسال الملائكة لحماية المؤمن المتقي، فإنه يرسلهم لحماية المؤمن المتقي عن طريق الفكر، وليس هناك طريق لتكامل الانسان غير مجال الفكر والفهم.

فعدو الانسان إذا أراد الحاق ضرر به، فإنه يدخل عن طريق الفكر، وصديقه إذا أراد تقديم نفع له فإنه يدخل عن طريق الفكر، لذا فالله سبحانه، يبين تأييد الملائكة عن طريق الفكر، ويصف عداوة الشياطين عن طريق الفكر ويبين استدلالات القرآن الكريم الضامنة لهداية الناس، عن طريق الفكر.

إن جميع القرآن، وهو نور، هو احتجاج حول المبدأ والمعاد وضرورة الوحي، تارة من خلال ذكر استدلالات الانبياء السابقين وتارة على

---

(١) سورة فصلت، الآية(٥).

شكل أمر ابتدائي حيث يقول للنبي ﷺ بأن يستدل هكذا ، وتارة يبين المسألة بوصفها احتجاج ، من دون أن يقول للنبي أن يقل هكذا .

ولكن يلزم قلب منفتح واذن صاغية وعين مبصرة لنيل معارفه الرفيعة ، وبناء على هذا فإن الانسان إذا كانت اذنه مغلقة عن القرآن ، فإنها بالتأكيد مفتوحة إلى جهة الشيطنة والاغواء .

في سورة النساء ، ذكر قضية اغواء واضلال الشيطنة بهذا الشكل ، وهو أن الشيطان يخدع الانسان عن طريق الفكر **﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا﴾**[1] ، أي أن الشيطان قال انني اتخذت بعضاً من عبادك حصتي فقد اتخذت واتخذ مجموعة غير قليلة من عبادك عباداً لي . فإذا كان البعض عباد الله ، فهناك عدد كبير عباد ومطيعون للشيطان . ثم يبين عن أي طريق يتخذ الشيطان ببعض عبادا له؟ **﴿ولأضلنهم﴾**[2] ، الشيطان يقول لله انني اضل كثيرا منهم **﴿ولأمنينهم﴾**[3] أُلهيهم بالامل والامنية .

أي انني ادخل عن طريق الامنية ، ادخل عن طريق الفكر . أظهر الاشياء القبيحة جميلة له ، وأصف له الحق والحسن ، قبيحاً له ، وأمنّيه بمستقبل موهوم . ازرع اليأس فيه من المستقبل المؤكد ، واقطعه عن أمر هو ملجأ مؤكد .

نعم إن طريق نفوذ الشيطنة ، هي الاهداف والامنيات الباطلة **﴿ولأمنينهم﴾** يصبحون من أهل التمني والامنية . قال أمير المؤمنين مولى الموحدين عليه أفضل صلوات المصلين: «إياك والاتكال على المنى فانها

---

(١) سورة النساء ، الآية(١١٨) .
(٢) سورة النساء ، الآية(١١٩) .
(٣) سورة النساء ، الآية (١١٩) .

بضائع النوكى»[1] . إن الانسان الفعال حي بالاعتقاد والعمل وليس بالامنية المحضة .

إن الحياة الفكرية للإنسان ترتبط بالايمان والعمل الصالح وليس بالهدف الفارغ ، فالمرأة العجوز الطاعنة في السن ، التي ليست من أهل النشاط هي التي تعيش بالامنية ، أما الانسان العاقل فهو يعيش بالايمان والعمل وليس بالامنية .

إن الفرق بين الامنية والرجاء ، هو أن الشخص الذي يهيىء مقدمات عمل وينتظر ثمرته ، هو راج وآمل ، أما من لم يهيىء مقدمات العمل وعاش في انتظار فارغ فقد اعتمد على تمنٍ محض .

والشيطان يُبعد الانسان عن الاعتقاد والعمل ، وعندما يبتعد الانسان عن الاعتقاد والعمل ، يصبح ضعيفاً مثل انسان عجوز ، ويحيا بأمنية محضة .

يقول الشيطان ، ﴿**ولأمنينهم**﴾ ، أخدعهم بالامنية ، اصطادهم عن طريق الامنية ، حينما يريد القرآن أن يتكلم مع الانسان ، يقول بأن نظام الخلق لا يتغير بامنية أي شخص . إن السعادة في المستقبل لا ترتبط بامنية شخص . ﴿**ليس بامانيكم ولا اماني اهل الكتاب**﴾[2] .

إن الامنية لا تتمتع بحرمة خاصة في النظام ، والاعتقاد والعمل الصالح هما المحترمين والايمان والعمل الصالح هما النافعين ، والامنية هي لدى الشخص الذي ليس لديه راسمال الايمان في القلب ولا رأسمال

---

(١) نهج البلاغة ، الرسالة ٣١ .
(٢) سورة النساء ، الآية(١٢٣) .

العمل الصالح في الجوارح ، والانسان المنقطع والمحروم هو الذي يعيش بالامنية .

الشيطان يقول: إنني انتزع منهم العمل الصالح ، واغلق امامهم طريق الاعتقاد الصحيح ، وأصم آذانهم واغلق طريق القلب وامنينهم ، فيضلون .

﴿ولأمنينهم﴾ ، حين اجعلهم يعيشون بالامنية ، عند ذلك آمرهم **﴿ولآمرنهم﴾**[1] أقول لعيونهم ارتكبي خيانة ، اقول له اجعل التهديد الالهي القائل **﴿يعلم خائنة الاعين﴾**[2] وراء ظهرك ، فتطيع العين .

أقول لقلوبهم ، اعتبري الانفاق في سبيل الله وهي غنيمة الهية ، غرامة وخسارة ، فتعتبر الانفاق في سبيل الله غرامة وخسارة ، اقول لقلوبهم ان تحزن من الماضي وتخاف من المستقبل ، فتطيع قلوبهم أيضاً .

وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بشأن اتباع الشيطان «اتخذوا الشيطان لامرهم ملاكا . . . فباض وفرخ في صدورهم . . . فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم»[3] .

ان القرآن ، بيّن خطوة خطوة ، طريق نفوذ الشيطنة في الانسان من حيث التمني والمجاري الفكرية يقول: **﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾**[4] فيقول لك إذا قمت بالانفاق الفلاني تبتلى بالفقر ، فعلي بن أبي طالب عليه السلام يقول انفق لكي ينزل الرزق ، والشيطان يقول بأن الانفاق يؤدي إلى التعرض إلى الفقر .

---

(١) سورة النساء ، الآية(١١٩) .
(٢) سورة غافر ، الآية(١٩) .
(٣) نهج البلاغة للفيض الخطبة ٧ .
(٤) سورة البقرة، الآية(٢٦٨).

إن التفاوت بين هذين الكلامين هو الفرق بين الحق والباطل . أمير المؤمنين يقول: «استنزلوا الرزق بالصدقة» مثلاً ، لو اعطاكم الله سبحانه علماً ونشرتموه في سبيل الله فان رزقكم العلمي يزداد ، وإذا اعطاكم مالاً وصرفتم ذلك المال في سبيل الله فإن رزقكم المالي يزداد .

إن رزقكم هو في مخزن الغيب وينزل بمقدار ما يراه الله سبحانه صالحاً **﴿إن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾**[1] **﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾**[2] ، فانزلوا الرزق من مخزن الغيب بواسطة الصدقة «فتاجروا الله بالصدقة»[3] . ادفعوا الصدقة حتى يجعل الله رزقكم كثيراً . وهذه رؤية الهية وردت في جوامعنا الروائية عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام .

أما الرؤية المادية للشيطان فهي امتنعوا عن مساعدة الآخرين حتى لا تصبحوا فقراء . **﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾** ، بينما الوحي السماوي يقول بأن سيروا في طريق الخير حتى تحصلوا على عدة اضعاف من الثواب **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾**[4] .

الشيطان يخوّف من التضحية والايثار ويقول بأنك إذا ضحيت بنفسك في طريق الخير أو ضحيت بمالك فانك تصاب بالغرم بينما الوحي السماوي يقول بأنك إذا اعطيت النفس أو المال في طريق الحق فانك تغنم التقرب

---

(١) سورة الحجر ، الآية(٢١) .
(٢) سورة الذاريات ، الآية (٢٢) .
(٣) نهج البلاغة ، فيض الاسلام ، الكلمات القصار ٢٥٠ .
(٤) سورة البقرة ، آية(٢٦١) .

الالهي .

في سورة التوبة ، يبين قضية الشيطنة والنفوذ الاغوائي للشيطان ، هكذا: ﴿**ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما**﴾[1] ، يعتبرون الخدمات الدينية خسارة ، يتصورون انهم فقدوا شيئاً وخسروا . وهذه رؤية مادية .

وهناك بعض الناس يعتبرون ما يعطونه في سبيل الله تجارة . ﴿**هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله**﴾[2] . يعتبرون الايمان بالله والقيام بالعمل الصالح تجارة مفيدة .

إن كلتا الرؤيتين ، تدخل حدود نفس الانسان عن طريق الفكر ، الشيطان يدخل إلى البيت الانساني عن طريق الفكر ، والملك والنبي والوحي الالهي يدخلون كذلك عن طريق الفكر . الشيطان يغوي عن طريق الامنية وعن طريق التهديد بالفقر ، والملائكة تهدي عن طريق الطمأنينة وعن طريق سكون القلب .

الملائكة تتنزل على المؤمنين الثابتين وتقول: ﴿**ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا**﴾[3] .

والشياطين يدخلون على الكفار والمنافقين ويقولون: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر**﴾ ﴿**ذلكم الشيطان يخوف اولياءه**﴾[4] ﴿**تنزل على كل أفاك أثيم**﴾[5] ، ينزل الشيطان على اتباعه ويخوفهم من محاربة الباطل ويقول

---

(١) سورة التوبة ، الآية(٩٨) .
(٢) سورة الصف ، الآيتين(١٠ ـ ١١) .
(٣) سورة فصلت ، الآيتين(٣٠ و٣١) .
(٤) سورة آل عمران ، الآية (١٧٥) .
(٥) سورة الشعراء ، الآية (٢٢٢) .

بأن لا تقفوا امام القوي الجائر فتفشلون بينما الملائكة تنزل على المتقين الالهيين وتشجعهم .

إذا أراد الشيطان اضلال الانسان فإنه يخدعه عن طريق فكره ، وإذا أرادت الملائكة هداية الانسان فانها تحميه عن طريق الفكر .

إن الانسان الالهي المفكر يقول انني اكافح الباطل ما دمت حياً حتى اقضي عليه ، لأن هذا العمل يجيبني ويثبتني ، كما يحيي المجتمع أيضاً وهذه التضحية بالنفس والمال غنيمة ، والانسان المفكر المادي والمحب للدنيا يقول إن كل ما اصرفه في هذا الطريق غرامة .

إذا اعتبر الانسان أن الحرب ضد الباطل غنيمة ، واعتبرها آخر غرامة يعلم أن الاول تحت ولاية الرحمان بينما الثاني تحت ولاية الشيطان ، حيث أن ﴿**ذلكم الشيطان يخوف اولياءه**﴾ . وقد ورد بالنسبة إلى الأول هكذا ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا**﴾[1] . إن الذي يقول الله ، ويبدي استقامة ، تتنزل عليه الملائكة أن لا يخاف ولا يحزن ، وتنزل الملائكة هذا على المؤمنين لا يختص بحال الاحتضار والموت ، كما انه لا يختص بحال البرزخ والقيامة ، بل يتجلى في جميع شؤون حياتهم ، لأن محياهم ومماتهم هو لله ، ونزول الملائكة هذا هو الذي يؤدي إلى سكونهم .

ليست هناك نعمة ، أفضل من طمأنينة القلب ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[2] . الشيطان يسعى إلى هدم هذا المرتكز الذي يستند عليه

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٣٠) .

(٢) سورة الرعد ، الآية(٢٨) .

الاطمئنان ، عن طريق الفكر ، وذلك بنسيان ذكر الله ، حيث قال الله : ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾[1] .

لذا فهم مضطربون دائماً ، تارة يتجهون إلى الشرق وتارة إلى الغرب ، تارة يتمسكون باحضان هذا العدو ، وتارة يقعون في شباك ذلك العدو ، والذي يفقد معتمد العزة والطمأنينة يصبح حيراناً .

إن القرآن الكريم ، يربي الانسان عن طريق افكاره ، والملائكة تحمي الانسان من خلال الفكر كما أن الشيطان يضله عن طريق الفكر أيضاً . لأن الانسان كائن مفكر ، وليس ثمة امر أهم من نمط التفكير الصحيح لكسب سعادة الانسان . والمفكر المادي لا يرى الانفاق غرامة فحسب ، بل هو يتحين الفرصة باستمرار للانتقام ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾[2] ينتظر أن يتغير النظام الاسلامي يوماً ، حتى يسعى ضد الاسلام ويلحق ضرراً بالمسلمين .

إلا أن المدافعين عن هذا النمط من التفكير لا يحققون شيئاً من هذه الامنية الخام [الساذجة] ﴿عليهم دائرة السوء والله سميع عليم﴾[3] . انهم لا يعلمون أن الحقيقة حية دائماً وأن الله سميع وعليم دائماً . فهو مطلع على نواياهم السيئة كما أنه يقلب نواياهم هذه عليهم .

إن المفكرين الالهيين يعتبرون كل خطوة يخطونها وكل خدمة يعملونها ، غنيمة وليس غرامة .

﴿ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند

---

(١) سورة المجادلة ، الآية(١٩) .
(٢) سورة التوبة ، الآية(٩٨) .
(٣) سورة التوبة ، الآية(٩٨) .

الله وصلوات الرسول ألا انها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾[1] .

لانهم مطمئنون أن الله يثيب عمل الخير بعشرة اضعافه «من أيقن بالخلف جاد بالعطية»[2] إذا كان لدى الانسان يقين بأن عمل الخير والانفاق في سبيل الله ، يُملأ مكانه فوراً ولا يظل خالياً فانه يصبح جواداً وسخياً في العطاء .

إن عمل الخير ليس كالحجر الصلد ، الذي يظل مكانه خالياً إذا رفعته من الأرض ، بل عمل الخير يشبه اخذكم لمقدار من الماء من نهر جار ، حيث يمتلىء مكانه فوراً ولا يظل خالياً ابداً . فالانفاق كالماء الجاري الذي يمتلىء فراغه فوراً ، وهو ليس جامداً وواقفاً كالحجر أبداً ، بل هو متحرك .

والرعاية الالهية ، هي في حركة دائماً ، لترى أين حصل انفاق : فتملأ المكان فوراً ، ليس بنفس المقدار ، بل عشرة أضعاف .

إذن يوجد نمطان من التفكير لدى الافراد والمجتمعات البشرية ، احدهما يعتبر خدمة الاسلام غرامة والآخر يعتبر خدمة الدين غنيمة ، الشيطان يوسوس بالرؤية الاولى ، والملائكة تدعم وتهدي بالرؤية الثانية .

إن الله سبحانه أوضح شكل نفوذ الشيطنة كما يلي : **﴿ولامنينهم﴾** وقال في محل آخر : **﴿ذلكم الشيطان يخوف اولياءه﴾** . الشيطان يخوف اصدقاءه ويقول لا تقوموا بمحاربة الكفر والكفار فتفشلون ، وقال في محل ثالث : **﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾** ، أي أن الشيطان يخوفكم من الفقر ويقول لا

---

(١) سورة التوبة ، الآية(٩٩) .

(٢) نهج البلاغة ، فيض الاسلام ، الكلمات القصار ١٣٣ .

تقدموا مساعدة مالية فيكون مستقبلكم فقراً ، وبيّن طريق هداية ونزول الملائكة هكذا ﴿**تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا**﴾ ألستم انتم وكل ما لديكم هو لله ، ألم يقل الله بأنكم إذا قمتم بهذا العمل في سبيل الله ، فإن الله يجبره بعشرة اضعاف ، إذن لا تَدَعوا لأي خوف وحزن طريقاً اليكم .

من ناحية ينقذ الملائكة اولياء الله من خطر الخوف والغم ، ويشجعونهم ويقوونهم ومن ناحية اخرى يضعف الشيطان اولياءه بسلاح الخوف والحزن .

الذين يعتقدون بالله والقيامة ، يرون أن ما ينفقونه في سبيل الله ، سواء كان انفاقاً مالياً أو إنفاقاً علمياً وخدمياً وامثال ذلك ، هي عامل تقرب الى الكمال المحض والحق الصرف . والله سبحانه صدّق كلامهم، فقال : ﴿**ألا انها قربة لهم**﴾ ، اعلموا أن خطوات الخير القائمة على الايمان ، تقرب صاحب الحالات إلى الله ، إذن عمل الخير هو تقرب وغنيمة أيضاً . رغم أن الشيطان يلقن اتباعه بأن ذلك غرامة .

إن الله سبحانه يريد في هذه السور السبع ، من خلال كلمات متنوعة احياء المجتمعات البشرية عن طريق تفكيرهم الصحيح ، تارة بتشجيع المفكرين المستقيمين ، وتارة بتقبيح المفكرين الكاذبين .

وفي سورة فصلت هذه ، نبّه إلى أمرين مهمين ، كل منهما عامل فتنة وخطر ، احدهما شكل الفكر السيّىء والاخرى مبدأ ظهور فكر السوء . الاول هو معرفة الفكر الخبيث والثاني المعرفة التربوية لذلك الفكر المذموم . وكذلك ينبه إلى مسألتين مهمتين ، كل منهما عامل خير

وسعادة ، احداهما معرفة الفكر الصحيح ، والاخرى معرفة مبدأ تعلّم الفكر الصحيح . ﴿**وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم وما خلفهم**﴾[1] .
ان الاشخاص الفاسقين الذين لم يكونوا على استعداد للحضور في مجلس الوحي ليفهموا الوحي الالهي ، ويعملوا بمقتضاه ، وذلك نتيجة الانحراف الفكري ، حالوا أيضاً دون حضور الآخرين ، وقد طرح في البحث السابق ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[2] ، هؤلاء هم الذين قال الله بشأنهم أنه ارسل اليهم شياطين ليكونوا رفقاءهم الباطنيين وان الشيطان يستوطن في قلوبهم .

إن الشيطان إذا بنى وكرا في باطن الانسان ، فانه يفقد الراحة الفكرية ، لأنه يبتليه بالوسوسة في الليل والنهار واليقظة والنوم ، يظهر له القبائح جميلة ويصف له الامور الجميلة قبيحة ومذمومة ، يجعله يعيش بالاماني الساذجة ويبعده عن الايمان والعمل الصالح .

﴿**وقيضنا لهم قرناء**﴾ قال ، بان هؤلاء الفاسقين قد تعرضوا لعذاب وهو انه قيض لهم اصدقاء وقرناء سوء يسعى هؤلاء الاصدقاء وهم مرة على شكل انسان ، ومرة باشكال اخرى ليزينوا لهم ما هو لديهم حالياً ﴿**فزينوا لهم ما بين ايديهم وما خلفهم**﴾ يمنونهم بمستقبل موهوم ، يجعلونهم مسرورين بما يظل بعدهم .

في قسم آخر ، قال القرآن الكريم : ﴿**من يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا**﴾[3] ، لأنه يعلم من أي طريق ينخدع الانسان ، يعرف الخصائص

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٢٥) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٢٦)
(٣) سورة النساء ، الآية(٣٨) .

النفسية لكل شخص ويعرف طريق خداع كل شخص فيدخل من ذلك الطريق ويغويه .

وإذا رأى الانسان الحق باطلا والباطل حقاً ، فلا بد له من العمل على أساس رؤيته الخاصة . والانسان المفكر ما لم يفكر بمسألة فانه لا يبادر على أساسها . وما أن تحل لديه مسألة من ناحية الفكر الخاص المتعلق بها فانه لا يتأخر ، في المبادرة على أساس ذلك . والشيطان أيضاً يدخل عن طريق فكر الانسان ويصور الحق باطلا ويبين القبيح جميلا ، ويخدعه عن طريق الفكر غير الصائب .

نعم ، إن الكائن الفكري ، يتضرر أو يتغذى من خلال الفكر ، وإذا غرست شجرة عند حافة نهر ، وادخلتم اغصانها في الماء ، فإن عطشها الطبيعي ، لا يزول ، ولا تنمو ولا تثمر ، لأن الشجرة تتغذى عن طريق الجذر فقط ، فيجب ايصال الماء إلى جذرها حتى تنمو وتثمر ، لا أن توصلونه إلى سيقانها ، وتتركون جذورها عطشانا .

إن الانسان لا يمكن ابداً هدايته أو اضلاله من خلال العين والاذن ، لأن العين والاذن وسائر الحواس الظاهرية ، هي وسيلة حتى يدخل الادراك في قلبه ، وحين لا يستقر الكلام في القلب ، ولا يكون صادراً عن القلب ، فانه بلا جذر ولا يثمر .

والشيطان يعمل على اماتة جذر فكر الانسان ، لأنه قال : ﴿ولأمنينهم﴾ أي يدخل عن طريق الامنية ، يصور القبيح جميلاً في حدود جذر فكره ، ويصور الجميل قبيحاً .

وإذا اضل الشيطان ، الانسان بالنفوذ إلى محور فكره ، وخدعه ، عند

ذلك يصعب على الانسان المفسد الضال ، معرفة الطريق الصحيح . لكن جميع سيئات هذا التعليم السيّىء إنما تهيأت بيد الانسان نفسه **﴿بما كسبت أيدي الناس﴾**[١] . **﴿بما كسبت ايديكم﴾**[٢] .

كما أن البعض قد هيأوا الأرضية لنزول الملائكة نتيجة تجنب التعليم السيىء ، واصبحوا يتمتعون بحماية خاصة من الملائكة ، كما تم بيان ذلك في البحث السابق **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾** . الذين كان منطقهم الاعتقاد بالله وكانت استقامتهم بالاعتماد على الله سبحانه ، تتنزل عليهم الملائكة وترفع الخوف والحزن من حرم امن قلوبهم ، عن طريق تعليم الفكر الصحيح ، وتشجعهم وتحميهم بسلاح الامن والنشاط .

إن سبب نزول الملائكة هو لكي ترفع معها الناس المتقين ، لكن الشيطان ينزل على قلوب الفاسقين لغرض انزالهم معه ، فعمل الشيطان هو اعطاء التولي **﴿فدلاهما بغرور﴾**[٣] وعمل الملائكة اعطاء التعالي **﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾**[٤] .

وقد بيّن القرآن الكريم هذه المسألة الظريفة هكذا وهو أن الشيطان قال لآدم وزوجته : **﴿وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين﴾**[٥] . قال لآدم أبو البشر : **﴿يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾**[٦] فوسوس

---

(١) سورة الروم ، الآية(٤١) .
(٢) سورة الشورى ، الآية(٣٠) .
(٣) سورة الاعراف ، الآية(٢٢) .
(٤) سورة آل عمران ، الآية(٦٤) .
(٥) سورة الأعراف ، الآية(٢١) .
(٦) سورة طه ، الآية(١٢٠) .

بحيلة الدلالة . **﴿فدلاهما بغرور﴾** ، عمل على تدلي هذين الشخصين الكبيرين بالخدعة ، أي أنزلهما، علّقهما .

التدلي يعني التعليق ، والمتدلي يعني المتعلق ، والشيطان دخل ساحة النصيحة بحجة الدلالة ولكنه دلى ، لأن عمله هو التدلية . أما الملائكة فتنزل لترفع الانسان .

هذا الانسان المفكر المخير بين مرتفع الملكية ومنخفض الشيطنة ، يجب أن يفكر ، هل يعطي اليد للملائكة حتى يرتفع أم يسلّم القدم إلى الشياطين حتى يسقط؟!

والخلاصة هناك فئة **﴿قيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم وما خلفهم﴾** وفئة اخرى **﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾** والملائكة تنزل عندما تكون الشياطين قد تركت الساحة .

يقول الشاعر (ما ترجمته): لا مكان في مشهد القلب للكلام عن الاغيار فعندما تخرج الشياطين تدخل الملائكة .

متى تنزل الملائكة؟ في حالة **﴿الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾** ، متى يدخل الشيطان؟ في حالة ان يقول الانسان **﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾** إن الذي تكبر في مقابل الوحي الالهي وبدأ المواجهة ، يقول **﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾** فلا هو يسمعه ولا يَدَع الآخرين يسمعون .

هذا المفكر المادي فتح طريق الشيطنة بيده لأنه اغلق طريق الوحي واولئك المفكرين الالهيين فتحوا طريق نزول الملائكة ، لأنهم اغلقوا طريق الشياطين .

النتيجة هي أن الله سبحانه بيّن جيداً في هذه الحواميم أن الانسان كائن مفكر ، وهدف الوحي هو تربية الانسان عن طريق الفكر الصحيح ، فهو ينقذه من الجهل والامراض الاخرى في مجال المسائل العلمية ومن الخوف والحزن والشك والمشاكل الاخرى ، في مجال المسائل العملية ، لأن القرآن هو هداية شاملة بالنسبة للمفكرين الحقيقيين **﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾** أما **﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمىً﴾** .

نرجوا أن ينور الله تعالى ببركة القرآن الكريم ، قلوب الجميع بمعارف القرآن ومعارف اوليائه وان يرحم اساتذتنا ومعلمينا وان يختم أمور الجميع بالخير والسعادة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الــدرس السابــع

العمل يرتبط بعامله فقط

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمٰن الرحيم . الحمد لله الـذي هـدانـا لهـذا ومـا كنـا لنهتـدي لـولا أن هـدانـا الله وصلّى الله على جميع الأنبيـاء والمـرسلـيـن والأئمـة الهـداة المهـديـيـن سيمـا خـاتـم الانبيـاء وخـاتـم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث في السور السبع التي تبدأ بالحروف المقطعة (حم) ، وبما أن هذه الحروف المقطعة هي ظاهراً رمز لمضمون السورة وقد ذكرت في بداية سبع سور من القرآن الكريم ، فإنه يستفاد أن لهذه السور السبع مضموناً مشتركاً .

ومع انه يوجد مضمون خاص في كل واحدة من هذه السور السبع ، ولكن بما أنها مشتركة في المسائل الكلية والاساسية لذا فقد جعلت حروف مقطعة مشتركة في بداية هذه السور السبع .

واهـم مضمـون مشتـرك لهـذه السـور السبـع هـو بيـان الخطـوط الكليـة للـوحي ، أي بيـان أصـل الـوحي وضـرورة الـوحي وأن مبـدأ الـوحي هـو الله

الحكيم العزيز وأن مهبط الوحي هو القلب المطهر للرسول الاكرم ﷺ وسمعه وبصره ﷺ وأن ما جاء به الوحي هو المعارف العامة والرؤية الكونية الالهية . وكذلك الاخلاق والدعوة إلى العمل الصالح .

وقد وصلنا في البحوث السابقة إلى مسألة أن الله سبحانه يهدي الانسان في هذه السور السبع عبر أهم طرق تربيته ، لأن الانسان كائن مفكر وإذا أراد أن ينضج فإنه لا يجد التعالي إلا عن طريق الفكر السليم والصحيح ، ولو أراد أن يسقط ، فإنه إنما يسقط عن طريق الفكر الباطل وغير الصحيح فقط .

لذا يصر القرآن الكريم على قيادة الانسان عن طريق الفكر الصحيح ، فالناس المتكاملون إنما وصلوا الهدف بمساعدة الافكار الصحيحة وتعلمها من ملائكة الرحمة والعلم .

وبالمقابل فالاشخاص الذين تعرضوا إلى السقوط في الهاوية إنما كان ذلك نتيجة الافكار الباطلة والوساوس الخبيثة للشياطين في الداخل والخارج .

وقد بيّن القرآن رمز صعود تلك الطائفة ، وسر سقوط هذه الفرقة ، فيقول بشأن المفكرين ذوي التفكير الصائب في سورة فصلت ، وهي احدى (الحواميم السبع) : **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة﴾**[1] .

حين تنزل ملائكة الرحمة ، فانها توصل رسالة الله الرؤوفة ، وتضعها في قلب الانسان العالم . وكذلك ترفع معها صاحب القلب . فالمَلَك لا

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٣٠) .

يأتي لينزل فقط ويوصل الرسالة ، بل إن رسالة المَلك هي أنه يوصل الرسالة في مقام إلعلم ويجعل الانسان عالِماً ويهذبه في مقام العمل .

وهٰذه هي روح التأييد والتسديد التي بشّر الله سبحانه بها المؤمنين **﴿اولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه﴾**[1] .

والخلاصة أن الملَكَ ينزل ليأخذ بيد اصحاب القلوب المتقية ويرفعها معه ، أي أن نزولهم متناسق مع صعود المفكرين المتقين ، لذا تارة يتكلم الله سبحانه عن نزول الملائكة ، مثل: **﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾** . واخرى عن صعود العقلاء المتقين ، مثل: **﴿إليه يعصد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾**[2] .

إن المَلَك ينزل من فوق ليرفع الانسان عن طريق التعليم والتزكية ، أما الشياطين فهم يترصدون من الاسفل لينزلوا الانسان . فعمل الشيطان قطع الطريق والتنزيل **﴿لاقعدن لهم صراطك المستقيم﴾**[3] .

وفي هذه السورة المباركة (حم فصلت) قال بشأن الفاسقين: **﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾**[4] ، أي جعلنا لذوي الفكر السيىء والمجرمين ، شياطيناً تزين لهم الوضع الحالي وحالهم وكذلك الاوضاع القادمة للجيل اللاحق ، وتلفت انتباههم إلى المسائل المادية وحوادث الدنيا فقط ولا يفكرون مطلقاً بتحصيل زاد لسفرهم الابدي .

حين يفقدون متاعاً يكونون في حالة قلق وحزن دائم على فقدان تلك

---

(١) سورة المجادلة ، الآية(٢٢) .
(٢) سورة فاطر ، الآية(١٠) .
(٣) سورة الأعراف الآية(١٦) .
(٤) سورة فصلت ، الآية(٢٥) .

البضاعة ، كما انهم قلقون وخائفون دائماً من احتمال زوالها في المستقبل ، وهذا الحزن وهذا الخوف يسلب منهم كل أنواع الراحة الفكرية ويتحول شيئاً فشيئاً إلى شكل جهنم محرقة .

ولكن الذين تخلصوا من كل حزن وخوف في ظل امداد الملائكة ، يتمتعون دائماً براحة فكرية ، حتى يصبحون شيئاً فشيئاً روحاً وريحاناً . **﴿فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان وجنة نعيم﴾**[1] لأنهم يتمتعون بجنة روحانية ممتازة ، بالاضافة إلى الجنة الجسمانية .

وبناء على هذا ، فإن الانسان ينضج أو يسقط عن طريق فكره . والقرآن يسعى إلى تيسير نمط التفكير الصحيح وكذلك اسلوب العمل اللائق أمام الانسان .

وقد طرح خلال آيات عديدة ، التفكير الصحيح بشكل كامل والعمل الصحيح ، كي لا يكون هناك طريق للانحراف الفكري أو العملي للانسان . في سورة فصلت قال تعالى : **﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾**[2] .

اللحد يقال لزاوية وحاشية شيء ما ، ولحد القبر ، يطلق على حاشية وزاوية القبر ، والالحاد يعني الانعزال والملحد هو الشخص الذي ينعزل عن ممر الصراط المستقيم وينحرف عن الطريق المستقيم .

إن الذين يلحدون في آيات الله لا هم يرون الآيات التكوينية ـ الانفسية والآفاقية ـ في النظام الخارجي حتى يصبحوا موحدين ، ولا هم ينظرون إلى

---

(١) سورة الواقعة ، الآيتين(٨٨ ـ ٨٩) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٠) .

الآيات التدوينية والتشريعية في القرآن الكريم حتى يتعرفوا عليها مما يؤدي إلى تحركهم في حافة السقوط ، وعند أقل زلل يسقطون .

الخلاصة أن هؤلاء يلحدون في آيات الله ، بينما يجب أن يفكروا في نفس آيات الله ، ولا يخفى على الله عملهم وانعزالهم وانحرافهم ، فعمل الملحد لا يخفى على الله ، ولا يكون خارجاً عن دائرة علم الله **﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾** .

وإذا كان الله حقاً وعلماً محضاً ، وليس للجهل طريق إلى حرم ذاته المقدسة **﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة﴾**[1] وكذلك لا طريق للنسيان في علم الله **﴿وما كان ربك نسيا﴾**[2] بناء على هذا ، فالانسان الملحد لا يكون مخفياً عن الله سبحانه .

والخلاصة هي أن القرآن قد بيّن حكم هاتين الطائفتين ، فذكر أن هناك طائفة لديها رفقاء سوء يضلونها من الداخل والخارج ، وهناك طائفة اخرى لديها اصحاب صالحين يؤيدونها دائماً من كل الجوانب اولئك المبتلون بأصحاب رفقاء السوء يلحدون بشأن آيات الله ، نتيجة التفكير غير الصائب واصحاب الاصدقاء الصالحين يؤمنون بجميع آيات الله ، نتيجة التأييد الالهي .

وهاتان الطائفتان غير متساويتين ، لأن الملحدين سيتعرضون إلى النار ، والموحدين سيتمتعون بأمان ورفاه كامل **﴿أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾**[3] .

---

(١) سورة يونس ، الآية(٦١) .

(٢) سورة مريم ، الآية(٦٤) .

(٣) سورة فصلت ، الآية(٤٠) .

إن المؤمن الذي يعيش في ملاذ أمن الله محفوظ من كل ضرر ، فالمؤمن الحقيقي لا يتعرض ابداً إلى الضرر لا في القبر وهو البرزخ ولا في القيامة ، حيث أنه مصان من الالم وخوف الانتقال إلى عالم جديد عند الدخول إلى عالم البرزخ أي لحظة الموت ، بل ليست هناك لذة لدى المؤمن اعذب من لذة الموت . لأنه يجد للحق ظهوراً أكثر ، ويشاهد اولياء الله في تلك الحالة .

ثم يقول تعالى مهدداً الفاسقين الذين يلحدون بشأن آيات الله · ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾[1] أي ان كل فسادكم مدون وسوف تحكمون عليه بعقوبات مرة .

يأمر الله سبحانه طائفة بالتقوى ، ويقول لطائفة أخرى ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ ولا يعتبرهم لائقين للامر بالتقوى ، لأن التقوى تعني تجنب الذنب والصيانة من التلوث . والشخص الملوث الذي ختم الفساد في قلبه . واصبح طريق نفوذ الحق مغلقاً إليه ، كيف يمكن دعوته إلى تجنب الفساد؟

ومع أن الله سبحانه أمر الجميع بالتقوى ، ولكن في المرحلة اللاحقة ، حيث جعلت طائفة ، آيات الله وراء ظهورها وألحدت فيها متعمدة واغلقت متعمدة طريق هدايتها وأعمت بصرها يخاطبهم الله : ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ .

ولتوضيح أساس المسألة لاحظ هذا المثل . عندما يراجع مريضان طبيباً ، وبعد المعاينة رأى ذلك الطبيب الحاذق أن احدهما قابل للمعالجة فاعطاه تعليمات دوائية وتعليمات بالاجتناب عن الاغذية غير المساعدة ،

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٠) .

وقال ، استعمل هذه الادوية وتجنب هذه الأغذية . هذا التجنب دليل على أن المريض هو في صراط المعالجة .

لكنه قال للمريض الآخر: ليس لك حمية ، أي أن جميع الأغذية متساوية بالنسبة لك ، وصل امرك إلى درجة أن الامتناع لا يؤثر فيك ، وحين يقول الطبيب الحاذق للمريض؛ ليس لك حمية فيجب أن يفهم أن عمره انتهى .

القرآن الكريم يأمر طائفة بالتقوى ، وهؤلاء هم اشخاص لديهم زلل ، يرمم بالامتناع والتقوى . ويقول لطائفة اخرى وصلت إلى مرحلة الالحاد؛ انها لا تحتاج إلى امتناع . **﴿اعملوا ما شئتم﴾** .

لأن الانسان حين يصبح كفراً مجسماً ويقول أمام النبي : **﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾**[1] ، يقول الله سبحانه بشأنه : **﴿سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾**[2] أي انهم لا يؤمنون ، سواء أخوفتهم من عقوبة الفساد ، أو لم تخوفهم .

إن القرآن لا يأمر بالتقوى ، هؤلاء الملحدين ، الذين اغلقوا عمداً طريق الهداية أمامهم لأن امرهم قد تجاوز العلاج ، بل يقول: **﴿اعملوا ما شئتم﴾** ولكن اعلموا **﴿انه بما تعملون بصير﴾**[3] فأنتم تقومون بهذه الأعمال في حضور الله .

كان رسول الله ﷺ ، يتأسف كثيراً حين يكون أمام الملحدين

---

(١) سورة الشعراء، الآية(١٣٦) .
(٢) سورة البقرة ، الآية(٦) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(٤٠) .

المعاندين لأنه صلّى الله عليه وآله ، كان مظهراً للرحمة . **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[1] و**﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**[2] ، لذا كان يريد هداية جميع المجتمعات الانسانية وانقاذهم من الخطر الشاق في المستقبل ، وكان يتأثر بشدة من الذين كانوا يتمردون على قبول هدايته ، حتى كان يوشك من شدة الاسف أن تزهق نفسه .

وقد امره الله تعالى بالتسلي ، في عدة مواضع من القرآن الكريم ، فتارة يقول : **﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾**[3] ، وتارة يقول؛ **﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا﴾**[4] ، وفي موارد اخرى أيضاً ، سلّى الله رسوله في أن لا يتأثر من اجلهم إلى هذا الحد ، وقد مر بيان هذه البحوث .

واحياناً كان يعزيه هكذا ، بأن المفسدين لم يقفوا بوجهك فقط ، بل كانوا يتصلبون أمام الانبياء السابقين ، وكان الانبياء يقضون عليهم بمنتهى المقاومة والحلم ، وأنت صدقت واكملت كلام الانبياء السابقين ، وكلامك له هيمنة واشراف على كلامهم .

لذا فإن الكفار المفسدين في كل عصر ، الذين يبدون رد فعل تجاه الدعوة السماوية في ذلك العصر يتصلبون أمام دعوتك السماوية أيضاً **﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾**[5] . أي ان الكلام والسلوك السيّء الذي يمارسونه تجاهك . هو نفس الاسلوب الذي كانوا يستعملونه تجاه

---

(١) سورة الانبياء ، الآية(١٠٧) .
(٢) سورة التوبة ، الآية(١٢٨) .
(٣) سورة فاطر ، الآية(٨) .
(٤) سورة الكهف ، الآية(٦) .
(٥) سورة فصلت ، الآية(٤٣) .

الأنبياء السابقين ، ولكن اعلم **﴿إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾**[1] .

وقد فسر بعض المفسرين ، صدر الآية بهذا الشكل؛ انه لا تنزل لك مسألة في المعارف والاخلاق ، من قبل الله سبحانه إلا وقيلت تلك المسائل والحقائق للأنبياء السابقين . ما قلناه للانبياء السابقين ، نقوله لك . فلم نقل لك مسألة جديدة لم نقلها للأنبياء السابقين . ولكن سياق الآيات يؤيد المعنى الاول ، وقد رجحه أيضاً المرحوم الاستاذ العلامة الطباطبائي .

ثم قال لرسول الله ﷺ بأن هذه الطائفة ليس لديها أية حجة ، لأن الله انزل القرآن بلغة ظاهرة ومبينة ، وليس في هذا الكتاب ابهام ابداً ، فمضمونه واضح ، واللفظ الذي يبين ذلك المحتوى عربي مبين . لا عربي غير مبين ، ولا غير عربي حتى يعترضون .

ليست هناك عجمة في كلام الله ابداً ، ليس في وحي الله وقر وضعف **﴿ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي﴾**[2] . أي لو أننا انزلنا هذا القرآن بلغة غير عربية غير بليغة ومبهمة ، لاعترضوا بانهم لا يفهمون مسائله وانه لماذا لم تبين مضامينه بشكل واضح ، في حين أننا انزلنا القرآن بلغة عربية مبينة وبيّنا كل مسألة منفصلة عن المسألة الأخرى ، حيث فصلنا الحق عن الباطل والقبيح عن الجميل .

﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمىً﴾[3] أي قل ان هذا القرآن هداية وشفاء بالنسبة للذين امنوا ، يعالج جهلهم بالعلم ، ويشفي شكهم باليقين ، ويخلص وسوستهم

---

(١) سورة فصلت، الآية(٤٣) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٤) .

(٣) سورة فصلت ، الآية(٤٤) .

بالطمأنينة ، ويبدل كل أنواع مرضهم الباطني إلى الشفاء ، لأنه بالنسبة للمؤمنين **﴿شفاء لما في الصدور﴾**[1] .

أما **﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾** وهذه الآية بحثت سابقاً بمناسبة الآيات الموجودة في صدر هذه السورة المباركة **﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون﴾**[2] مع تحليل جميع العقبات والحجب المتنوعة التي تجعل ادراك المعارف الالهية صعباً أو ممتنعاً .

ثم يقول للرسول الأكرم في مجال التعزية : **﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾**[3] ، أي لم نعطك لوحدك الكتاب ونزل لك الوحي فاختلفوا بشأن الوحي النازل عليك ، بل اعطينا لموسى الكليم الكتاب أيضاً **﴿فاختلف فيه﴾** .

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾[4] ، ولو لم يكن القضاء والقدر الالهي هو في أن يبقى هؤلاء في الأرض إلى فترة ، ولو لم تقتضي مصلحة العالم أن يعطى هؤلاء مهلة للاختبار لختمنا عمر هؤلاء جميعاً . ولحكمنا بين النبي والأمة فاثبتنا عليهم الادانة وعذبناهم .

﴿وانهم لفي شك منه مريب﴾[5] ، انهم في شك مريب في أصل الوحي وما جاء به الوحي وباقون في ريبهم ولا ينزل عليهم مَلَك العلم حتى

---

(١) سورة يونس ، الآية(٥٧) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٥) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(٤٥) .
(٤) سورة فصلت ، الآية(٤٥) .
(٥) سورة فصلت ، الآية(٤٥) .

يبدل شكهم إلى علم ، لأنهم اغلقوا طريق عيونهم وآذانهم بالذنب .

فلا يستطيعون التفكير الصحيح عن طريق القلب ولا لديهم قابلية ادراك المعارف عن طريق العين والاذن . لكنهم سوف لن يقوموا بأي عمل ضد الاسلام .

إن كل انسان ، مهما عمل ، فهو يعمل في حدوده فقط **﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾**[1] ، الطائفة التي آمنت واستقامت تنزل عليها ملائكة الرحمة ، وهم يعملون لصالح انفسهم .

بينما الملحدون الشياطين تزين لهم القبائح وهم يعملون ضد انفسهم ، وكل شخص إذا قام بأي عمل فانه إنما ينفع أو يضر نفسه فقط **﴿ومن أساء فعليها﴾**[2] .

وقد بيّنا هذا الكلام سابقاً بوصفه قاعدة قرآنية وهو أن العمل يرتبط بعامله فقط . لا يخرج عن دائرة وجود العامل ، سواء خيره أو شره .

فلا الانسان يوصل بالذات خيراً للغير ولا هو يوصل بالاصالة شراً للغير ، وكل عمل خير يقوم فانه يحسن إلى نفسه ، أولاً وبالاصالة ، وإلى الغير بالتبع . وكل عمل شيء يرتكبه فهو يعمله ضد نفسه أولا وثانياً بالنسبة إلى الغير .

وكما انه في المسائل العلمية ، كل ما هو في دائرة نفس الانسان معلوم له بالذات ، وكل ما هو خارج عنه معلوم له بالعرض ، كذلك في المسائل العملية ، كل ما هو في دائرة نفس الانسان هو عمله بالذات ، وخيره وشره

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٦) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٦) .

يعود له بالذات ، وكل ما هو خارج عن دائرة وجود الانسان ، فإن خيره وشره هو بالعرض بالنسبة اليه .

القرار الخيّر الذي يتخذه الانسان . والهدف الخيّر الذي يفكر به ، والعمل المفيد الذي يعمله ، كلها تعود أولاً وبالذات لنفس الانسان ، وتصل إلى غيره ثانياً وبالعرض .

وكل دسيسة وفكر يفكر به يحيط شره أولاً وبالذات بنفس الانسان ، ويحيط بغيره ثانياً وبالعرض فمثلاً إذا اسس شخص في منزله بستاناً معطراً وغرس شجرة مثمرة فان خير ذلك البستان المعطر وثمرة هذه الشجرة المثمرة ، هي لصاحب المنزل ولكن ظل هذه الشجرة ورائحة هذا البستان تصل إلى مشام المارة . ولكن جميع خيرات هذه الشجرة وذلك البستان فهي ملك لصاحب البستان .

وكذلك إذا حفر شخص حفرة خطرة في منزله ، فإن جميع شر تلك الحفرة الخطرة ذات الرائحة الكريهة يصيب صاحب المنزل أولاً وبالذات بينما تصل الرائحة الكريهة إلى مشام المارة بالعرض .

كل عمل سيىء يقوم به الانسان هو كما لو انه سقط في حفرة عميقة ذات رائحة كريهة وصار جيفة ، عند ذلك تصل رائحته الكريهة بالعرض إلى مشام المارة فلا يستطيع شخص أن يلحق خيراً أو شراً بالذات بغيره .

ومضمون آية سورة الاسراء التي طرحت سابقاً: ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها**﴾[1] هو أن العمل يختص بالعامل و(اللام) في هذه الآية هي للاختصاص . أي أن أي عمل لا يزول وهذا هو الاصل الأول .

---

(١) سورة الاسراء ، الآية(٧) .

ولأنه لا يزول فمن المؤكد أنه مرتبط بشيء في سلسلة النظام العلي والمعلولي ـ الاصل الثاني ـ والمكان الوحيد الذي يستند إليه العمل هو عامله ـ الاصل الثالث ـ .

هذه الاصول الثلاث يمكن أن نستفيدها من آية ﴿**ان احسنتم احسنتم لانفسكم وإن أسأتم فلها**﴾ و(اللام) في هذه الآية ليست مقابل كلمة (على) مثل له في مقابل (عليه) بل مفاد كلمة (لام) في هذا المورد هو الاختصاص أي أن: العمل مختص بالعامل إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وبناء على هذا ، فان كل عمل يقوم به الانسان لا يتجاوز صاحب العمل وهذه الآيات المذكورة توضح شكل الاختصاص وهو أن العمل إذا كان صالحاً فهو لصالح صاحب العمل وإذا كان سيئاً فهو ضد صاحب العمل .

وتنظم المعارف القرآنية في المسائل الأخلاقية دوماً على أساس هذه الاصول الثلاثة ، فعمل الشخص لا يعتبر معدوماً ابداً وذلك لأن الصلة التي لا تنقطع بين العمل والعامل ليست بعيدة عن النظر .

وإذا طرحت في بعض الاحيان مسألة حبط العمل أو نقل وانتقال العمل ، فذلك أيضاً بواسطة عمل صاحب العمل نفسه . وإلا فالارتباط الأصيل بين العمل والعامل قائم ولا يحصل خلل في الارتباط بينهما إلا بتحول صاحب العمل .

وبما أن للعمل ارتباط علي ومعلولي مع عامله ، ومن الظلم تجاهل الارتباط الحقيقي والظلم ممتنع من الله سبحانه ، لذا قال: ﴿**وما ربك بظلام**

للعبيد﴾[1] ولما كان قطع ارتباط المعلول عن العلة في احدى الحالات يستلزم انقطاع سلسلة النظام الموجود ، والظلم يؤدي في احدى الحالات يؤدي إلى ظلم كل العالم ، لذا قال تعالى بأن الله ليس ظلام .

والله سبحانه منزه عن أن يزيل العمل أو أن يقطع الارتباط بين العمل والعامل ، وإذا كان دأب الله والسنة الالهية هو قطع رابطة العمل مع العامل . فإن ذلك يكون ظلماً للجميع ، والله ليس بظلام لعبيده ، لذا عبر بـ (ظلام) .

ولكن في الحالات التي يكون الكلام عن الفرد ونفي اصل الظلم ، تذكرة كلمة (ظلم) من دون صيغة مبالغة مثل الآية : **﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾**[2] . والآية : **﴿ولا يظلمون فتيلا﴾**[3] الفتيل هو الشيء الذي ينسجه الانسان باصبعه ويلفه . الفتيل بمعنى المفتول .

كما انهم لا يظلمون بمقدار نقير **﴿ولا يظلمون نقيرا﴾**[4] والنقير هو المقدار القليل الذي يرقعه الطير بمنقاره .

والله لا يظلم احداً لا بمقدار فتيل ولا بمقدار نقير **﴿ولا يظلم ربك احداً﴾** .

بناء على هذا ، هناك فرق بين ان ينفي اصل الظلم وبين تلك الحالة التي تنفي كون الله ظلاماً . لأنه إذا لم تراعى الاصول الثلاثة في المسائل الاخلاقية والجزاء على الاعمال ، فذلك يستلزم أن يكون الله سبحانه ظلاماً

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٦) .
(٢) سورة الكهف ، الآية(٤٩) .
(٣) سورة النساء ، آية(٤٩) .
(٤) سورة النساء ، الآية(١٣٤) .

وهو ليس بظلام ابداً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ .

ولأن الثواب على العمل الصالح والعقاب على السيىء يطرح في يوم القيامة ، فان قضية علم القيامة هي لدى الذي يحاسب الجميع ، لذا قال: ﴿إليه يرد علم الساعة﴾[1] .

هذا الكلام هو بشأن المعاد ، واما بشأن كيفية نمو النباتات وتربية الكائنات الاخرى التي تؤمّن كلها على أساس عليّة وربوبية الله سبحانه ، فيقول: **﴿وما تخرج من ثمرات من اكمامها وما تحمل من انثى ولا تضع إلا بعلمه﴾**[2] ، **﴿والله انبتكم من الأرض نباتا﴾**[3] .

الله يعلم ثمرة الانسانية هذه التي تخرج من براعم واغلفة العالم ، ويقول: **﴿أفرأيتم ما تحرثون، ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾**[4] . عملكم في المسائل الزراعية هو القاء البذور والحرث ولكن العمل الاصيل لذلك وهو احياء الحبة الميتة في باطن الأرض ونموها ، هو عمل الله سبحانه ، لأن زرع ونمو النبات واعطاء الحياة لحبة جامدة بلا روح ، لا يقدر عليه احد إلا الله خالق الحياة .

ومع أن الحرث والزرع كلاهما من مجاري فعل الله ، ولكن يجب الالتفات إلى أن عمل المزارع ليس الزرع ، لأنه لا يعلم ماذا تصبح الحبة في باطن الأرض ، ولا يمكنه اعطاء ذلك التحول الفني العميق في داخل التراب إلى البذر ، بل يضع الحبة في باطن الارض ثم ينتظر نموها وتفتحها

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٧) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٧) .
(٣) سورة نوح ، الآية(١٧) .
(٤) سورة الواقعة ، الآيتين(٦٣ ـ ٦٤) .

وخروجها وكل هذه الامور المعجزة هي من الله سبحانه .

لذا قال: ﴿**فالق الحب والنوى**﴾[1] أي ان الله يفلق حبة الحنطة ونواة النخيل وامثالها ويدخل مقداراً منها في باطن الارض كجذر وينمي قسماً منها فوق الارض فيكون ساقاً وجذعاً ، فهو الزارع الحقيقي والاخرون حراث وليسوا بزراع .

وقد بين القرآن الكريم جميع هذه الآيات الالهية ، ثم قال: ﴿**ويوم يناديهم**﴾[2] ، أي سيأتي يوم ينادي الله سبحانه ، المشركين ولا يناجيهم ، لأن المشركين محرومون من لذة النجوى ومناجاة الله .

إن الله يتكلم في القرآن عن المشركين دائماً بالنداء والمنادى ، والشخص البعيد عن المتكلم يدعونه بصوت عال وينادونه بينما الشخص القريب من المتكلم يناجى .

والمؤمن الذي كان في الدنيا من أهل المناجاة مع الله ، يتمتع في القيامة بمناجاة الله الخفية والله يتحاور معه اما الآخرون فهم محرومون من الحوار الخاص مع الله إذ ﴿**لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة**﴾[3] .

في الطريق إلى الطائف كان رسول الله يناجي امير المؤمنين ، فحصل اعتراض على النبي صلّى الله عليه وآله انه لماذا تناجي علي عليه السلام؟ فقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بانه ليس هو الذي يناجي علي عليه السلام ، بل ان الله هو الذي ناجى علي[4] ، أي أنه طرح كلام الله على شكل مناجاة مع

---

(١) سورة الانعام ، الآية(٩٥) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٧) .
(٣) سورة آل عمران ، الآية(٧٧) .
(٤) اسد الغابة ج٤ ص٣٧ .

علي عليه السلام .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حبيب الله ، فهو مقرب إلى درجة أن الله يكون بمنزلة اعضائه وجوارحه في مقام الفعل «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي يتكلم به»[١] .

وبناء على هذا فان كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أمير المؤمنين عليه السلام في سفر الطائف على شكل نجوى ، كان باذن الله . ومن هنا فلا محل لاعتراض ذوي الفكر السيىء ، فالسامع كان يسمع في الحقيقة بسمع الهي والمتكلم كان يتكلم بلسان الهي .

إن كون الله بمنزلة سمع علي عليه السلام ولسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو في مقام الفعل وليس في مقام الذات . لأن من افضل مظاهر قرب النوافل هو الوجود المبارك للرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم والوجود المكرم لامير المؤمنين عليه السلام وطبقاً لحديث (قرب النوافل) الذي نقله الفريقان ، فان الله قال ما مضمونه انني إذا احببت إنساناً كاملاً ساصبح بمنزلة مجاري ادراكه ووسائل معرفته .

بناء على هذا فإن المتقين الالهيين هم أهل مناجاة ، أما المفسدون والملحدون فهم أهل نداء وليسوا أهل نجوى . لذا قال بشأنهم : ﴿**ينادون من مكان بعيد**﴾[٢] لانهم ابتعدوا عن الله سبحانه ﴿**في شقاق بعيد**﴾[٣] انهم في شق ، ودين الله في شق وجانب اخر .

---

(١) الكافي ، ج٢ ص٣٥٢ .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٤) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(٥٢) .

﴿إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾[1] .

يقال للمفسدين والملحدين أين ذهب هؤلاء الشركاء الذين اعتبرتموهم شركاء لله؟ الم تسندوا تدبير الامور إلى انفسكم أو إلى الاوثان ، أين ذهبت ربوبيتكم؟ كنتم تقولون **﴿انا ربكم الاعلى﴾**[2] فماذا حل بربوبية اربابكم **﴿ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾**[3] .

إن الله ، حين يظهر كواحد قهار بوحدة قاهرة ، لا يبقى محل لغير الله ، عند ذلك ينادي الملحدين والمشركين ويسألهم عن المكان الذي ذهب إليه الذين جعلوهم شركاء لله .

إذا كان غير الله قادراً على العمل فأين هو؟ ولو كان غير الله اهلاً للعبادة ، فأين هو؟ أين ذهب اولئك الذين كنتم تعتبرونهم مساوين لرب العالمين **﴿إذ نسويكم برب العالمين﴾**[4] .

يجيب المشركون يوم القيامة فيقولون : **﴿قالوا آذناك ما منا من شهيد﴾**[5] أي أن ادعاءنا كان ادعاءً باطلاً .

أجل إن دعوى النبي حق وتكون مترافقة مع الشاهد ، حيث قال : **﴿اني على بينة من ربي﴾**[6] وادعاء الذين هم في شك مريب باطلٌ ، وليس لديهم شاهد ابداً **﴿إنهم لفي شك منه مريب﴾** لأن كلامهم ليس بيّناً ولا

---

(١) سورة المجادلة ، الآية(٥) .
(٢) سورة النازعات ، الآية(٢٤) .
(٣) سورة يوسف ، الآية(٣٩) .
(٤) سورة الشعراء ، الآية(٩٨) .
(٥) سورة فصلت ، الآية(٤٧) .
(٦) سورة الانعام ، الآية(٥٧) .

مبيّناً ، لذا فلن يكون له بيّنة أيضاً .

﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص﴾[1]
وهذه المسألة تحتاج إلى توضيح وتبيين ، سوف نطرحه في البحث اللاحق إذا وفق الله .

نرجوا الله تعالى ببركة القرآن الكريم أن يجعل قلوب الجميع وعاء للمعارف الالهية وكلام اوليائه وان يرحم معلمينا ومؤلفي العلوم الالهية وان يستجيب هذه الأدعية في حق جميع المؤمنين .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٨) .



الـــدرس الثـــامن

البرهان لازم لذات التوحيد واللابرهان لازم ذات الشرك

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّىٰ الله علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهم آلاف التحية والثناء .

مواصلةً لبحثنا السابق في شرح المضمون المشترك للـ «حواميم السبعة» وصلنا إلىٰ أن الله سبحانه قال في سورة فصلت؛ إن الذين لا يؤمنون بالوحي ومعطياته واختاروا سبيل الإلحاد والشرك ، فلأنهم سلكوا طريقاً باطلاً ورسموا لأنفسهم أهدافاً تافهة ولأن يوم القيامة يوم ظهور الحق ، سوف يسألون يومئذ؛ أين أربابكم الذين كنتم تقدسونهم إلىٰ حد العبادة وتعتبرونهم مساوين لخالق الكون ﴿إذ نسويكم برب العالمين﴾[1] وتخضعون لهم وتسألونهم الخيرات؟!

﴿ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذنّاك ما منا من

(١) سورة الشعراء ، الآية(٩٨) .

شهيد﴾[1] .

﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾[2] يومئذ يضيع كل ما كان الوثنيون يدعونه من دون الله ويحسبونه رباً . فسيظهر يوم القيامة بطلان كل العقائد الباطلة التي كان الملاحدة يعتقدونها في الدنيا ، فيوم القيامة يوم ظهور الحق ، ولا بد أن يبطل يومئذ كل باطل كانوا يعبدونه .

سوف يتجلّىٰ يوم القيامة الذي هو يوم ظهور اللب والحقيقة أن ادعاءاتهم الدنيوية الفارغة تلك مجرد لغو وسراب ، **﴿وظنوا ما لهم من محيص﴾**[3] سيعلمون عندها أنْ ليس لهم في الآخرة من ملجأ ومهرب .

في يوم القيامة الذي هو **﴿ذلك اليوم الحق﴾**[4] سيشاهدون كل حق لم يكونوا يرونه في الدنيا . ولن يروا كل باطل كانوا يحسبونه في الدنيا حقاً . لأنه في محل الظهور التام للحق ، لا يوجد مكان لكتمان الحق ولا لظهور الباطل .

وبالطبع ففي الدنيا وهي عالم الإعتبار والمواضعات ، يمكن كتمان الحق أو إظهار الباطل **﴿لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾**[5] فنشأة التكليف هي نفسها نشأة الإختيار ، وفي موطن الإختيار يتيسر إظهار الحق وكتمانه وكذلك إظهار الباطل وكتمانه .

ولهذا فقد منحهم الله هذه القدرة من باب الإمتحان ، ليستطيعوا أن لا

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٧) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٨) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(٤٨) .
(٤) سورة النبأ ، الآية(٣٩) .
(٥) سورة آل عمران ، الآية(٧١) .

يـروا الحـق كمـا يستطيعـون أن يُظهـروا البـاطـل . أمـا يـوم القيـامـة وهـو يـوم ظهـور الحـق فـلا يمكـن العثـور علـىٰ غيـر الحـق ولا يمكـن كتمـان الحـق ولا تتـوفـر الأرضيـة لإظهـار البـاطـل أو الإتفـاق علـىٰ إبطـال الحـق أو إحقـاق الباطل .

من هنا لا يرىٰ الملحدون يومَ القيامة ما كانوا يحملونه في رؤوسهم كعقيـدة إلحـاديـة ، فيفهمـون عنـدهـا أن كـل ذلـك كـان بـاطـلاً وأن مـا كـانـوا يرفضونه ويكتمونه وينكرونه في الدنيا هو عين الحقيقة والصواب .

﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾للإنسان الفاسد عقيدة باطلة وعمل باطل وأخلاق باطلة . معنىٰ الباطل هو إضفاء لون الوجود علىٰ شيء غير موجود وتجاهل شيء موجود وحسبانه في عداد العدم .

يذكر القرآن الكريم أمثلة حول سلوك الملحدين المفسدين ويقول؛ إن الكافر وبسبب سلوكه طريقاً باطلاً ، لا يصل إلىٰ الغاية أبداً ، فهو يعتقد بشيء لا يتمتع بالواقعية ويعرض عن شيء هو الحق ولكنه لا يعلم .

مثله مثل الإنسان الظامىء الذي يبتعد عن نبع الماء باتجاه السراب . إنه ظامىء يسلك الطريق ، ويتصور ما يشبه الماء ماءً ويتحرك خلف تصوره هذا وحين يُنهي سيره ويصل إلىٰ جوار السراب يجد أنه ليس هنالك شيء ولا ماء بل ما يشبه الماء .

الكـافـر يعتقـد بشـيء يشبـه الحـق وليـس بحـق ، يظـن أن الطـريـق الـذي يسلكـه سـوف يـوصلـه إلـىٰ الحـق ، فـي حيـن سيتضـح آخـر الطـريـق أنـه ليـس بحق

يذكر الله سبحانه هذا المعنىٰ العميق علىٰ شكل مثال ويقول ﴿أعمالهم

كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً﴾[1] .

ومع ان الإنسان المرتوي يرىٰ السراب ماءً أيضاً ، ولكن بسبب كونه غير ظامىء تراه لا يرتب أي أثر علىٰ رؤيته الباطلة وظنه الفارغ هذا ، ولا يتحرك باتجاهه . أما الشخص الظامىء فيتصور ما يشبه الماء ماء ويرىٰ هذا الباطل الذي ليس بماء بأنه الحق أي الماء ، فيتحرك صوبه .

﴿حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾[2] حين يصل إلىٰ محل السراب بعد جهد ومشقة ، لا يجد للماء أثراً ، فالسراب يظهر صورة الماء ولكنه ليس ماءً .

العقائد الإلحادية ، الأخلاق النابعة من العقائد الملحدة ، الأعمال المتفرعة من الجذور الإلحادية ، كلها وكلها مثل السراب . والكافر والمفسد يواصل طريقه الإلحادي ، لكنه في ختام الطريق يكتشف أنه كان ضالاً .

يعبر الله عن هذا المعنىٰ الدقيق بشكل آخر في سورة الرعد ويقول ؛ إن الله وهو الحق يدعو إلىٰ الحق **﴿له دعوة الحق﴾** والرسول مبعوث من جانب الحق ويدعو الناس إلىٰ الحق ، ولكن **﴿والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء﴾**[3] الآلهة الكاذبة والمعبودات المزيفة والأوهام والظنون الفارغة للمفسدين لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، ولا تحل مشكلة من مشاكل المعتقدين بالإلحاد .

---

(١) سورة النور ، الآية(٣٩) .
(٢) سورة النور ، الآية(٣٩) .
(٣) سورة الرعد ، الآية(١٤) .

العقيدة الملحدة تشبه أن يكون الإنسان ظامئاً فيتحرك باتجاه الماء ، والماء موجود في أعماق البئر ، وهذا الظامىء لا يمتلك وسيلة أو حبلاً فيأتي إلىٰ حافة البئر ويمد يديه نحو الماء ليصل إلىٰ فمه ، ولكنه لا يصله أبداً ، لأنه من دون وسيلة ووعاء وحبل لا يمكن الوصول إلى الماء الزلال في عمق البئر .

أو إذا وقف أمام السراب ومد يديه نحوه ليُوصِل الماء إلىٰ فمه ، فإنه لن يفلح في شيء من هذا . لأنه بغير وجود الوسائل اللازمة للوصول إلى الماء في المثال الأول وبدون وجود الماء في المثال الثاني ، لا يمكن للإنسان العاطش أن يرتوي أبداً .

الكافر إما أن يكون جارياً خلف السراب (الحركة بدون هدف) أو أنه يريد الارتواء من عمق البئر من غير دلو وحبل (الحركة بدون وسيلة) ، فما لم يكن ثمة دلو وحبل ووسيلة مناسبة أخرىٰ ، حتىٰ لو تفجر الماء الزلال في قعر البئر العميق ، إلاّ انه من غير الممكن الإرتواء بمد اليدين نحو الماء الذي لا تبلغه اليدان .

من المستحيل وصول ماء البئر إلىٰ فم الظامىء الفاقد للوسائل اللازمة . فضرورة الوسيلة كضرورة الهدف بالنسبة للتحركات المثمرة ، أصل لا يمكن انكاره .

﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾[1] . أي إن الله سبحانه دعوة حق وفلاح ، أما الأصنام التي يدعو لها ويعبدها الوثنيون فهي لا تستجيب

---

(١) سورة الرعد ، الآية(١٤) .

لدعوات عبدتها أبداً ومثلها في ذلك مثل الظامىء الفاقد للوسيلة الذي يبسط يديه نحو الماء ليُوصل الماء من بعيد وبلا واسطة إلىٰ فمه ، ولكنه لا ينجح في ذلك أبداً .

وبعد ذلك يذكر الله المبدأ العام في قضية الشرك والوثنية : **﴿وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾**[1] أي لقد ضل وغوىٰ من دعا شيئاً ليس له وجود أصلاً وأحب شيئاً هو العدم المحض . انهم عشاق العدم . ويوم القيامة يوم ظهور الحق سيعلمون أنهم كانوا عشاق المعدوم ولم يعرفوا ما كان جديراً بالعشق ليعشقوه .

ورد تعبير **﴿وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾** في سورة الرعد وفي سورة غافر ، وهي إحدىٰ الحواميم السبعة . جاء في سورة غافر **﴿فادعوا وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾**[2] .

يقول الشاعر (ما ترجمته): «آهٍ مَن يعبد هواه لا تصل إلىٰ مقصدها ، لا يمكن إصابة الهدف بسهمٍ من هواء!!!» .

ولأن الهوىٰ والميول ، ظنون باطلة ومعبود الوثنيين هواهم ، إذن فمعبودهم ليس سوىٰ ظن فارغ ، ولذا قال: **﴿وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾** والضلالة هي الضياع .

عندما يضيع الشيء يسمىٰ ضالة ، وفقدانه يسمىٰ ضلالة ، إذن فالضلالة صفة عدمية وليست وجودية ، ولأن الدعوة الحقيقية هي التي يكون المدعو فيها موجوداً حقيقياً وليس وهمياً ، والأصنام أشياء وهمية

---

(١) سورة الرعد ، الآية(١٤) .

(٢) سورة غافر، الآية(٥٠) .

وليست حقيقية ، إذن فدعوتها دعوة وهمية فارغة ، أي أنها فقدان لأمر حقيقي ، لذا قال : **﴿وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾** .

كما إن تعبير القرآن الكريم عن الشرك والإلحاد والكفر يشير إلىٰ أن هذه الأمور أمور عدمية ، سواء على القضايا العلمية والعقائدية للكافرين أو عن القضايا العملية والأخلاقية .

﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه﴾(1) إذا أشرك المرء وألحد واتخذ غير الله إلهاً بدون برهان واعتقد بمعبود غير قابل للدليل ، فإن حسابه عند الله . أي كما إن الالوهية تشهد علىٰ التوحيد وتمثل برهان نفسها ، فإن الشرك يشهد علىٰ عدم وجود البرهان .

الإلحاد بذاته دليل علىٰ العدم ، كما إن التوحيد دليل علىٰ الوجود **﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو﴾**(2) الالوهية تشهد على توحيد الله . أي أن اللازم الضروري للألوهية هو أن يكون المعبود والإله واحداً واللازم الضروري للشرك هو عدم القابلية للبرهنة .

لهذا جاءت جملة **﴿لا برهان له به﴾** كصفة لازمة لـ **﴿إلهاً آخر﴾** أي أن اللابرهان صفة ذاتية للإله الآخر ، لأن الإله الآخر معدوم وممتنع ذاتاً . واللازم الضروري للأمر الممتنع هو عدم القابلية للبرهان . كما إن التلازم مع البرهان لازم ذاتي للالوهية ، ويمكن استخلاص وحدة الله من متن الوهيته سبحانه .

ويقول كذلك في سورة لقمان أن من واجب الأولاد إحترام آبائهم

---

(1) سورة المؤمنون ، الآية(١١٧) .
(2) سورة آل عمران ، الآية(١٨) .

وأمهاتهم ولكن لا إلى درجة التعارض مع العقيدة الصحيحة عند الأولاد . فقد قال الإمام أمير المؤمنين : «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1] .

وجاء في القرآن الكريم : **﴿وإن جاهداك علىٰ أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾**[2] .

يصف الله سبحانه الشرك بأنه غير قابل للعلم ، أي أن الشرك لا يمكن أن يكون أمراً معلوماً ، لأنه معدوم بذاته ، وما كان معدوماً بذاته لا يتعلق به العلم . لأن العلم أمر وجودي ولا يمكنه أن يتعلق بأمر عدمي .

يُعبَّر بعض الأحيان عن عدم العلم بشيء بأنه علم بعدم الشيء . فمثلاً حين لا نرىٰ شخصاً في مكان معين ، نقول؛ رأينا أنه لم يكن موجوداً . في حين أن عدم الوجود أمر عدمي ، والأمر العدمي لا يمكنه أن يكون معلوماً حقيقياً . ولكن بقليل من التسامح نُعبّر عن عدم رؤيتنا لشخص معين أننا رأينا أنه لم يكن موجوداً .

والخلاصة هي أن الله سبحانه قال في وصف الشرك أنه غير قابل للعلم . العقائد الإلحادية غير قابلة للعلم ، لأنها معدومة والمعدوم بالذات لا يتعلق العلم به . بمعنىٰ أن الإعتقاد بأن ليس هناك مبدأ ومعاد للعالم وأن المادة هي التي أوجدت العالم بحركتها ، وانه ليس ثمة مبدأ مدبر وواعٍ في الكون ، كل هذه عقائد عدمية .

ومع أنه من باب الصورة الذهنية والعلم الحصولي ، أمر وجودي بالحمل الأولي ، ولكنه بالحمل الشائع أمر عدمي . ومرده إلىٰ عدم الإعتقاد

---

(١) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، رقم ١٥٦ .

(٢) سورة لقمان ، الآية(١٥) .

بالحق ، لا إلىٰ إعتقاد حقيقي بالباطل . لأن الباطل معدوم بالذات ، والمعدوم لا تتعلق به العقيدة .

والنتيجة هي أن من ضروريات الشرك عدم القابلية للبرهان أو تعلق العلم به . لا أن الشرك قابل للعلم ، لكنك لا تعلم به . بل إن مراد الآية المذكورة هو أن الشرك غير قابل للعلم أساساً .

يقول الله تعالى في المسائل الكونية والنظرية أن التوحيد هو عين البرهان والشرك عين اللابرهان ، وقال في المسائل الأخلاقية والعملية **﴿ما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾**[1] إنكم ستواجهون أصل أعمالكم . في يوم **﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾**[2] أو **﴿علمت نفس ما أحضرت﴾**[3] في ذلك اليوم يرىٰ الإنسان أصل عمله . وكل ما فعله المؤمن من عمل خيّر يراه ويجده حاضراً .

أما عن أعمال الكافرين فيقول **﴿أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾** عمل الكافر كالحركة المسرعة لظامىء يسير في الصحراء خلف السراب ، وحين يصل إلىٰ ذلك المكان لا يجد شيئاً هناك . يؤدي الكفرة أعمالهم العبادية أمام الأوثان ، لكنهم حين يصلون مرحلة الموت والبرزخ يرون أن ليس هنالك شيء وبتعبير القرآن الكريم لا يجدون شيئاً .

لأن الشرك يرجع إلى العدم علماً وعملاً فإنه لا يقبل البرهان ولا يقبل تعلق العلم به ، ولأن التوحيد يرجع إلى الوجود علماً وعملاً فإنه يقبل

---

(١) سورة البقرة الآية(١١٠) .

(٢) سورة الانفطار ، الآية(٥) .

(٣) سورة التكوير ، الآية(١٤) .

البرهان بل إنه بنفسه البرهان علىٰ نفسه ويقبل كذلك تعلق العلم به .

من هنا يقول عز وجل في القرآن الكريم أحياناً : **﴿وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال﴾** ويقول تارة : **﴿كباسط كفيه إلىٰ الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾** ويقول حيناً : **﴿أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء﴾**[1] وله تعابير مشابهة أخرىٰ تدل كلها علىٰ عدمية الكفر والشرك والالحاد وما شاكل . كما إنه وردت حول بعض المعاصي الكبيرة تعبيرات مشابهة .

إذن ، فسوف يتجلّىٰ بطلان شرك المشركين في الآخرة كالسراب الذي يتضح بعد الركض نحوه أنه ليس ماءً .

لصاحب الفتوحات المكية مقال حول حادثة إبطال سحر السحرة من قبل موسىٰ الكليم عليه السلام يرمز إلىٰ كيفية ظهور الحق يوم القيامة الكبرىٰ . فالحق يوم القيامة يظهر بصورة كاملة ولا يبقىٰ أي غموض لأي شخص . أما في الدنيا فقد يظهر الحق ولكن لا بصورة كاملة ، وذلك المقال هو :

عندما أغرىٰ فرعون السحرة أن يواجهوا موسىٰ الكليم عليه السلام شرعوا بدسائسهم السحرية إلىٰ صناعة الأفاعي والثعابين باشكال مختلفة من العِصي والحبال بحيث **﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ﴾**[2] **﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم﴾**[3] .

أصبحت ساحة المسابقة ساحة الثعابين الرهيبة والأفاعي العظيمة . ثم

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية(١٨) .
(٢) سورة طه ، الآية(٦٦) .
(٣) سورة الاعراف ، الآية(١١٦) .

أَمِرَ النبي موسىٰ عليه السلام في ساحة السباق تلك أن يرمي عصاه ، قال الله تعالى ألق عصاك ولا تخف ، فسيظهر الحق بشكل لا يدع مجالاً لأي شبهة أو باطل **﴿تلقف ما صنعوا﴾**[1] أي أن عصاك سوف تبتلع ما صنع السحرة **﴿لا تخف إنك أنت الأعلىٰ﴾**[2] .

رمىٰ النبي موسى الكليم عليه السلام عصاه و ظهر الحق بشكل أفهم الجميع أن الحق مع موسىٰ ، وقَبْل كل المتفرجين فَهِمَ السحرة هذا وهم أصحاب فن السحر ، وآمنوا بموسىٰ ، وليس بحثنا هنا عن هذا .

إن ما يجدر بالإنتباه هو كيفية غلبة موسىٰ علىٰ السحرة . في هذا الخصوص هنالك نظريتان . الأولىٰ؛ هي أن عصا موسىٰ إبتلعت عِصي وحبال السحرة التي بدت علىٰ شكل ثعابين مخيفة ، وبهذا فهم النظّار أن الغلبة لموسىٰ الكليم ، وهذا هو الرأي المشهور بين المفسرين ويؤيده ظاهر الرواية المنقولة عن ثامن الحجج عليه السلام . حيث قال؛ لو أعادت عصا موسىٰ ما ابتلعت ، لأعاد رسم الوسادة الذي يمثل شكل الأسد المفترس والذي ابتلع ذلك المشعوذ ما ابتلعه ، وظاهر هذه الحادثة أن عصا موسىٰ ابتلعت كل تلك العِصي والحبال .

والنظرية الثانية تقول أن طريقة غلبة موسىٰ الكليم هي؛ أنه عندما بدت كل تلك العصي والحبال علىٰ شكل أفاعي في ساحة السباق ووجد الناس أنها ثعابين رمىٰ موسىٰ بعصاه وتحوّلت حقيقةً إلىٰ تنين مخيف وابتلعت ما صنع السحرة ، أي ابتلعت سحرهم وإيهامهم وتصرفهم في خيال الناس و . . . الخ . أي لم تعد العصي والحبال تُشاهَد علىٰ انها ثعابين وأفاعي

---

(١) سورة طه ، الآية(٦٩) .

(٢) سورة طه ، الآية(٦٨) .

ولم تعد لها أي حركة بل أصبحت كل تلك الأشياء عِصياً وحبالاً . كما إن السراب يشبه الماء وليس بماء ، فقد كان عمل سحرة فرعون ما يشبه الأفعىٰ وليس أفعى وما يشبه التنين وليس تنيناً .

كان عمل موسىٰ الكليم إراءة التنين الحقيقي . رمىٰ العصا ، فحوّل الله تعالىٰ تلك العصىٰ في يد موسىٰ وبإعجاز الغيب إلىٰ تنين حقيقي وواقعي ، وبظهور هذه الحقيقة إتضح بطلان سحر السحرة . والواقع أن المعجزة محت السحر لا المواد الخام للسحر . وبالطبع فهذا العمل متعذر على الثعابين الطبيعية في المغارات .

لكن الذي ظهر علىٰ يد موسىٰ الكليم عليه السلام هو المعجزة ، وبظهور الحق امّحىٰ كل شكل للباطل فبدت تلك العصي والحبال علىٰ شكلها الواقعي ، ورأىٰ الناس مجموعة من العصي والحبال علىٰ أرض الساحة . ورأوا تنيناً حقيقياً يمشي وسط الساحة . وقد اسقط هذا التنين الحقيقي كل ما صنعه السحرة .

لم يكن صنع السحرة نفس الحبال والعِصي ، بل هو فن السحر الذي أنزلوه على تلك المواد الخام في حدود التخيل ، فجاءت عصا موسىٰ لتأكل ما صنعوا لا لتأكل الحبال أو تبتلع العِصي .

ولخلاصة هي أنه عندما استقرت عصا موسىٰ على الأرض باذن الله انمحت كل الأشياء المفتعلة . وعرف الجميع أن ما جاء به السحرة مجرد عصي وحبال تُوهِم المشاهد أنها أفاعي . وتعبير القرآن الكريم هو : ﴿**تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتىٰ**﴾[1] يقول أن

---

(١) سورة طه ، الآية(٦٩) .

عصا يدك تلقفت ما صنع السحرة ثم قال انهم صنعوا سحراً ، وعبّر عن ما صنعوا بأنه كيد ساحر . أي أنهم لم يصنعوا مواداً أوليةً من قبيل العِصي والحبال ، بل صنعوا كيداً وسحراً . إذن فما تلقفته العصىٰ هو الكيد وليس أصل المواد الخام ، كما أوضحنا ذلك تفصيلاً .

ذكرنا هذه الإلتفاتة الدقيقة لصاحب "فتوحات في جلسة الدرس للاستاذ العلامة الطباطبائي(رض) . فعلّق عليها الاستاذ رحمه الله بأنه إلتفاتة لطيفة ، ولكنه فسّر الآية المذكورة في تفسير الميزان القيم على النهج المشهور بين المفسرين .

وورد في الفتوحات أيضاً أن السِحْر بلحاظ اشتقاقه اللغوي ليس عديم العلاقة بالسَحَر . فللسَحَر نور قليل ، لا هو كظلمة الغسق والليل ولا هو كضياء النهار . ليس له إشعاع النهار ولا غسق الليل .

والسِحْر أيضاً لا هو واقع واضح ، ولا بطلانه معلوم وجلي لدىٰ الجميع فيكون بذلك ظلاماً ، بل هو باطل علىٰ شكل الحق ، كالسراب الذي هو وهم باطل يشبه الماء .

ووفقاً لهذه الإلتفاتة اللطيفة أن عصىٰ موسىٰ ظهور للحق وقد تحوّلت حقيقةً إلىٰ تنين ، وحين تجلّىٰ هذا الحق أفصح عن بطلان الأمور الباطلة أي أبطلت السحر ، فلم تعد هنالك حيلة للساحر ولا لهذه الحبال والعِصي .

في الآخرة حين يظهر الحق . ستتوقف كل التحركات والنشاطات التي كانت تتمتع بها الأمور الباطلة في الدنيا . وتسقط كل معتقدات الملحدين من الناحية العلمية وتتهافت كل أخلاق المتخلقين بالباطل عن كونها فضيلة بعد أن كانوا يحاولون إظهارها مَلكة فاضلة وقيّمة . ويتجلّىٰ يومئذ بطلان

كل عمل غير صائب كانوا يعتبرونه إيجابياً ويصبح مثل السراب ، لهذا يقول القرآن الكريم : **﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل﴾** .

والنتيجة هي أن الشرك ولوازمه ينتمي إلىٰ العدم علىٰ الصعيد العلمي والعملي . أما التوحيد ولوازمه فينتمي إلىٰ الوجود على الصعيد العلمي والعملي . بعد هذا يعود الكلام إلىٰ صلب الموضوع .

كان صلب الموضوع هو أن الوحي الإلهي يربّي الإنسان عن طريق فكره فقط ، لأن الإنسان موجود مفكر ، وتكامله رهين بتقوية أفكاره .

إذا حُرِم الانسان من الفكر الصحيح ولم يغدُ موحداً ، فسيفكر علىٰ الشكل التالي؛ كل خير يصله فهو نتيجة لاستحقاقه الذاتي وهو لذلك مدعاةً للفخر والكمال الذاتي . وكل مصيبة تحل به أو مشكلة تداهمه ، تجعله يركن إلىٰ القنوط ، لأنه **﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾**[١] لكنه **﴿إن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾**[٢] إذا أصابه ضُرٌّ يئس وتشاءم لأنه لا يمتلك سنداً .

﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي﴾[٣] .

إنه يجهل أن النعمة والنقمة الدنيوية كلاهما إمتحان إلهي . الرفاه والضيق امتحانات إلهية . فلا الإنسان المرفه كريم عند الله ولا الإنسان المُبتلىٰ حقير عنده .

شرحَ القرآن الكريم هذا المبدأ العام في سورة الفجر بصورة جيدة فالناس العاديون إذا أنعمنا عليهم نعمة ظنوا أننا كرمناهم وإذا امتحناهم لمدة

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٩) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٩) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(٥٠) .

معينة بضيق المعيشة تصوروا أننا احتقرناهم وأهنّاهم .

«كلا» يرفض الله كِلا الوهمين ويقول؛ لا رفاه المرفهين دليل علىٰ كرامتهم ، ولا ضيق المعوزين علامة لوضاعتهم . بل كلا الحالتين إمتحان إلهي . لهذا يصف هاتين الحالتين بأنهما إمتحان وإبتلاء . **﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن، كلا﴾**[1] .

إذا ابتلىٰ الله شخصاً بالمال والثروة والسِعة ، تصوّرَ أنه مُكرّم ، وإذا ابتلي بالفقر ومصاعب الحياة توهم أنه مُهان . وليس أياً من هذه الظنون بصحيح . لا رفاه المرفهين مكرمة ، ولا عسر المستضعفين إهانة وحقارة ، بل كلاهما إبتلاء .

لا صحة الأصحاء علامة لكرامتهم ، ولا مرض المرضىٰ علامة لهوانهم . بل إن الإنسان إما أن يبتلىٰ بالسلامة والصحة أو بالمرض . فنعمة الصحة إمتحان إلهي ونقمة المرض إمتحان إلهي . كما أن الإنسان الثري ممتحن بالثروة والإنسان المحروم ممتحن بالفقر . وكلاهما إبتلاء وإمتحان إلهي .

هذه النظرة التوحيدية هي أساس التقوىٰ ومحور الكرامة ، والميزان النهائي للقدرة والفقر يوم القيامة . وقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «الغنىٰ والفقر بعد العرض علىٰ الله»[2] .

ولكن القرآن ينسب النعم إلىٰ الله ويُرجِع الأضرار والمشاكل والحرمان

---

(١) سورة الفجر ، الآيات(١٥ ـ ١٧) .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، رقم ٤٤٦ .

إلىٰ الإنسان . وليس هذا من باب الأدب والمجاملات اللفظية . فمثلاً يقول الخليل عليه السلام : **﴿إذا مرضت فهو يشفين﴾**[1] ولم يقل : «إذا أمرضني فهو يشفين» بل نراه ينسب المرض إلىٰ نفسه والشفاء إلى الله .

وجاء كذلك في فاتحة الكتاب **﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم﴾** فنُسبت النعمة إلىٰ الله ، أما الغضب فلم يُنسب إلىٰ الله ، فقيل **﴿المغضوب عليهم﴾** ولم يُقال الذين غضبتَ عليهم .

وهكذا في آية **﴿مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾**[2] لم ينسب الضرر بصورة مباشرة إلى الله سبحانه ، بل نُسِبَ إلىٰ غير الله .

وليس هذا الإختلاف في التعبير مجرد أدب لفظي ، بل هو قائم علىٰ أساس البرهان العقلي ، فالقرآن لا يغض النظر عن ذلك البرهان العقلي .

وبشكل عام فإن مثل هذه النواقص والحرمان والعوز لا تتجاوز عالم الطبيعة إلى ما فوقه . إن ما يسمىٰ بالفيض النازل من المبدأ (الله) هو خير وأمر وجودي . وحينما يظهر ويتجلّىٰ من خلال القنوات والنوافذ الطبيعية ونتيجة الإختلاف في القابليات ، فإن من له القدرة علىٰ الإنتفاع من الفيض سينتفع ، ومن ليس له القدرة سيُحرم .

فلا المرض نازل من الله سبحانه ولا الضرر ولا الفقر ولا ما شابهه بل حينما لا يصل الفيض الإلهي الخاص إلىٰ شخص معين نتيجة لعدم قابليته ، يُقال **﴿مسني الضر﴾** . وليس المرض أمراً وجودياً أو أنه نازل من خزائن الغيب الإلهية أو أن الفقر وما شابهه نازل من عالم الغيب . ليس الأمر

---

(١) سورة الشعراء ، الآية(٨٠) .

(٢) سورة ص ، الآية(٤١) .

كذلك .

من هنا ينسب الله الرحمةَ لنفسه ، أما الشرور والنواقص فلا ينسبها إلى نفسه ، يقول: **﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي﴾** أي أن الإنسان المتفاخر ، لأنه مختال ومحكوم بالخيال في نظرته العلمية ، فلا يتجاوز تفكيره حدود الخيال . وفي مساعيه العملية تراه فخوراً .

والله لا يحب المختال المتفاخر أبداً **﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾**[1] حيث يظهر تفاخره أزاء النعم الإلهية في قوله **﴿هذا لي﴾** .

إنه ينكر القيامة أولاً ، ويرىٰ النعم الدنيوية علامة علىٰ استحقاقه الذاتي ويقول؛ حتىٰ لو كانت ثمة آخرة ، فلأنني مكرم سأكون في الآخرة مكرّماً كما أنا في الدنيا **﴿هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رُجعت إلىٰ ربي إن لي عنده للحسنىٰ﴾**[2] لماذا؟ لأنني مُكرّم في الدنيا وهذه النعم نتيجة لاستحقاقي الذاتي .

رُفِض هذا التفكير الباطل في سورة الفجر علىٰ النحو الآتي «كلا» أي ليس كما يظنون . وقد ورد ما يشبه هذا في مواضع أخرىٰ من أجل إبطال طريقة التفكير هذه . فمثلاً جاء في سورة الكهف **﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾**[3] .

---

(١) سورة لقمان ، الآية(١٨) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٥٠) .
(٣) سورة الكهف ، الآية(٣٥) .

كانوا يظنون مثل هذه الأموال أملاكاً غير قابلة للزوال . ونمط التفكير وفق نظرية أصالة المال هذه كان يأخذ آنذاك الصفة الرسمية ، سواء في الجاهلية الأولىٰ أو في الجاهلية الثانية . وقد قال هذا الشخص بدوره **﴿ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾** .

«تبيد» بمعنىٰ «تهلك» و«بادَ» أي «هلك» . وقصده أن هذا المال لن يفنىٰ ولن يزول أبداً .

﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلىٰ ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾[1] وثانياً حتىٰ لو كانت هنالك آخرة ، فسأكون مكرّماً هناك أيضاً . كما هو حالي في الدنيا ، حيث كنت مكرماً ومتمتعاً بالرياض الغناء المثمرة . أي سأكون مرفهاً ومترفاً في الآخرة أيضاً .

أدان القرآن الكريم في عدة أماكن طريقة التفكير الجاهلية هذه ، سواء كانت الجاهلية الاولىٰ القديمة أو الجاهلية الثانية الجديدة . وإحدىٰ هذه الأماكن هي سورة فصلت التي نتدارسها حالياً **﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأىٰ بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾**[2] ومن الممكن لاحقاً وبفضل التوفيق الإلهي أن نتدارس ونوضح هذا الموضوع .

نقسم علىٰ الله باسمائه الحسنىٰ وبقرآنه الكريم أن يجعل قلوبنا أوعية لمعارف القرآن الكريم وأحاديث الأولياء الإلهيين . وأن يُهدي ثواب هذه البحوث والخطب والإستماع بعد قبولها إلى أرواح الأولياء الألهيين وشهداء

---

(١) سورة الكهف ، الآية(٣٦) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٥١) .

الإسلام كأفضل هدية ممكنة . وأن يغرق أساتذتنا ومؤلفي العلوم الإلهية برحمته الواسعة . ويستجيب هذه الأدعية بحق كل المؤمنين ويمد جنودنا بامداداته الغيبية الخاصة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الدرس التاسع

حجاب الذنب ، عقوبة إلهية في الدنيا

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان حديثنا عن المضمون المشترك للسور القرآنية السبع المعروفة بـ «الحواميم السبعة» وأهم محتوىً مشترك بين هذه السور السبع هو تبيان ضرورة الوحي ومبدأ الوحي ومعطياته . فما هي حقيقة الوحي؟ ومن أين نشأ؟ وماذا يحمل معه من الأصول والأحكام أثناء نزوله؟ وإلىٰ أي مقام رفيع يريد أن يرتقي بالإنسان؟

كما أن الإنسان موجود مفكر ، فإن سعادته وشقائه يتمان عن طريق تفكيره . من هنا فإن الوحي السماوي يؤمن سعادة الإنسان عن طريق الفكر . إنه يضمن سعادة الإنسان بعرضه الأصول والمعارف العقائدية والإرشادات الأخلاقية والملكات النفسية وتوجيهه للقوانين والأحكام

العملية ، في الابعاد الثلاثة الإعتقاد والأخلاق والعمل .

وما يُعلّمه للإنسان كعقيدة صحيحة هو؛ التوحيد والنبوة والمعاد ، والعدل والإمامة أصلان يرجعان إلى تلك الأصول المذكورة . وما يطرحه تحت عنوان الأخلاق والأعمال فيعود إلىٰ الحكمة العملية والقوانين الفقهية ، فكل أقسام الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح ترجع إلىٰ هذه العناوين .

ولأن الجزء المهم من منجزات الوحي ، هي الأصول الثلاثة؛ التوحيد والنبوة والمعاد ، فإن المفكرين الماديين يتشددون أزائها ويقفون أمام الوحي بإنكارها .

يشرح القرآن الكريم السبب في عناد الملحدين بعد إتمام الحجج والشواهد الكافية عليهم ، علىٰ النحو التالي؛ بأنهم يفتقدون القلوب التي تستطيع أن تفهم المعارف الإلهية . ولا يمتلكون الأعين والآذان التي ترىٰ وتسمع آيات الحق ومصدر هذا الإحتجاب هو أعمالهم القبيحة . الأعمال المحرمة والقبيحة حجاب يحول بين الإنسان الفاسد وبين الحقيقة ولا يسمح له برؤية الواقع . لأن هناك ستاراً أمام ناظريه، فإنه ينسج خيوط هذا الستار بأعماله القبيحة ، ويلقيه ممزوجاً بالذنوب والمفاسد أمام ناظريه . وبهذا لا يستطيع أن يرى الحق .

ورد كلام المشركين في بداية نفس سورة فصلت هذه بالشكل الآتي: ﴿**وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر**﴾[1] أي أن في آذاننا وقر وثقل يمنعنا من سماع كلامك . ﴿**ومن بيننا وبينك**

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٥) .

حجاب﴾[1] وهنالك ستار بيننا وبينك لا يسمح لنا برؤيتك ورؤية ما تحمله ﴿فاعمل إننا عاملون﴾[2] .

وبهذا التعبير اتخذوا موقفهم من رسول الله وهددوه وقالوا؛ اعمل ما أنت عامل ، وسنتخذ قرارنا أيضاً . وكانت إحدىٰ مؤامراتهم أنْ قالو: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[3] أي لا تستمعوا لكلام القرآن وامنعوا الرسول أن يتحدث بواسطة الغوغاء والضجيج ، خرّبوا مجالس درسه باللغو والغوغاء والصراخ لعلكم بهذا الضجيج تغلبون .

أي؛ لا تسمعوا لكلام الرسول ﷺ ولا تدعوا الناس يسمعون كلامه . وحين لا يستمع أحد لكلام ومنطق النبي لأن الإستماع له ممنوع ، فإنه سينكسر ويُهزم وسوف تنتصرون . وكان هذا مفاد القرار الذي اتخذه أناس قلوبهم في أكنة الغفلة وفي آذانهم وقر ، وبينهم وبين الرسول الأكرم ﷺ حجاب غير مرئي .

السؤال هو هل أن هذه الحجب أبدية؟ أم أن هنالك يوم تزول فيه هذه الحجب والسُتر ووقر الآذان؟

جاء في ختام نفس السورة ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق﴾[4] إنهم ونتيجة لحجاب الغفلة والجهل لم يكونوا يؤمنون بالحق ويتقبلون كلامه ، إذن فليست هذه الحجب مما يبقىٰ دائماً .

﴿أولم يكف بربك أنه علىٰ كل شيء

(١) سورة فصلت ، الآية(٥) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٥) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(٢٦) .
(٤) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .

شهيد﴾[1] أوليس الله سبحانه بنفسه دليل على نفسه . أولا تكفي هذه الذات الأزلية كبرهان شهودي علىٰ نفسها ، إنها كافية يقيناً . لأن الله سبحانه مشهود من قِبل الجميع ، إنه الشهيد والمشهود قبل كل شيء ، بحيث أننا لا نرىٰ شيئاً إلاّ ورأينا الآيات الإلهية قبله ، إنه مشهود لكل شيء .

إننا قبل أن نتوصل إلىٰ أي شيء ، نتوصل إلى الله . الله مشهود فوق كل شيء. جاء في بداية هذه السورة أن هؤلاء في حجب وستر وجاء في آخر نفس السورة أنه سيأتي يوم يتضح لهم فيه الأشياء نتيجة لارتفاع كل ألوان الحجب أن الله حق ، مع انهم محرومون من الشهود الكاملِ يوم القيامة ولا يوفقون للقاء الله **﴿إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾**[2] .

حين نأخذ آيات سورة الإسراء وسورة يس وسورة الجاثية بنظر الاعتبار نستطيع أن نفسر الآية المنظورة بصورة أفضل . إن لله سبحانه هدايتان وإضلال واحد .

الهداية الأولىٰ: هي نفس الإرشاد التشريعي الذي هَدى الله سبحانه الجميع إليه بالعقل وهو الحجة الباطنية وبالوحي وهو الحجة الخارجية معاً ، وقال **﴿إنا هديناه السبيل﴾**[3] ولأن الله يهدي كل الموجودات إلىٰ كمالها فإنه يهدي الإنسان أيضاً عن طريق التفكير الصحيح . ويعلمه آداب الحياة السعيدة ، وهذه هي الهداية الإبتدائية التي هدى الله بها جميع البشر .

مع ان الانسان من حيث القبول والتمرد ينقسم إلىٰ مؤمن وكافر ، ولكن من حيث الإرشاد التشريعي عن طريق تعليم الأفكار الصحيحة ليس

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .
(٢) سورة المطففين ، الآية(١٥) .
(٣) سورة الإنسان ، الآية(٣) .

هنالك أي تفاوت بين البشر . فالذين يتقبلون ينتفعون والذين لا يقبلون يبقون محرومين ويكون إرشاد الأنبياء بالنسبة لهم بمثابة إتمام الحجة .

أما الهداية الثانية ؛ فهي الهداية الجزائية والتي يظفر بها اشخاص معينون . أي حين يقبل الشخص دعوة النبي ويسلك مقداراً من ذلك السبيل ، فسوف يشمله اللطف الالهي ويستطيع أن يجتاز بقية الطريق بسهولة وسرعة وتفوّق إلىٰ مرحلة الإمامة .

في هذه الحالة فإن الله لم يهده الهداية بمعناها الأول فقط وهي الإرشاد التشريعي ، بل إنه يهيىء له الهداية بالمعنىٰ الثاني التي هي أمر تكويني . وبالتالي فسيجتاز الصراط بسرعة ، ويظفر بالتفوق على الآخرين ، يجعل بالإمامة رائداً للمتقين وقد مرت بنا هذه البحوث بصورة مفصلة .

إذن فلله هدايتان ، الأولىٰ الهداية الإبتدائية وهي التي تشمل الجميع . والثانية الهداية الجزائية والثوابية وتعني الإيصال إلى المطلوب والتوفيق والتسديد والتأييد والهداية بمعناها الثاني تخص المؤمنين . فمَن عرف طريق الوحي وقبله وسلكه فسينال الهداية الإلهية الجزائية .

أما إضلال الله فإنه ليس اكثر من نوع واحد ، وهو الإضلال الجزائي ، فالله لا يضل أحداً بصورة إبتدائية أبداً . بل هو يهدي الجميع ، أما حين ينبذ الشخص الكتب الدينية وراء ظهره **﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾**[1] رغم امتلاكه للعقل في باطنه ورؤيته للرسول ﷺ والإله في الخارج وبعد إتمام الحجة عليه **﴿فللّه الحجة**

(١) سورة آل عمران ، الآية(١٨٧) .

البالغة﴾[١] ، فإن الله سيُضل هؤلاء الأشخاص كجزاء لهم ، وهؤلاء هم الذين يشملهم الغضب الإلهي .

ولأن الإضلال ليس أمراً وجودياً خلافاً للهداية التي هي أمر وجودي . فمعنىٰ الإضلال الإلهي هو ؛ إن الله يسلب لطفه الخاص ولا يمنح رحمته الخاصة للإنسان الفاسد ويُمسك عنه الفيض ولا ينظر إليه ويتركه علىٰ حاله .

إذا تُرِك الإنسان لحاله ، فلا يستطيع أن يعثر علىٰ الطريق المستقيم أبداً . يقول عز وجل في القرآن الكريم **﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾**[٢] .

إذا أراد الله أن يوفق شخصاً ويؤيده فلا يستطيع أحد أن يقف بوجه التأييد الإلهي . وإذا لم يشأ أن يؤيد شخصاً ما ، أي حين لا يكون الإنسان جديراً بالتوفيق الإلهي ، فلن يمنحه الله من فيضه الخاص . وحين لا يمنحه الله فيضه وكان بذاته وصفاته وأفعاله فقيراً وكان الآخرون مثله بحاجة إلىٰ الإمداد الإلهي إذن فلن يبقى سبيل إلىٰ إنقاذه أبداً ، ولهذا يسقط **﴿عن الصراط لناكبون﴾**[٣] .

إن تعبير «الإمساك» مناسب ودقيق جداً . لأنه يدل علىٰ أن كل النواقص من قبيل الضلالة والغواية والجهل والسفاهة وغيرها تأتي نتيجة عدم وصول فيض الهداية ، وإلاّ فإن هذه الأمور التي ذكرناها (الضلالة والغواية و . . .) ليست أموراً وجودية لتسند إلى فيض الله . لهذا لم يقل

---

(١) سورة الأنعام ، الآية(١٤٩) .
(٢) سورة فاطر ، الآية(٢) .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية(٧٤) .

عز وجل أن الله يلقي بشخص ما في الضلالة ، بل قال إنه يمسك رحمته الخاصة عنه .

وفي المواضع الأخرىٰ التي تُنسبُ فيها الضلالة إلى الله ، فإن معناها هو هذا أيضاً . لأن الشيء المشترك بين كل النواقص هو عدم وصول الفيض الذي عبر عنه الله سبحانه في الآية المنظورة بأنه إمساك .

وبالطبع فإنه قال عن التوفيق والهداية؛ ان الله يفتح باب رحمته . أما عن الخذلان والإضلال فقال؛ إنه يغلق باب الرحمة لا إنه يفتح باب الضلالة ، فالضلالة ليست أمراً وجودياً لكي يمنحه الله لأحد ، بل إن إغلاق باب الهداية هو نفسه الإضلال .

إذا أمسك الله شيئاً ولم يعطه ، فلا يستطيع شخص أن يرسله ويعطيه وعلىٰ هذا فليس إضلال الله هو أن يمنح الله لشخص معين شيئاً إسمه الضلالة . بل هو أخذ وإمساك فيض الهداية ، وسلب التوفيق والرحمة يؤدي إلى الضلالة . ولا يكون إغلاق باب الرحمة إلاّ بوجه من يذر الكتاب السماوي وراء ظهره عن عمد .

لهذا قال عز وجل **﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾**[1] **﴿وما يضل به إلاّ الفاسقين﴾**[2] أي ان الذي يخرج عامداً عن الصراط المستقيم ويترك الدين الإلهي وراء ظهره رغم وقوفه علىٰ الدليل العقلي والنقلي ، فإن الله سيضله ، ومعنىٰ الإضلال هو إمساك فيض الهداية ، وليست الضلالة أمراً وجودياً مستقلاً ومنفصلاً .

---

(١) سورة النحل ، الآية(٩٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآية(٢٦) .

هذا مبدأ قرآني مسلم به وهو أن الله لا يضل أحداً بشكل ابتدائي . والمبدأ القرآني الآخر هو أن الله لا يضل إلاّ الذين ينحرفون بعد إكتمال الحجة الإلهية عليهم ، والضلالة والإضلال ليس حقيقة وجودية أيضاً بل هو عدم الملكة ، أي بمجرد أن يُمسَك الفيض الخاص والرحمة الإلهية الخاصة عن هؤلاء فقد حلت بهم الضلالة . وهذا أيضاً مبدأ قرآني مسلم به .

وبلحاظ الأصول الثلاثة المذكورة يتضح معنىٰ نسبة الإضلال إلىٰ الله سبحانه فإن لم تفتح باب الرحمة الإلهية الخاصة بوجه الفرد أو المجتمع ، فتحت بوجههم أبواب العذاب سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة التي هي عالم ظهور الحق وزوال كل أنواع الحجب . ففي ذلك اليوم أيضاً ، رغم أن جميع الحجب قَد زالت فإن القائلين في الدنيا **﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾** سيقولون يومئذ **﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾**[1] ومع هذا يبقىٰ باب العذاب مفتوحاً بوجوههم .

يجب أن تفسر هاتان القضيتان بمعونة الآيات المذكورة ، القضية الأولى أنه بسبب ذنوبهم ومفاسدهم الدائمة يُسدِل الله سبحانه الحجب المانعة للادراك على قلوبهم وآذانهم وعيونهم . ونسيج هذه الستائر والحجب ليس سوىٰ الذنوب والضياع ولهذا فهم يمرون علىٰ الكثير من الآيات الإلهية دون مبالاة وبغفلة وإعراض **﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾**[2] .

والقضية الثانية : إنهم في يوم القيامة وهو يوم ظهور الحق وزوال

---

(١) سورة السجدة ، الآية(١٢) .

(٢) سورة يوسف ، الآية(١٠٥) .

الحجب وإزاحة الستائر سوف يرون الحق **﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾**[1] ولكنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا به ، لأن ذلك اليوم ليس ظرفاً للايمان والتحصيل الاختياري للكمال ومن هنا فسوف يعذبون تمام العذاب .

وهنالك في سورة الإسراء ما يشبه ما جاء في سورة فصلت **﴿قالوا قلوبنا في أكنة﴾** وهو ما مر بنا شرحه سابقاً .

يقول عز وجل في سورة الاسراء **﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا علىٰ أدبارهم نفوراً﴾**[2] .

ليس هذا الحجاب حجاباً نسجه البشر ، وهو ليس حجاباً يمكن للعين العادية أو العين المسلحة أن تراه ، لأنه ليس ستاراً محسوساً أُسدِل علىٰ العين الظاهرية ، بل المراد هو عين الفؤاد ، وعين الفؤاد هذه هي التي تُحتجب يوم القيامة عن مشاهدة جمال الحق **﴿إنهم يومئذ عن ربهم لمحجوبون﴾** وحجاب العين الباطنية غير مرئي أيضاً .

والمراد من العين كما بيّنا ليس عين الرأس المادية الظاهرية . فالوحي يعتبر رؤية الله مستحيلة بالعين الظاهرية ، وكذلك العقل يعتبر هذا الأمر مستحيلاً **﴿لا تدركه الأبصار﴾**[3] .

---

(١) سورة النور ، الآية(٢٥) .
(٢) سورة الاسراء ، الآيتين (٤٥ ـ ٤٦) .
(٣) سورة الأنعام ، الآية(١٠٣) .

إذن فالعين التي تستطيع أن تبصر الله هي عين الفؤاد ، وإذا أسدِل الذنب أمام عين الفؤاد كما يُسدَل الستار ، فإنها ستُحرم من مشاهدة الحق . وهذه الستارة حجاب غير مرئي لأن القلب الذي هو نفس الروح الإنسانية المجردة لا بد أن يكون صفاؤه وكدورته أمراً مجرداً غير مرئي أيضاً . وعلىٰ كل حال فقد قال في سورة الاسراء؛ لأن المفسدين تركوا طريق الحق وراء ظهورهم فقد جعلنا علىٰ قلوبهم حجباً لكي لا يفهموا وفي آذانهم وقراً لكيلا يسمعوا الكلام اللطيف ، وقد قال تعالى في سورة البقرة **﴿ختم الله على قلوبهم وعلىٰ سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾**[1] .

معنىٰ الختم هو أن الذنب قد ملأ ساحة قلوبهم كلها . ولم يعد ثمة مكان للتوبة والإنابة . ولهذا فقد خُتمت صفحة قلوبهم السوداء ، ولو كان هناك أمل في التوبة والعودة لما ختم الله علىٰ قلوبهم أبداً لأن الختم يعنى إنتهاء الفرصة والصفحة القلبية .

توضيح هذه القضية أنه من هم الذين يشملهم القهر الإلهي فيختم الله على قلوبهم وآذانهم ويحرمهم من فهم وسماع ورؤية الحق قد بُيِّن في سورة يس فقد قال عز وجل **﴿لقد حق القول علىٰ أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾**[2] بعد أن قال إننا أرسلناك لتنذرهم من عاقبة السوء ، قال إن القضاء والقدر الإلهي حقَّ علىٰ اكثرهم فهم لا يؤمنون .

﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾[3] قد تكون أغلال الاعناق تارةً من أجل الإضرار بالعنق والضغط علىٰ اليد والجسم ، وتارةً من أجل تقييد كل

---

(١) سورة البقرة ، الآية(٧) .
(٢) سورة يس ، الآية(٧) .
(٣) سورة يس ، الآية(٨) .

العنق وحتىٰ الذقن بالحديد ، فلا يستطيع المرء أن يحني رأسه ويرىٰ أمامه .

يقول عز وجل إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً وحديدُ الأغلال مُمسك باعناقهم إلىٰ ما تحت الذقن ، أي كل منطقة العنق قد أخذها الحديدُ البارد الصلد ، ولأن الحديد احتل كل مساحة اعناقهم فإن رؤوسهم مرفوعة إلىٰ الأعلىٰ وبهذا لا يستطيعون أبداً أن يروا أجسادهم وأيديهم وأرجلهم وأمامهم .

﴿فهي إلىٰ الأذقان﴾[1] الحديد والأغلال آخذة باعناقهم إلىٰ الأذقان . كما إن السلاسل تُربط بالأقدام لكي لا تتحرك الأرجل فإن الغِل يُربَط بالعنق لكي لا تتحرك العنق ولا يتحرك الرأس ، لأن العنق إنْ كان موثقاً بالغل فلا يمكن تحريك الرأس أبداً ولا يمكن للعين أن تبصر الجسم والأرض وما أمام الإنسان ، لهذا قال **﴿فهم مقمحون﴾**[2] أي أن رؤوسهم إلىٰ الأعلىٰ ولا ترىٰ إلاّ الفوق . لا يستطيعون أن يبصروا أنفسهم ولا يستطيعون أن يشخصوا الطريق .

وعندها تطرح هذه القضية أنه إذا لم يكن بوسعهم أن يروا أنفسهم وأمامهم فهل يستطيعون أن يروا مقابلهم وما فوق رؤوسهم؟ يقول تعالى أنهم لا يستطيعون رؤية مقابلهم وما فوق رؤوسهم أيضاً ، وذلك أنه **﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾**[3] ليس بوسعهم أن يكونوا بعيدي النظر ولا أن يستفيدوا من التجارب الماضية ، لا بامكانهم الاطلاع علىٰ ما ورائهم وعلىٰ ما حصل للماضين ولا الإطلاع علىٰ

---

(١) سورة يس ، الآية(٨) .
(٢) سورة يس ، الآية(٨) .
(٣) سورة يس ، الآية(٩) .

المستقبل وما سيحصل بالآتين . لقد غُشيَ بصرهم بصورة كاملة ومن كل الجوانب .

إذن فالمفسدون الغارقون في الذنب محفوفون بسد مُحكم وصلب وهم محصورون بين سدين عظيمين ، فالحديد البارد الصلد يغمر اعناقهم إلىٰ الأذقان ، وهم بذلك غافلين عن أنفسهم وعن مشاهدة العالم الخارجي . لا يستطيعون مشاهدة الله بمشاهدة الآيات الأنفسية ولا مشاهدته بمشاهدة الآيات الآفاقية إذ أن سبيلهم إلىٰ رؤية الذات مسدودة وكذلك سبيلهم إلىٰ رؤية العالم . وبهذا فهم لا يبصرون أي آية من آيات الله سبحانه .

لهذا قال سبحانه ﴿**فأغشيناهم**﴾ فمن خلفهم حجاب ومن أمامهم حجاب . ليس لهم قدرة النظر إلىٰ الخارج ولا قدرة النظر إلى الداخل . ولا يرون أنفسهم ولا غيرهم ﴿**فهم لا يبصرون**﴾ أنهم لا يبصرون أية آية من الآيات الإلهية أبداً . وقد ورد في سورة الجاثية ما يشبه هذا المضمون ، حيث يقول عز وجل ﴿**ختم على سمعه وقلبه وجعل علىٰ بصره غشاوة**﴾[1] .

وزبدة ما جاء في سورة يس وفي سورة الجاثية هو؛ إن الله جعل عليهم حجاباً معتماً وشاملاً ، بحيث لا تبقىٰ لهم إمكانية إدراك ورؤية وفهم أي شيء ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله علىٰ علم وختم علىٰ سمعه وقلبه وجعل علىٰ بصره غشاوة**﴾ يقول؛ أرأيت من يعبد هواه ، كيف وقع أسير الهوىٰ وكيف قطع الله فيضه عمن يعمل حسب أهوائه رغم أن الحجة الإلهية قد تمت عليه وفهم الحق .

---

(١) سورة الجاثية ، الآية(٢٣) .

من يعمل كل ما يريد فهو عبد لإرادة ذاته أو هو عبد الهوىٰ وليس عبد الله . من يقول انني أعمل بما رغبت نفسي به وما أحبه ، أي أطيع أوامر أهوائي وميولي وتمنياتي ، فهو عبد هواه وليس عبداً لله أبداً .

الذي يعلم أن العمل الفلاني محرم ومع ذلك يتحرك باتجاهه نتيجة لهواه ، سوف يسلب الله فيضه منه ، وقطع الرحمة هذا هو الضلالة .

بعدها يقول ﴿ختم علىٰ سمعه وقلبه﴾ بما أن الكلام ينتقل إلىٰ القلب عن طريق الأذن ، فقد ختم الله على الأذن التي هي قناة الكلام وعلىٰ القلب أيضاً . في بعض المواقع يُقدّم القلب علىٰ السمع ، لأن القلب مقر إدراك الكلام ، وفي هذه الآية قدّم السمع علىٰ القلب لأن السمع قناة وطريق الادراك .

﴿وجعل علىٰ بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾[1] إذا أغلق الله قنوات إدراك الإنسان وسلب المفسد ، توفيق فهم وسماع ورؤية الحق فمن يستطيع بعد هذا أن يهدي هذا الإنسان الفاسد؟! وهذا هو نفس المبدأ القرآني القائل ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له**﴾ .

بناءً علىٰ هذا المبدأ القرآني ، يقول في الآية الكريمة ؛ إذا حرم الله إنساناً من فيضه ، فمن يهديه ويفيض عليه؟ أوليست هداية الإنسان انما تتم عن طريق فكره؟ أوليس الذنب حجاباً أمام التفكير الصحيح؟ أولا يظهر هذا الحجاب علىٰ صورة غل وسلاسل لا تدع للإنسان رجلاً للمسير ولا عيناً للرؤية ولا أذناً للسماع .

---

(١) سورة الجاثية ، الآية(٢٣) .

البعض يسير في الأفكار والبراهين بأقدام العقل والفكر ، هؤلاء هم المشاؤون وأهل الإستدلال ، ومع ان أقدامهم خشبية ولكنهم يمشون بالمقدار الميسور ، يمكن المشي برجل خشبية ولكن لمسافات قصيرة لأنها بلا تمكين ، أما بالرجل الموثقة بالسلاسل الحديدية الباردة الصماء فلا يمكن الحركة مطلقاً .

والبعض يسمع بأذنه ويرىٰ بعينه ويختار بقلبه ، وهؤلاء هم العارفون والحكماء ، الحكيم يشبه النهر ذا الماء القليل ، فإذا بقي في مكانه أصبح نتناً ، ولهذا فهو يسير إلىٰ البحر لكيلا يكون كذلك . والعارف كالبحر الذي لا يتعفن أبداً لهذا فهو في محله لا يبرحه . جميع المتحركين والسائرين يمشون باتجاه المعرفة والشهود ، فبأي اتجاه يتحرك وإلىٰ أين يذهب هو ما دام عارفاً وشاهداً .

حينما قيل للعارف الشاهد؛ لماذا لا تسير؟ إن الماء إذا بقي في مكانه نتن . قال؛ كن كالبحر لكيلا تحتاج إلىٰ مد يدك وتحريك رجلك . إذا كنت كالبحر فلن تتعفن ولن تنتن من الثبات والإستقرار . أوليس علىٰ الإنسان في كل حال أن يبصر أو أن يسير؟ فإما أن يكون عارفاً وإما أن يكون حكيماً .

إن الذي يشوه مرآة فؤاده ويكسر مرآة تفكيره بالذنوب ، لا يتمكن من سلوك طريق العرفان ولا طريق البرهان . لأنه سدَّ طريق إزدهار الفؤاد بطين أهوائه فلم يعد ينبع شيءٌ من باطنه ، وسدَّ كذلك طريق الإستفادة من الخارج فلا يدخل شيء إلىٰ فؤاده ، لهذا يقول الله سبحانه عن هذه الفئة ﴿**صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية(١٧١) .

ويقول تارة أن قنوات إدراكهم مغلقة **﴿وختم علىٰ سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾** .

ما دام ثمة ذنب ، فهنالك ستار علىٰ العين وختم على الفؤاد والسمع وسد من الأمام والخلف ، ليس هنالك طريق للتفكير الصحيح ما لم تزل حجب الباطن والخارج ، كما لا يوجد طريق للمشاهدة الصحيحة .

بعد ذلك يكون السؤال؛ هل إن هذه الحجب أبدية أم انها ستزول جميعاً في يوم من الأيام؟ هل إن هذا السد الفولاذي المُحكم دائم إلىٰ الأبد أم أنه كباقي السدود والجبال سيزول ويرتفع في يوم ما؟ وقد كان لسد ذي القرنين الفولاذي المحكم يوماً يتهدم فيه ويتهافت **﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً وكان وعد ربي حقاً﴾**[1] .

أجل ، سيأتي يوم تتهاوىٰ فيه كل هذه السدود وتزول فيه كل الحجب ، وهو يوم الظهور الكامل للحق سبحانه وتعالىٰ . يوم تكشف كل الحجب وتتهافت كل السدود والموانع ، لأنه ليس بإمكان أى موجود تحمّل ذلك الظهور ليكون حائلاً بينه وبين الآخرين .

في ذلك اليوم الذي لا تتحمل السماوات والأرض ثقل وحجم ظهور الحق **﴿ثقلت في السماوات والأرض﴾**[2] لن يكون للمفسدين والمحجوبين طريق يسلكونه سوىٰ طريق جهنم **﴿ونسوق المجرمين إلىٰ جهنم ورداً﴾**[3] يومئذ تزاح كل تلك الستائر ويتضح الحق لهم فيفهمونه ، ولكن ليس في

---

(١) سورة الكهف ، الآية(٩٨) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية(١٨٧) .

(٣) سورة مريم ، الآية(٨٦) .

مقدورهم الإِيمان به .

مر بنا سابقاً أن يوم القيامة يوم ظهور الحق وليس يوم الإِيمان به ، أعظم مصيبة يومئذ هي ظهور الحقيقة بكل جلاء بدون أن يكون من الممكن التصديق بها . وأشد عذاب هو تفجر عيون الماء الزلال في حين تتمزق أمعاء الإِنسان الظامىء نتيجة شربه الماء المالحة بدون أن يرتوي أو أن يستطيع شرب المياه العذبة .

وعلىٰ كل حال فهنالك يوم يتضح فيه الطريق ولكن السائر سيكون مكسر الأرجل وعاجزاً عن الحركة . سوف يظهر الحق بكل وضوح ولكن الكافر غير قادر على الإِيمان به ، لأن الإِيمان فعل إختياري ولا يكون إلّا بالتكليف ، وليس يوم القيامة يوم الأعمال الإِختيارية والتكليف والإِرادة .

يقول عز وجل في ختام سورة فصلت **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق﴾** إذا كان عنقه في الدنيا مغلولاً ورأسه إلىٰ الأعلىٰ ولم يكن في مقدوره مشاهدة آيات الأنفس فإنه اليوم يرىٰ نفسه خير رؤية ، إنه يرىٰ ذاته وصفاته وأفعاله جيداً ، ويرىٰ بوضوح القضية القائلة «عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم»[1] .

سوف يبصر التغيرات التي تطرأ على روحه ، وسيرىٰ كل وجوده آيةً من آيات الله . ففي ذلك اليوم ترتفع الحجب وتُشهد آيات الآفاق كآيات الأنفس وترتفع الأغلال ويستطيع المرء أن يبصر نفسه ويبصر غيره . ولكنه لا يستطيع الإِيمان بالله المتجلّي في المظاهر الباطنية والخارجية **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق﴾** سيتضح لهم أن الله هو

---

(١) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، رقم ٢٤٢ .

الحق **﴿يعلمون أن الله هو الحق المبين﴾** سيدركون أن الله كان وما يزال الحق المبين ولكن لا يستطيعون الإيمان به .

في هاتين الآيتين عدة قضايا ، سوف نبحثها لاحقاً إن شاء الله . فماذا تعني آيات الآفاق؟ وماذا تعني آيات الأنفس؟ وكيف أن الله مشهود فوق كل شيء وقبل كل شيء؟ بحيث أننا نرىٰ الله أولاً ثم نرىٰ الأشياء الأخرىٰ . وآخر آية في سورة فصلت هي **﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾**[1] ومن هذه الآية أيضاً يمكن إنتزاع برهان تكون آيات الآفاق الحد الاوسط فيه . وكذلك برهان يكون حده الاوسط آيات الأنفس . وكذلك برهان الصديقين الذي يكون حده الأوسط ذات واجب الوجود سبحانه «دل علىٰ ذاته بذاته» .

سنؤجل البحث في هذه البراهين الثلاثة ، وكيف تتجلىٰ لهم الحقائق يوم القيامة أو عند الموت ومع هذا لا يستطيعون الإيمان بها ، وأن الله مشهود لكل شيء وكيف أن الله محيط بكل شيء وشاهد له ، سنؤجل البحث في هذه المواضيع إلىٰ المحاضرات اللاحقة .

أتمنىٰ أن تكون قلوب الجميع أوعية للمعارف الإلهية وأحاديث أولياء الله ببركة القرآن الكريم وأن يغرق معلمينا ومؤلفي العلوم الإلهية برحمته الواسعة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة فصلت، الآية(٥٤) .



الدرس العاشر

معنى الإضلال الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان كلامنا حول المضمون المشترك للحواميم السبعة ، وأشمل مضمون مشترك بينها هو شرح الوحي وضرورته ومنجزاته ، وأهم منجزات الوحي هو تبيان التوحيد والنبوة والمعاد والدعوة إلى أصول ومعارف الدين الأولية وبما أن الإنسان موجود مفكر وعاقل ، ولا يتوفر كماله إلاّ عن طريق الفكر الصحيح إذ أن جميع أعماله الحسنة مسبوقة بالتفكير الصحيح . وقد جاء القرآن أيضاً من أجل تكامل المجتمعات البشرية ، لذلك فهو يعرض عليهم طريق التفكير الصحيح ليصلوا إلىٰ أهدافهم بسلوك هذا الطريق .

إن الطريق الذي يهدي القرآن الكريم المجتمع البشري إليه ، ليصل إلىٰ أهدافه بمعرفة هذا الطريق وسلوكه أي بالعلم والعمل الصالح ، هو

معرفة الله والقيامة والوحي والرسالة . وما يمنع من هذه المعرفة ومن سلوك هذا الطريق هو الذنب الذي هو حجاب غير مرئي ، وهذا الحجاب غير المرئي يحول دون كل سماع ورؤية .

وصلنا في البحوث الماضية أن لله هدايتين وإضلال واحد . الهداية الأولىٰ هي الهداية الابتدائية والهداية الثانية هي الهداية الجزائية والثوابية ، أما من حيث الإضلال فلله إضلال جزائي فقط . لأن الله لا يضل أحداً بشكل إبتدائي . أما إذا انحرف الإنسان عن عمد بعد إتمام الحجة عليه واتضاح الطريق له ، فإن الله سيضله .

وليس معنىٰ إضلال الله أيضاً أنه يمنحه أمراً وجودياً إسمه الضلالة ، فالضلالة هي عدم الملكة وليست أمراً وجودياً . بل إن الله يسلبه الهداية والتوفيق والعون وما شابه .

حين ينقطع لطف الخالق عن الشخص فإنه سيضل ويسقط ، لأنه لا ملجأ للإنسان إلاّ الله **﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾**[١] .

والخلاصة هي أن الضلالة ليست مما يُعطىٰ ، أما الهداية فإنها مما يعطىٰ ، وما لم يعطها الله فلن يهتدي الإنسان . إذن فمن يُحرم من لطف الله سيسقط حتماً **﴿عن الصراط لناكبون﴾**[٢] .

يشرح القرآن الكريم في الكثير من المواضع هذين المبدأين ، الأول **﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾**[٣] والثاني **﴿وما يمسك فلا**

---

(١) سورة الكهف ، الآية(٢٧) .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية(٧٤) .
(٣) سورة فاطر ، الآية(٢) .

مرسل له﴾[1] .

فعندما يطبق قهر الله على أحد فلا مرسل له . وقهر الله هو غلق باب الرحمة هذا .

إضلال الله هو عدم توصيله اللطف والهداية ، لا أنه يمنح أحداً شيئاً إسمه الضلالة . حينما تُسلب الهداية من أحد فلن يزدهر عقله من الداخل ، ولن تنفذ رسائل الرسل الإلهيين من الخارج . فلا يصل كلام الأنبياء عن طريق السمع إلىٰ الفؤاد ، ولا يتفجر نداء العقل من الداخل .

ليس الانسان المحروم من هداية الله كالعين التي تتفجر المياه من داخلها ولا هو كالحوض الذي يحصل علىٰ مائه من النهر الخارجي ، ولذا فهو يجف حينما تُغلق منافذ الادراك عند الشخص ولا تعود للقلب القدرة على الادراك الشهودي ولا للأذن والعين القدرة علىٰ السماع والرؤية لتؤدي دورها عن هذا الصراط ، فإن الشخص المحروم من الهداية سوف يضل وينحرف ، ولكن سيأتي يوم يفتح الله فيه كل هذه القنوات المغلقة ، فيفتح الأذان وعيون القلوب المغلقة .

وصلنا في البحث السابق إلىٰ هذه النتيجة وهي أن الله قد يختم علىٰ الفؤاد في بعض الأحيان وقد يفتحه في أحيان أخرىٰ ، الحكم الإبتدائي لنظام الخلقة هو أن الانسان يدرك الخلق بقنوات مفتوحة وله كل القابلية علىٰ كسب العلوم . وما لم يستفد من هذه الوسائل الادراكية مع تمتعه بكل الامكانات اللازمة فإن الله سوف يغلق هذه القنوات ولن يفتحها إلاّ عندما لا تكون هنالك فائدة منها وذلك في يوم القيامة ، ففي يوم القيامة وعند البرزخ

---

(١) سورة فاطر ، الآية(٢) .

ولحظة الموت لا يمكن الايمان والاعتقاد .

في لحظات الموت تزول حجب الفؤاد والعين والأذن شيئاً فشيئاً ويستيقظ الإنسان النائم «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1] ما لم يمت الانسان فلن يستيقظ «أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام»[2] .

اكثر الناس نائمون ما داموا أحياءً ولا يستيقظون إلاّ لحظة الموت لأن الموت مع إنه نوم بلحاظ الدنيا ولكنه بلحاظ البرزخ يقظة ووصول إلىٰ العالم الرحب ، فالتحرر من الطبيعة والدخول فيما وراء الطبيعة هو المُسمىٰ بالموت . والانسان في تحول وانتقال دائم حتىٰ يصل إلىٰ دار القرار «حتىٰ حلوا دار القرار»[3] وفي تلك اللحظة يستيقظ الإنسان ، أي أن قلبه يعي واذنه تسمع وعينه ترىٰ .

كل ما يراه القلب في تلك اللحظة فهو يراه صحيحاً ، وكل ما تراه العين وتسمعه الأذن في تلك اللحظة فإنه يرى ويسمع بشكل صحيح . ولكن ليست هنالك آثار تترتب علىٰ هذا الفهم والسماع والنظر ، لأنه لا يمكن الإيمان عندئذ .

إذا كان الانسان عالماً ولم ينتفع من علمه عمداً ، فسيتبدل علمه جهلاً بشكل تدريجي . ويأتي يوم يعود فيه عالماً ولكن بصورة إجبارية وقهرية ولكنه لا يستطيع عندها أن ينتفع من علمه . فمن شاهد الحق ولم يبالِ به تبدل شهوده نسياناً وفي لحظة الموت يزاح ستار النسيان فيتبدل جهله علماً ونسيانه شهوداً ، لكنه عاجز عن الاستفادة من هذا العلم والشهود .

---

(١) مائة كلمة للجاحظ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، رقم ٦١ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٦٥ .

إن هذا العلم بلا عمل في الدنيا يظهر في الآخرة على شكل شهود بلا فائدة ، وهذا بدوره نوع من العذاب ، من هنا فإن لحظة الموت هي بداية الحسرة والأسف ويمتد هذا الأسف إلىٰ يوم القيامة الذي هو يوم الحسرة .

في ذلك اليوم يتضح الحق ويراه الانسان ولكنه لا يستطيع الإيمان به لأنه لم يؤمن في الدنيا التي هي موطن الاختيار ، أو أنه لا يستطيع أن يرتب عملاً وأثراً علىٰ ايمانه القلبي أو أن يمنحه القيمة اللازمة ، لأنه في الدنيا لم يبالِ بإيمانه ولم يرتب عليه أثراً **﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾**[1] .

إذا آمن الإنسان في الدنيا ولكنه لم ينتفع من إيمانه فلن يفيده ذلك شيئاً في الآخرة . إنْ كان في الدنيا غير مؤمن **﴿لم تكن آمنت﴾** أو أنه آمن ولكن لم يعمل خيراً تبعاً لإيمانه **﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾** ، فإنه في الآخرة لن يستفيد شيئاً رغم اتضاح الحق لديه واتضاح ضرورة الوحي والمعاد والمبدأ . وعلىٰ هذا فالآخرة بالنسبة لمن لم يسر علىٰ صراط الدين المستقيم هي موطن الحسرة والأسف .

إنه يشبه السائر الذي ينحرف عمداً عن الطريق ويسقط من أعلىٰ الجبل إلى قعر الوادي فتتكسر أعضاؤه كلها ، وبعد ذلك يشخص الطريق الصحيح ولكنه فاقد للقدرة على السير فيه . أو كالإنسان العطش الذي شرب المياه المالحة ولكنه لم يرتوِ ، عندما يصل إلىٰ الماء العذب يكون ما يزال ظمآناً ولكن ليست لديه القدرة علىٰ الشرب . إنه حينما يشاهد العين الزلال العذبة ستكون هذه المشاهدة سبباً في حسرته . والإنسان في حال الموت وما بعده

---

(١) سورة الانعام ، الآية(١٥٨) .

يستطيع أن يرىٰ الحقيقة ولكنه لا يستطيع أن يؤمن بها .

يقول عز وجل في سورة فصلت؛ إن قلوبهم مقفلة ، وبينك وبينهم حجاب وفي آذانهم وقر . وقد نسب الله إلىٰ نفسه عملية الختم على قنوات الإدراك هذه في سورة الاسراء ويس والجاثية . فقال إننا ختمنا علىٰ قلوب المفسدين نتيجة فسادهم وجعلنا في آذانهم وقراً وأمام أعينهم حجاباً لكيلا يستطيعوا أن يفهموا أو يسمعوا أو يبصروا .

يقول في سورة يس **﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾**[1] . أي أن الكافرين لا هم يستطيعون رؤية أنفسهم ليصلوا إلىٰ الهدف عن طريق معرفة النفس والذات ولا هم يرون العالم ليصلوا الهدف عن طريق معرفة العالم .

أما كونهم لا يرون أنفسهم فذلك نتيجة أننا جعلنا في اعناقهم أغلالاً تصل إلىٰ أذقانهم وذلك بسبب فسادهم ، ولذا فهم لا يستطيعون أن يحنوا رؤوسهم ويروا أنفسهم أبداً . فهم بهذا **﴿مقمحون﴾** ورؤوسهم إلىٰ الأعلىٰ .

يقول في سورة النور إن الكافرين غرقىٰ في الظلمات إلىٰ درجة أنهم لا يستطيعون أبداً أن يروا شيئاً فهم كالغارق في قعر بحر عميق مواج ، يعلوه الموج ويعلو الموج موج آخر وفوق كل هذا الموج المتراكم هنالك غيوم كثيفة تضاعف من شدة الظلمات . وإذا أراد هذا الغارق أن يخرج يده ويراها لن يستطيع ذلك أبداً **﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من**

(١) سورة يس ، الآية(٨ و٩) .

فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾[1] .

لم يقل تعالىٰ عن اليد أنه لا يراها بل قال ﴿لم يكد يراها﴾ وكاد تعني اقترب ، أي أنه لم يقترب من رؤيتها ، مع أن اليد مطيعة للإنسان ومؤتمرة له في قربها وابتعادها وجعلها علىٰ الباطن أو علىٰ الظاهر وفي قبضها وبسطها وفي رفعها وخفضها وفي كل شؤونها الأخرىٰ ، فإن الإنسان الغارق في قعر بحر لجي والأسير بيد الأمواج المتراكمة والغيوم الكثيفة لا يستطيع حتىٰ الإقتراب من أن يرىٰ يده .

والخلاصة هي أن الكافرين محرومون من مشاهدة أنفسهم والعالم الخارجي لأنهم محاطون بسد سميك ولا علم لهم بما فيهم ومستقبلهم ولا يستطيعون رؤية ما أمامهم وما خلفهم ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ لا بامكانهم الاستفادة من تجارب الماضين ولا النظر إلى المستقبل .

إذن فالمفسدين سدوا علىٰ أنفسهم طريق كل أنواع المعرفة عن عمد . لا يستطيعون الوصول إلىٰ ذات الواجب عن طريق مشاهدته ولا معرفة الخالق عن طريق شهود الذات . ولا هم قادرون علىٰ معرفة خالق العالم عن طريق مشاهدة العالم الخارجي .

وضع القرآن ثلاثة طرق لمعرفة الله سبحانه ، الأول؛ التفكير في آيات الآفاق والثاني؛ التدبر في آيات الأنفس ، والثالث؛ التعمق في ذاته «دل علىٰ ذاته بذاته»[2] .

---

(١) سورة النور ، الآية(٤٠) .

(٢) مفاتيح الجنان ، دعاء الصباح .

ليس سلوك هذه الطرق الثلاثة شيئاً واحداً . كما إن الجمع بينها ليس مستحيلاً . أي من الممكن للسالك أن يجتاز الطرق الثلاثة ويصل إلىٰ مقصده ويراه .

وبالطبع فإن هذه الطرق الثلاث لا تقع في عرض بعضها ، بل إن أحدها أعمق من الآخر ، ولا بد لمن يسلك الطريق العميق ويشاهد غايته أن يكون في مقدوره سلوك الطريق غير العميق بل إن النتيجة تحصل لديه بالفعل .

إن الطريق الأعمق من بقية الطرق هو الطريق الثالث والخاص بالأولياء الإلهيين . فبمشاهدة الوجود المحض يصلون إلىٰ ذات الله سبحانه بحسب إمكاناتهم وليس في مستطاع الناس العاديين سلوك هذا الطريق ، وما يستطيعونه هو التفكر في آيات الآفاق أي دراسة نظام العالم الخارجي من قبيل الأفلاك أو النباتات أو الحيوانات أو المعادن أو غيرها ، وكذلك التدبر في آيات الأنفس أي دراسة النفس وكيفية ظهورها وارتباطها بالبدن ، وحقيقة مفارقتها له وطريقة حياتها قبل البدن ومعه وبعد التحرر منه ، والتدبر كذلك في الحالات المختلفة لقبض وبسط الروح ، فرحها وحزنها وتصميمها فسخ عزيمتها وما شابه .

وإذا دفن الانسان قواه الادراكية بين غرائزه وميوله النفسية واستسلم للضياع والذنب وذلة الإنحراف عن الصراط المستقيم ، فإنه لن يحرم فقط من سلوك الطريق الثالث بل سيمنع أيضاً من سلوك الطريق الأول والثاني . فقد قال الله في سورة يس وكما مر بنا أن المفسدين ونتيجة غرقهم في الذنب ولهوهم ولعبهم سيسقطون إلىٰ حيث يحجبون من مشاهدة العالم الخارجي

ويحرمون من مشاهدة أنفسهم .

وذلك لأن قواهم الفكرية بدل أن تتدبر في الحقائق الوجودية العينية تراها غارقة في الاوهام والظنون الإعتبارية ، فالإنسان المتكاثر لا يفكر بشيء غير الأوهام الباطلة والشخص المختال الفخور لا يتعلم شيئاً سوىٰ الخيالات الفارغة من الحقيقة والتفاخرات العارية من الواقعية .

إذن فهو محروم من مشاهدة وجه النظام الكوني ومحجوب عن شهود الجمال الانساني . ولا يرىٰ الآيات الالهية بل كل ما يراه هو من صنع الشيطان الذي لا يصدر عنه شيءٌ سوىٰ الخداع . فالإشتغال بأي ظن باطل كالسراب يمنع من الالتفات إلى الآيات الإلهية . والإنصراف عن الآيات الباطنية والخارجية سبب في الحرمان من مشاهدة صاحب الآيات .

كل ما يصرف الانسان عن الله فهو من الدنيا ، وينطوي علىٰ خطر الخداع جاء في موسوعاتنا الروائية أن «رأس كل خطيئة حب الدنيا»[1] . وإذا أحب الإنسان العالم الخارجي بصفته آية إلهية فإن حبه ليس مذموماً أبداً ، لأن ذلك حب لآية الحق وليس حباً للدنيا . خلافاً لحب المال الذي عند الانسان والداعي له إلىٰ التفاخر **﴿وتحبون المال حباً جماً﴾**[2] . فالحب هنا هو حب الدنيا وهو مذموم .

يمكن فهم الفرق بين هذين الحبين من السيرة النبوية الشريفة ، فالرسول الأكرم ﷺ لم تكن له أي علاقة بالدنيا وما فيها ، وحين كان يرىٰ جبل أحد في المدينة كان يقول : «هذا جبل يحبنا ونحبه» .

---

(١) اصول الكافي ج٢ ، ص٢١٥ .

(٢) سورة الفجر ، الآية(٢٠) .

والسبب في ذلك أن الجبل آية من الآيات الإلهية وكل ما كان علامة للحق فهو جدير بالإحترام . لذا فقد كان النبي ﷺ يُسمي الأشياء التي كانت بحوزته ويرىٰ لها احتراماً كالعصا والمنشفة وأوعية الطعام وغيرها . فكان لكل منها اسم خاص وضعه لها رسول الله ﷺ .

أي أنه صلوات الله عليه كان يميز تمييزاً أساسياً بين الحقائق التكوينية التي هي آيات إلهية وبين الامور الإعتبارية المصنوعة من قبل الإنسان ونظام مواضعاته . وكان ينظر إلىٰ الآية الإلهية من زاوية التكريم أما الأمور الظنية والوهمية فكان يبعدها عن نظره .

وهذا بخلاف المختالين الفخورين الذين يعملون بعكس السنة النبوية لذا فهم محرومون من مشاهدة آيات الأنفس (الباطن) وآيات الآفاق (الخارج) وتخيلهم الساذج هذا وتفاخرهم الصبياني بمثابة سد محكم يحول دون رؤيتهم للأشياء وهو بمنزلة سلسلة ثقيلة من الأغلال توثقهم وتأسرهم بحيث لا يستطيعون النظر إلىٰ العالم الخارجي بصفته آيات الآفاق ولا في مقدورهم النظر إلى ذاتهم وخصوصياتهم الروحية والايمان بها بصفتها آيات انفسية لله .

ولكن سوف يأتي يوم يظهر فيه الله ظهوراً لا يستطيع شيء أن يمنع مشاهدته ويتجلّى بشكل لا يدع أي مجال للغموض ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق**﴾[1] ولكن الايمان غير ميسور في ذلك اليوم لأنه ليس يوم التكليف والعمل .

يقول الإمام أمير المؤمنين «عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم وحل

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .

العقود ونقض الهمم»[1] انني متىٰ ما نظرت في نفسي عرفت الله . لأنني أرىٰ أن خواطري ليست في يدي وإرادتي وقراراتي خارج تصرفي .

أعقدُ العزم علىٰ أمر معين مع نفسي ، فتمتد يد من الغيب وتحل ما عقدت . وقد أحل أمراً في داخل ذهني فتؤثر اليد الغيبية علىٰ نفسي وتغلق ذلك الأمر المحلول . إن الذي ينقض الامور المبرمة والمحكمة ويُحكم الأمور المنقوضة هو الذي يؤثر في روحي وهو الذي تخضع روحي لتدبيره .

من هنا قال رسول الله ﷺ وباقي المعصومين عليهم السلام أنه «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[2] لأن نفس الانسان آية وعلامة للحق ، أما إذا نسي الإنسان ربه نتيجة أهوائه فإن الله سيسلبه الموفقية لمعرفة نفسه ﴿**نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾[3] .

وعلىٰ كل حال فلأن الكافرين لا يرون أنفسهم إذ هم مقمحون ورؤوسهم إلىٰ الأعلىٰ إذن فهم لا يرون أنفسهم وسيأتي يوم يظهر فيه الحق بحيث يرون آيات الآفاق وآيات الأنفس ولكنهم عندها لا يوفقون للإيمان بها .

إذا نظر الانسان إلى نفسه طبقاً لما قاله الإمام علي[4] عليه السلام واطلع علىٰ بداية ونهاية جسده ، حيث أوله نطفة نجسة وآخره جيفة نتنة ، فإنه لن يتفاخر .

---

(١) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ٢٥٠ .

(٢) مائة كلمة للجاحظ .

(٣) سورة الحشر ، الآية(١٩) .

(٤) ما لابن آدم والفخر أوله نطفة وآخره جيفة . . . نهج البلاغة الكلمات القصار ٤٤٥ .

ومع إن روح الإنسان أشرف من أن تحكمها آثار المادة كالجسد ، إلاّ أن الإنسان الفاسد غافل عن روحه وناسٍ لها ، يقول الإمام أمير المؤمنين: «عجبت لمن ينشد ضالته وقد أضل نفسه فلا يطلبها»[1] .

يقول القرآن عن الذين نسوا أنفسهم ولا يفكرون إلاّ بذاتهم الطبيعية والحيوانية أنهم ـ في نفس الوقت الذي نسوا فيه أنفسهم ـ ﴿**أهمتهم أنفسهم**﴾[2] أي أنهم لا يفكرون بغير أنفسهم مما يدل علىٰ انهم نسوا الجانب الانساني من أنفسهم ولا يهتمون إلا بالجانب النباتي والحيواني منها .

يقول عز وجل في سورة الحشر؛ إن الذين نسوا الله سينسيهم الله أنفسهم ، لهذا فالكافرون أضاعوا أنفسهم ولم يُشغلوا إلاّ بنفسهم الحيوانية .

يقول في سورة يس؛ إننا جعلنا في أعناقهم أغلالاً تصل إلىٰ أذقانهم فلا يستطيعون أن يحنوا رؤوسهم ويبصروا أنفسهم . وقال في الآية المعنية من سورة فصلت؛ سوف يأتي يوم يرىٰ فيه الإنسانُ العالمَ ويرىٰ نفسه ويفهم فقره الذاتي وأنه كان يتفاخر رغم كل ما فيه من الذل والفقر والمسكنة ، لكنه لا يستطيع الايمان .

يروي المرحوم الصدوق (رض) في الخصال عن الإمام المعصوم عليه السلام قوله؛ أنه لو لم يكن في البشر ثلاث خصال لما طأطأ البشر رأسه أبداً ولم يتواضع مطلقاً ، الفقر والمرض والموت ، فلو لم تكن في

---

(١) الغرر والدرر للآمدي ، ج٤ ، الحديث ٦٢٦٦ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية(١٥٤) .

البشر هذه الخصال الثلاث لما خضع لقدرة الحق أبداً ولم يطأطأ رأسه لشيء «ما طأطأ رأسه شيء» .

فالإنسان إما أن يتفاخر بماله ومجوهراته وهذا ما يهدده الفقر ، وإما أن يتفاخر بقواه البدنية وسلامته وقدرته الجسمية وهذا ما يهدده المرض ، أو إنه يعتمد علىٰ استمراره في الحياة وهو ما يهدده الموت . يقول المعصوم أنه بالرغم من وجود هذه العوامل الثلاثة فإن الانسان يتفاخر ويتكبر ، مع ان كل ثرواته عرضة للفقر وكل طاقته وصحته وقوته عرضة للمرض ومهما طال عمره فسوف يموت ، إلّا انه متمرد وعاصي .

يقول القرآن؛ إنه سيأتي يوم يؤدي الظهور التام للحق فيه إلىٰ عجز كل الأغلال والسدود من الحيلولة دون رؤية آيات الآفاق والأنفس . ولكن ذلك لن ينفع الإنسان الكافر في شيء ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق**﴾ .

يقسّم القرآن الكريم الآيات الإلهية إلى ثلاثة أقسام ، فآيات الآفاق وآيات الأنفس ، والقسم الثالث هو الآية التي هي عين صاحب الآية . أي برؤية الله يمكن معرفة الله ، وبالتأمل في حقيقة الوجود يمكن التعرف على الله

يقول في سورة الذاريات أن الآيات الإلهية علىٰ نوعين : ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[١] أي أن آيات الله في الأرض مشهودة بلحاظ نظامها الخاص ، وأصحاب اليقين يستطيعون مشاهدة الناظم الحكيم ، وفي أنفسكم آيات للحق أفلا تبصرون؟

---

(١) سورة الذاريات ، الآيتين (٢٠ ـ ٢١) .

إنكم حينما تتدبرون في نظام أرواحكم المحير للعقول وفي النظام المختزن في أجسامكم وفي طريقة إدارة الروح للجسم ، عندما تنظرون إلىٰ ذلك الجسم المنظم وهذه الروح المجردة وتتأملون في باطن أنفسكم ، سوف تصلون إلى الله .

هنالك في سورة فصلت بالإضافة إلى آيات الآفاق والأنفس ، إشارة إلىٰ أهم طريق لمعرفة الله وهو معرفة الله بواسطة التأمل في الوجود المحض . **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾** أي أننا سنريهم آياتنا بحيث يتضح لهم أن الله حق ، وكل ما في العالم آية للحق وكل ما عدا الله باطل **﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾**[1] ما هو الفرق بين آيات الآفاق وآيات الأنفس؟ وكيف يستطيع الانسان أن يعرف الله من خلال مشاهدته لله؟ كيف يمكن بواسطة التأمل في الله أن نعرف الله؟

حالياً ليس أمامنا إلاّ الفرق الإجمالي بين هذه الطرق الثلاثة لمعرفة الله . إذا أراد الانسان أن يعرف الله بمشاهدة آيات الآفاق والعالم الخارجي فإن تفكيره تفكير عقلي ، وفي ذلك السلوك الفكري يكون الطريق والسائر والهدف أشياء منفصلة عن بعضها . الطريق هو التفكير في الآيات الخارجية والسائر هو الإنسان المفكر والهدف هو معرفة الله سبحانه . ومع أنه يمكن العثور علىٰ علاقة غير منفصمة بين هذه الأمور الثلاثة من الناحية الوجودية ، ولكنها من حيث جهات المفهوم والعناوين الإبتدائية منفصلة عن بعضها تماماً .

---

(١) سورة لقمان ، الآية(٣٠) .

وإذا أراد الانسان أن يعرف الله بواسطة الطريق الثاني أي طريق مشاهدة آيات الأنفس ومعرفة الإنسان فإن له تفكير عقلي وسلوك فكري يكون فيه الطريق عين السائر مع انهما منفصلان عن الهدف ، لأن ذلك المفكر يتحرك داخل نفسه ، من هنا فإن السالك عين المسلك .

بينما إذا أراد الانسان أن يعرف الله بالطريق الثالث أي بالتأمل في الله . فإن له تفكير عقلي وسلوك فكري يكون فيه الطريق عين الهدف مع إنهما منفصلان عن السالك ، في هذه الحالة الصراط والهدف شيءٌ واحد والسائر شيء آخر ، لكن السائر لن يرى نفسه .

وعدم الرؤية هذا يختلف عن النسيان والغفلة عن الذات ، بل إنه الفناء وهو الأسمىٰ من كل رؤية وإلتفات إلىٰ النفس لأنه لا يرىٰ غير الله وبرؤية الله سوف يعرفه ، ثم ينظر إلىٰ العالم والانسان بتلك النظرة .

جاء في بعض موسوعاتنا الروائية[1] أن الانسان يستطيع أن يعرف الله بمشاهدته إياه بعد ذلك يُشار إلىٰ الآية القرآنية كتنبيه لتوضيح القضية ، وخلاصتها أن أخوة يوسف حين جاؤوا زمان القحط والغلاء من كنعان إلىٰ مصر وكانوا يكلمون يوسف إلاّ انهم لم يعرفوه ، وبعد عدة مرات من ذهابهم وإيابهم وبعد أن تمعنوا فيه جيداً ، عرفوا أنه يوسف ، إنهم أخيراً عرفوا يوسف من جمال يوسف . ولم يسألوا أحداً مَن هذا؟

لم يسألوا أحداً من هو يوسف؟ ولم يسألوا أحداً من هو هذا الشخص الجميل؟ ليُجابوا أنه يوسف . بل قد رأوه نفسه وعرفوا أنه يوسف ، عرفوه بالتأمل في جماله وبمشاهدة وجهه وقالوا ﴿إنك لأنت

(١) تحف العقول ، كلامه (أي الصادق عليه السلام) في وصف المحبة ، ص٣٢٨ .

يوسف﴾[1] .

عرفوا الـ«أنت» أولاً ، ثم عرفوا يوسف ، ولم يقولوا يوسف أنت بل قالوا أنت يوسف؟

عرفوا يوسف من الـ «الأنت» ، كما إن العارفين يتوصلون بواسطة الـ«هو» إلى «الله» كقوله **﴿هو الله أحد﴾**[2] عرفوه بواسطة نفسه . إن الذي «دل علىٰ ذاته بذاته» تمكن معرفته بمشاهدته ، بالتأمل في حقيقة الوجود يتوصل إلىٰ الواجب .

هنالك يكون الطريق والهدف شيء واحد ، أما السالك فهو فانٍ في جمال الله . كما إن إخوة يوسف عرفوا أخاهم بمشاهدته ، فإن العارف الشاهد يكتشف الله بمشاهدة جمال وجلال الحق . هذا هو الطريق الثالث وهو طريق العارفين أما الطريق الأول والثاني فهو للمفكرين التقليديين أو المتعمقين .

وعلى كل حال فمن لم يسلك أياً من هذه الطرق الثلاثة في الدنيا سوف يأتي زمان يظهر فيه الحق سبحانه بصورة تامة وبذلك يشهد ذلك الإنسان كل الآيات الإلهية ويتضح له أن الله هو الحق المحض ، وفوق كل هذا سيتضح له أن الله كافٍ للتعرف على الله ، فهو عز وجل مشهود قبل كل شيء ، فالعارف يرىٰ الله قبل أن يرىٰ العالم ، والسالك يرىٰ الله قبل أن يرىٰ نفسه ، أوليس الإنسان والعالم كلها آيات للحق ؟!

ذكرنا في المحاضرة الماضية أن العلامات والآيات تتوزع علىٰ عدة

---

(١) سورة يوسف ، الآية(٩٠) .

(٢) سورة التوحيد ، الآية(١) .

أقسام؛ فبعض العلامات والآيات وضعية وتعاقدية ، فمثلاً العَلَم الفلاني يدل علىٰ البلد الفلاني ، أو أن المعدن الفلاني إذا وُجِدَ على كتف شخص من الجيش فإنه يدل علىٰ التربية الفلانية ، هذه هي الآيات والعلامات الوضعية ولكل بلد ومنطقة علامات إعتبارية ووضعية خاصة .

ثمة سلسلة من الآيات والعلامات ليست وضعية بل هي تكوينية ، ولكنها مقطعية ومؤقتة ، فمثلاً الخصب علامة لوجود الماء ، ولكنه ما دام أخضر فهو علامة للماء ، أما حين يذبل ويموت فلا يعتبر علامة للماء ، الشجرة ما دامت فرعاء وخضراء فهي علامة للماء ، أما حين تصبح حطباً فلا تدل علىٰ الماء . أعمدة الدخان علامة النار ولكنها حين تتحول إلىٰ هواء فلا تُعدُّ علامة للنار . هذه آيات تكوينية ولكنها مقطعية ، أي محدودة بحدود معينة ، إنها آية وعلامة ولكنها في حدود أخرىٰ ليست آية ولا علامة .

أما العالم والإنسان اللذان هما آيات إلهية ، فليست صفة الآية فيهما صفة وضعية أو إعتبارية ، بل هي صفة حقيقية وتكوينية وهي دائمة وأبدية وليست مقطعية وموسمية .

لأن أي موجود في أي حال ومقطع هو فقير بذاته وهو بكامل وجوده عين الارتباط بالله سبحانه كذلك كان ويكون وسيكون ، إذن فهو في كل المقاطع والحالات علامة الحق .

كما إن باطن كل إسان علامة للخالق ، فإن خارجه أيضاً آية لواهب الوجود بدايته وهو موجود علامة علىٰ واهب الوجود ونهايته وهو موجود علامة علىٰ واهب الوجود . إذن فأوله وآخره وظاهره وباطنه وماضيه ومستقبله كلها وكلها علامة الحق وعليه لا يبقىٰ شيءٌ للعالم والإنسان ليس

من هذه الناحية علامة لله ، ومن المستحيل أن لا يكون الموجود آية إلهية من بعض الجهات . لأن كل ما هو موجود ولو كان وجوده رقيقاً وضعيفاً ، فهو آية وعلامة إلهية .

والقرآن الكريم يعتبر كل شيء آية للحق . فظلام الليل كضياء النهار آية إلهية . ظلام الليل ظل خاص وهو آية لله **﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾**[1] .

ليس في العالم شيء لا يعتبر آية لله أو أنه في أحد أبعاده أو صفاته لبس علامة لله .

إن الإنسان الذي أحاط به السد من أمامه وخلفه وأمسك غل الغفلة بعنقه ، لا يبصر نفسه ولا العالم ، إنه لا يرىٰ إلاّ ما بين هذين السدين والغل من أوهام نسجها لنفسه . إنه غافل عن الآيات الإلهية وعند الموت والبرزخ والقيامة وبسبب ارتفاع كل الموانع سيرىٰ الانسان الآيات الإلهية من الداخل والخارج بكل وضوح ، وعندها سيتبين له أن الله حق ، وأن ما كان يعتقده خيال باطل . سيفهم أن الحق المحض هو الله والله هو الحق الصرف ولكنه عاجز عن الإيمان به .

إنَّ أمرَّ لحظة بالنسبة للإنسان المفسد هي لحظة الموت ، حين يفهم الحق ويرىٰ كامل وجوده بحاجة إلىٰ الحق ولكنه لا يستطيع الإيمان به **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾** أي العالم الخارجي **﴿وفي أنفسهم﴾** أي العالم الباطني **﴿حتىٰ يتبين لهم أنه الحق﴾** وضمير إنه يعود حسب الظاهر علىٰ الله ، مع انه جاء في تفسير الميزان القيم أن الضمير يعود علىٰ القرآن أي ليتضح

---

(١) سورة الإسراء ، الآية(١٢) .

لهم أن الوحي القرآني حق ، لأن سياق الآيات ذو علاقة بالقرآن ، ولكنه ذكر الرأي الثاني أيضاً . القائل أنه من الممكن أن يعود الضمير في «إنه» علىٰ الله بشهادة ذيل الآية والآية اللاحقة . وعلىٰ كل حال يتضح لهم أن الله حق ، ويومئذ لا يستطيعون الإيمان .

كما إنه لا توجد لحظة أعذب بالنسبة للإنسان المستقيم من لحظة الموت ، فإنه لا توجد لحظة أسوأ بالنسبة للإنسان الفاسد الكافر من لحظة الموت ، فهي طامته الكبرىٰ ، لأنه سيفهم فجأة أنه كان غارقاً في السراب وسابحاً في الخيال ومُعرِضاً عن كل ما هو حق .

شأنه شأن الظامىء الذي يركض بسرعة نحو إحدىٰ الإتجاهات ويرىٰ فجأة أنْ ليس هناك ماء بل هو مجرد سراب ولم تعد لديه أية مقدرة ليغير مسيره ويعود إلى حاله الأولىٰ وما زال العطش ينخر فيه ، ولكن لا سبيل له إلىٰ عين الماء ولا قدرة لديه للوصول إليها ولا هذا العطش مما يرتفع .

حينما يموت الإنسان الكافر ، تبقىٰ أوهامه الباطلة معه ولكن متعلقات هذه الأوهام تزول عنه . كالإنسان المدمن إذ يبقىٰ إدمانه علىٰ حاله ولكن المخدرات تُسلب منه ، فإنه في هذه الحالة سيعذب عذاباً شديداً . أما الذين أبصروا الحق وساروا نحوه فليست هنالك لحظة أعذب وأعز بالنسبة لهم من لحظة الموت ﴿**طوبىٰ لهم وحسن مآب**﴾[1] .

نقسم علىٰ الله ببركة القرآن الكريم أن يجعلنا يقظين ، ويوفق الجميع

---

(١) سورة الرعد ، الآية(٢٩) .

لادراك المعـارف ويجعـل قلـوبنـا جميعـاً أوعيـة لمعـارف القـرآن الكـريـم وأحـاديـث الأوليـاء الإلهييـن . وأن يـوفـق الجميـع إلـىٰ أداء واجبـاتهـم الإسلامية .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدرس الحادي عشر

موانع شهود الوجود المحض

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث في المضمون المشترك للسور السبع التي بدايتها (حم) . وهي السور المعروفة باسم (الحواميم السبع) . أهم مضمون مشترك لهذه السور السبع هو بيان أصل الوحي وبيان بداية الوحي وشرح ما جاء به الوحي . والتوحيد هو من أهم ما جاء به الوحي . وقد بيّن التوحيد في كل القرآن بشكل عام ، وفي هذه السور السبع بشكل خاص بادلة متنوعة .

في سورة (فصلت) وهي من الحواميم السبع ، ذكرت ثلاثة أدلة على التوحيد ، والجمع بين هذه الطرق الثلاثة ممكن للانسان الكامل ، لأنه يمكن أن يستطيع الانسان الجامع للكمالات معرفة الله بثلاثة طرق، ولكن البعض ينتفع بمعرفة الله بطريق واحد فقط بينما ينال البعض معرفة الله

بطريقين .

إن هذه الطرق ليست في عرض بعضها بل في طول بعضها ، وسلوك هذه الطرق ليس متساوياً ، فبعضها صعب وبعضها سهل ، ونتيجة هذه الطرق ليست واحدة ، بل نتيجة سلوك بعض هذه الطرق هي معرفة سطحية بينما سلوك بعض الطرق الاخرى معرفة نهائية وعميقة ، طبعاً بالمقدار الممكن للبشرية .

وكما قد بيّنا في البحوث السابقة فإن اصل معرفة الله سبحانه تكون بالدليل وفي كل استدلال تطرح ثلاثة أمور ، احدها الدليل الذي يستدل بواسطته ، والآخر المدلول الذي يتم الوصول إليه بواسطة الدليل والثالث المستدل الذي يصل الغرض بالاستدلال والتفكير .

إذن اركان الاستدلال هي؛ المستدل والدليل والغرض ، وبتعبير آخر السالك ، المسلك ، المسلوك إليه ، وتطرح هذه الثلاثة في كل استدلال ، إلا أن الاستدلالات تختلف فيما بينها .

تارة تمتاز هذه الأمور الثلاثة عن بعضها مصداقاً ، مثلما هي منفصلة عن بعضها البعض مفهوماً ، وتارة يتحد إثنان من هذه الأمور الثلاثة ، فمثلاً احياناً يكون المستدل والدليل واحداً ، أي يكون المسلك والسالك واحد ، وتارة يكون الدليل والمدلول واحداً ، أي يتحد الطريق مع الهدف .

في الاستدلال بالآيات الآفاقية ، حيث يتعرف الانسان إلى الله من خلال مطالعة أسرار الكون والعالم خارج النفس ، تكون الامور الثلاثة منفصلة عن بعضها الآخر فالانسان السالك هذا الطريق هو المستدل ، ومشاهدة الآيات ودراسة حاجة العالم الخارجي إلى مبدأ الحدوث هي

الطريق ، ومعرفة الواجب تعالى وهو خالق الكل ،هي الهدف فهنا السالك منفصل عن الطريق والطريق منفصل عن الهدف .

تارة يدرك الانسان مبدأ الوجود من خلال معرفة نفسه ، وليس من خلال مطالعة العالم الخارجي ، بل يعرف مبدأ الخلق بمطالعة داخله ويصل إلى معرفة الله سبحانه عن طريق معرفة النفس . هنا يكون السالك والمفكر وهو الانسان متحداً بالطريق وغير منفصل عنه . والهدف هو معرفة الله . في هذا القسم يكون السالك والمسلك عين بعضهما . والهدف الذي هو معرفة الله منفصل عنهما (من عرف نفسه فقد عرف ربه)[1] فهنا يفكر العارف الذي هو الانسان في نفسه ويصل إلى الله عن طريق معرفة النفس .

القسم الثالث هو التوحد إلى معرفة الواجب بالتأمل في حقيقة الوجود ، فيدرك بدراسة تلك الحقيقة الشاملة الموجودة في كل مكان والتي لم تحل في أي شيء ، يدرك بدراسة الحقيقة التي هي ﴿**بكل شيء محيط**﴾[2] ، إن تلك الحقيقة هي واجب الوجود وهي الله . في هذا القسم يكون الانسان هو السالك ولكن الطريق هو نفس الهدف ، أي يتوصل إلى ذات الواجب بمطالعة ومشاهدة حقيقة الواجب فالسالك هو الانسان الذي يعرف الله تعالى ، بالسير الشهودي في الوجود المحض ، لا أنه يدرك وجود الله سبحانه ، من التفكير في غير الله .

هذه الانماط الثلاثة من الاستدلال علمنا اياها القرآن الكريم في سورة فصلت . قال: ﴿**سنريهم آياتنا في الافاق**﴾[3] الطريق الأول ، ﴿**وفي**

---

(١) مئة حكمة للجاحظ .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٥٤) .

(٣) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .

أنفسهم﴾[1] الطريق الثاني **﴿حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾**[2] الطريق الثالث حيث في هذا القسم ليست هناك حاجة إلى الآيات الآفاقية أو الآيات الانفسية بل يكفي التدبر في الوجود الصرف لمعرفة الله تعالى .

في القسم الأول حيث تكون الآيات الآفاقية محور للتفكر ، إذا درسها الانسان بدقة يدرك أن لها خالقاً حكيماً ومدبراً ، لأن جميع الكائنات في العالم هي ذاتاً آية لذات الله الغنية . الكل مرآة تبين الله تعالى ، وقد ذكرنا بعض المسائل ، في معنى الآية وأن الآية والعلامة تكون تارة اعتبارية ، وتارة تكوينية ، وإذا كانت تكوينية فهي أحياناً مؤقتة ومحدودة واحياناً دائمة ، واتضح أن جميع الكائنات في العالم في جميع الشؤون هي مرآة ، ولا يمكن أن يوجد في العالم كائن مستقل في شأن من شؤون وجوده ولا يدل على الله سبحانه من تلك الناحية .

لأنه إذا لم يدل كائن ما على الله من جهة ما فذلك يعني انه ليس آية الله من تلك الجهة وانه مستقل ، بينما كل كائن يحتاج إلى الله من كل جهة ، ويدل على ذات الله . وإذا درس شخص اسرار عالم الوجود وكان مصاناً في هذا التدبر من كل اشكال العصبية ولم يترك الانصاف ، فإنه يدرك وجود مبدأ الخلق يقيناً وقد بيّن القرآن الكريم أيضاً هذا الطريق في موارد كثيرة وفي هذا الاستدلال يكون الطريق والسالك والهدف منفصلين عن بعضهم الآخر .

وفي القسم الثاني حيث الآيات الانفسية هي محور التفكر ، لو نظر

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .

شخص إلى داخله ، يرىٰ أنه غير مستقل في أعماله وذلك لأنه يمتلك نفساً وللنفس صفات وملكات ولديه خواطر وارادة وكراهة وتصميمات وندم وحب وبغض وامثال ذلك .

فهو مرة يقرر امراً ثم ينقضه ، يقرر لعاملٍ ما وينقض لعامل آخر . يعتقد بمسألة ثم تنحل عقيدته ، وسيتضح له أن صفحة نفسه ليست تحت تصرف النفس ، بل هي مرتبطة بمبدأ آخر وارادة ذلك المبدأ مؤثرة في وضع النفس ، لذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه أفضل صلوات المصلين ـ : (عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم)[1] .

هذه الطرق هي دليل على نفوذ القدرة الالهية في النفس . وقد عرفت الله من هذه الطرق . ولو درس شخص نفسه وخاطراته جيداً فانه يعرف الله عن هذا الطريق . والسالك هو نفس الطريق في هذا القسم .

النفس التي تفكر في ذاتها وتسافر في ذاتها وليس في الخارج ، تعرف ربها بمعرفة ذاتها .

وهذا هو مضمون تعبير ﴿وفي انفسهم﴾ والذي هو القسم الثاني من الاستدلال . وهذان الطريقان وخاصة الطريق الأول يمكن سلوكهما لاكثرية الناس .

أما الانسان الذي لا يستفيد من مجاري ادراكه ، فهو لا يرى العالم بشكل صحيح حتى يعرف خالق الكون من خلال دراسة الكون ، ولا يعرف نفسه فيعرف خالقه من خلال معرفة نفسه . وهذه الطائفة لا تستفيد من آيات الآفاق كما أنها محرومة أيضاً من آيات الانفس ، وقد كان التعبير الذي ورد

---

(١) نهج البلاغة . صبحي الصالح ، الحكمة ٢٥٠ .

عن هذه الطائفة في سورة (يس) هو قوله: ﴿**إنا جعلنا في اعناقهم اغلالاً فهي إلى الاذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾[1] . القرآن يقول ان الاشخاص الفاسقين يشبهون الذين في اعناقهم اغلالا إلى الاذقان فلا يتمكنون أبداً من أن يحركوا رؤوسهم وينزلونها ، وعلى هذا لا يستطيعون أن يروا أنفسهم وهذه كناية عن انهم لن يستفيدوا من طريق معرفة النفس ، لأنهم لا يرون أنفسهم ولا ينظرون إلى ذواتهم ولا يشاهدون باطنهم .

إذا كان رأس الانسان إلى الهواء فإنه لا يرى نفسه ولأنه لا يرى نفسه فهو لا يتمكن من معرفة الله عن طريق معرفة النفس ، وبناء على هذا فإن سلوك الطريق الذي يكون نفس السالك ، ليس سهلاً على هؤلاء .

ثم يقول بأنه على الرغم من أن رؤوسهم هي إلى الهواء وهم محرومون من شهود ذواتهم ، لكنهم لا يرون العالم الخارجي أيضاً لأن هناك سداً عميقاً بُني بين عيونهم والعالم الخارجي ، أي انهم لا يرون مكاناً . لا يعرفون ما وراء ظهورهم لا يعرفون الماضي ، ولا هم يعلمون عن المستقبل ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدا**﴾ .

وعلى هذا فهم عمي . لا يرون العالم ولأنهم لا يرون العالم لا يتمكنون من الاستدلال عن طريق الآيات الآفاقية . لا يستطيعون معرفة خالق العالم من خلال مشاهدة الآيات في الخارج فيستفيدوا من الطريق الذي يكون سالكه مغايراً للطريق والهدف والذي هو طريق عام ، لأن امامهم سداً وخلفهم سداً فلا يرون أي مكان . لا هم يرون انفسهم لأن رؤوسهم إلى

---

(١) سورة يس ، الآيتين(٨ و٩) .

الهواء ، ولا هم يرون العالم الخارجي لأن أمام عيونهم سدا .

وفي سورة (فصلت) ذكر انه سيأتي يوم تنهار فيه جميع هذه السلاسل والسدود يأتي يوم لا يكون في عنق الانسان سلاسل تمنعه من رؤية نفسه ، ولا يكون هناك سداً أمامه يمنعه من أن يرى اسرار العالم . **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾** أي نحطم هذه السدود حتى يرى جيداً حقيقة العالم . **﴿وفي أنفسهم﴾** أي نرفع هذه السلاسل حتى يحني رأسه وينظر إلى نفسه ، في ذلك اليوم يرى نفسه ويرى العالم ويتضح له (أنه الحق) . إن الله كان حقاً وأن الله الواحد كان يدير كل الأمور . لكن الانسان الغافل عن مشاهدة الربوبية المطلقة لله سبحانه كان محروماً وكان ينسب عمل الله إلى غيره ، لأن الوثنيين يعترفون يوم القيامة هكذا : **﴿إذ نسويكم برب العالمين﴾**[1] أي كنا نساوي بين الأوثان ورب العالمين .

واما الطريق الثالث والذي يكون فيه السالك غير الطريق المستقيم ولكن الطريق هو ذات الهدف ، فهو أن تتم معرفة ذات الواجب تعالى بدراسة حقيقة الوجود الصرف ، وقد بيّن ذلك في الجملة الثالثة ، فقال : **﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾** ، وبما أن الله سبحانه هو مشهود محض وهو معلوم ومعروف قبل أي شيء وهو ذاته كاف للمعرفة ، فلا حاجة إلى الله ، سواء كانت آيات خارجية أو آيات داخلية .

مثلا ، حين يشاهد الانسان البحر يتيقن بوجود الماء ولا حاجة إلى معرفة وجود الماء بمشاهدة النباتات الخضراء ، ولكن من اللازم أن ينظر إلى البحر جيداً ولا يغفل عن شهوده لكي يستغني عن التدبر في المزرعة

---

(١) سورة الشعراء ، الآية(٩٨) .

الخضراء أو الحديقة المزهرة ، ويحصل اليقين بوجود الماء من خلال مشاهدته دون أن تكون هناك حاجة للبحث والتفحص ولا يكون توصله إلى وجود الماء من طريق غير الماء ، لأنه يجب أن لا يحال الشخص الموجود على شاطىء البحر إلى التدبر في النباتات ، ويقال له اعرف وجود الماء عن طريق التدبر في خضرة النباتات .

يقول القرآن الكريم ، بأنه ليست هناك حاجة إلى التدبر في آيات الآفاق أو آيات الانفس ، لمعرفة الله سبحانه **﴿أو لم يكف بربك﴾** ، بل إذا أردت معرفة الله ، فاعرفه بمشاهدة الحقيقة المشهودة قبل كل شيء والمعروفة قبل أي معلوم . **﴿إنه على كل شيء شهيد﴾** إنه مشهود كل الامكنة ومشهود الجميع . إذا أردتم أن ترون أي شيء ، فشاهدوا الله أولاً ثم ذلك الشيء . وإذا كانت تلك الحقيقة غير محدودة وحاضرة في كل مكان وليس هناك مكان يخلو منها ، فالله هو المشهود فوق كل شيء .

إذا كان الله (هو في الأشياء على غير ممازجة ، خارج منها على غير مباينة)[1] إذن كل شيء نعرفه ، نعرف الله أولاً ثم ذلك الشيء ، لأنه المشهود الذي فوق كل شيء ومن ثم يمكن التوصل إليه بالتأمل فيه ، وهذا الطريق كاف .

إلا أن قطع هذا الطريق يكون ممكناً للشخص الذي يستطيع أن يرى تلك الحقيقة الصرف ، والشخص الذي يستطيع الانتفاع من عينه واذنه وقلبه . أما إذا كانت عين وأذن وقلب الانسان مختومة فإنه لا يسير **﴿ألا انهم في مرية من لقاء ربهم﴾**[2] وسبب عدم انتفاعهم هو أنهم في ترديد ،

(١) توحيد الصدوق ، ص٣٠٦ .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٥٤) .

والانسان المتردد لا يسير في طريق أبداً الانسان الذي ضل الطريق ، يذهب مرة نحو هذا الاتجاه ، فيرى انه ليس هناك من طريق فيعود ويذهب نحو اتجاه آخر ، فيرى أن ليس ثمة طريق فيعود مرة ثانية هذا الرد المتكرر يقال له (ترديد) والشخص الذي في حال الترديد والشك لا يصل إلى الهدف . ولا يقطع الطريق إلا المسير المستقيم وهو يقترب إلى الهدف بمقدار قطعه .

القرآن الكريم يبين أن هؤلاء لا يسيرون لانهم في شك ، لا يسيرون في آيات الافاق حتى يروا مبدأ الخلق ، ولا يسيرون في آيات الانفس حتى يشاهدوه ولا يتدبرون في حقيقة الوجود الصرف حتى يلاقوا الله ، انهم يشكون في التوحيد الربوبي ، ويترددون في التوحيد العبادي ، ويشكون في لقاء الله بعد الموت ، والانسان الذي يكون في شك لا يرى الحق أبداً .

إن الشك كمثل الوقوف والجمود واليقين وحده الذي يوصل الانسان إلى الهدف لأنه تفكير وسير باتجاه الهدف . والانسان إذا فكر بشأن الظواهر وتدبر في كيفية حصول الشيء الذي وجوده ليس عين ذاته وأي موجود اعطاه الوجود؟ وإذا كان ذلك الموجود فاقداً ذاتاً للوجود ، فكيف يكون معطياً الوجود للغير؟ فمن المؤكد أن يدرك وجود المبدأ بالذات .

وكذلك إذا نظر إلى نفسه يرى أنه ليس مستقلاً في خاطرات النفس وتحولات الروح المتنوعة ، بل مستند إلى المبدأ الذي يعرف الاسرار الخفية ، والخبير والبصير في تحويل الافكار وتبديل الارادات وتغيير الخاطرات والقرارات ، ولا يكون لديه أي ترديد في هذا الصدد .

﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ . إذا كان الله حقيقة غير محدودة ، فإنه لا يخرج عن احاطته أي شيء أبداً ، وإذا وصلنا إلى تلك الحقيقة اللامتناهية لا

يتضح أنها ليست مستورة ابداً فحسب بل وإن كل شيء نشاهده بواسطتها ، لذا قال الإمام الصادق عليه السلام : (لا يدرك مخلوق شيئاً إلا بالله)[1] ، أي أنه يرى النور الالهي أولاً ، وفي ظل ذلك النور الذي هو **﴿نور السماوات والأرض﴾** يشاهد الكائنات ، فإذا لم يشاهد **﴿نور السماوات والأرض﴾** أولا ، فكيف يرى السماوات أو الأرض ، حتى يعرف بوجود الله تعالى بالتدبر فيها .

ويصر البعض على عدم الايمان ما لم يروا الله أو الملائكة . وقد أجيبوا بأن الله غير مرئي ، لكنهم سيرون الملائكة يوماً ، وهو يوم مر جداً بالنسبة لهم **﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا﴾**[2] . إن الذين لم يكن لديهم أمل بلقاء الله ، ولم يكونوا معتقدين أن بالامكان لقاء الله في الدنيا بعين القلب وقوة الايمان ، ومعرفة الله بشكل أكمل عن طريق لقائه ، ولم يعتقدوا بالقيامة وان بالامكان نيل لقاء الله بعد الموت ، بل كانوا يتصورون أن معيار المعرفة هو الحس الظاهر فقط ، كانوا يقولون : **﴿لولا انزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾**[3] .

وقد قال القرآن بشأن هذا الاقتراح : **﴿لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتواً كبيرا﴾**[4] . إن الملائكة تنزل على الانبياء وليس على الاشخاص العاديين وذات الاله المقدسة منزهة عن أن تشاهد بالعين الظاهرة .

وحول رؤية الملائكة ذكر انه سيأتي يوم يرون الملائكة ولكن ذلك

---

(١) توحيد الصدوق ، ص١٤٣ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية(٢٢) .
(٣) سورة الفرقان، الآية(٢١) .
(٤) سورة الفرقان، الآية(٢١) .

اليوم صعب جداً بالنسبة لهم وهو يوم الانتقال من عالم الطبيعة إلى عالم آخر .

في ذلك اليوم ، يرى المؤمنون الملائكة ، وكذلك الكفار وذوي التفكير السيّيء . وعلى هذا فإن الجواب على قول الذين قالوا لماذا لا تنزل علينا الملائكة ولماذا لا نرى الله؟ هو أن الله سبحانه لا يشاهد ابداً ، لا بالعين الحسية والدنيوية ولا بالعين البرزخية ، لأنه منزه عن التمثل البرزخي .

أما الملائكة ، فهم وان لم يشاهدوا بالعين الحسية ، لكنهم يشاهدون حين الموت بالتمثل البرزخي ، لكن مشاهدتهم مؤلمة بالنسبة للفاسقين .

والخلاصة ، إذا لم يسوِّد الانسان وجه فطرته بالذنب ، فإنه يستطيع معرفة المبدأ بالذات من آيات الآفاق أو الانفس أو ما هو أرقى من هذه كلها ، وهي مشاهدة حقيقة الوجود ولكنه محروم من مشاهدة الحق نتيجة اصابته بالترديد الناجم عن الفساد ، وسر احاطة الله سبحانه بكل شيء هو أن الله تعالى حقيقة غير محدودة وهذا اللا انتهاء يستلزم أن لا يخرج شيء عن احاطته ، وإذا لم يكن له احاطة بشيء أو بشأن من الشؤون ، فإنه يكون محدوداً وإذا كانت ذاته محدودة فإن جميع اوصافه الذاتية تكون محدودة وهذا لا ينسجم مع الضرورة الازلية .

لذا قال في آخر الآية موضع البحث : ﴿**إنه بكل شيء محيط**﴾ ، والاحاطة المطلقة لله سبحانه بجميع الاشياء تستلزم أن يعرف الانسان الله قبل أن يعرف نفسه ، ويعرف الله قبل أن يفهم الدليل والاستدلال ويدرس كيفية التفكير ، لكنه غافل عن هذه المعرفة الشاملة والواضحة .

هناك احاديث لكل من أمير المؤمنين وسيد الشهداء والإمام زين

العابدين ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ تخبر كلها عن حقيقة قرآنية .

في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام تعابير بانه عرف الله بالله ، أو انه يرى الله بعين القلب . مثل : (يا من دل على ذاته بذاته)[1] ، وفي كلمات سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة في القسم الذي ذكره المرحوم السيد ابن طاووس ـ رضوان الله عليه ـ جاء : (الهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار)[2] . إن الشخص الذي يقف عند حافة بحر واسع يجب أن لا يحال إلى دراسة البستان والحديقة . يجب أن لا يقال له انظر إلى هذه الاشجار واعرف وجود الماء من اخضرارها ، لأن دراسة الاشجار يبعده عن مشاهدة البحر الواسع .

الإمام الحسين عليه السلام يقول بأن سيره في آيات الله يبعده عن الله ، يدعو الله أن يرجعه إليه ولا يحوله إلى آياته .

(كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك)[3] ، لأنه كما أن وجوده تابع لك ، كذلك دلالته تابعة لدلالتك .

(أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك)[4] .

(عميت عين لا تراك عليها رقيبا)[5] .

(متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل

---

(١) مفاتيح الجنان ، دعاء الصباح .
(٢) مفاتيح الجنان دعاء عرفة .
(٣) مفاتيح الجنان، دعاء عرفة .
(٤) مفاتيح الجنان دعاء عرفة .
(٥) مفاتيح الجنان ، دعاء عرفة .

عليك)[1] .

الخلاصة أن دعاء الإمام هو أننا ننظر إلى نفس الله ونعرفه .

وفي كلام للإمام السجاد عليه السلام في اسحار شهر رمضان المبارك في دعاء أبو حمزة الثمالي: (بك عرفتك وأنت دللتني عليك)[2] . وهو يشبه التعبير الذي ورد في تحف العقول[3] في أن اخوة يوسف عرفوا يوسف بمشاهدة جمال يوسف ، لم يسألوا احداً من هو يوسف؟ لم يعرفوه من العلامات ، بل عرفوا يوسف من مشاهدة جمال يوسف **﴿ءانك لأنت يوسف﴾**[4] ، فقد عرفوا يوسف من (أنت) ولم يعرفوه من (هو) . لم يعرفوا يوسف من الغير ، بل رأوه وعرفوه .

ثم يقول: (. . . وأن الراحل إليك قريب المسافة)[5] ، أي أنك قريب ولست بعيدا . ليس هناك ستار بينك وبين الانسان ، ليس هناك فصل ولا حجب بينك وبين عبدك لست بعيداً ولست محجوباً بل قريب وليس ثمة حجاب . (إلا أن تحجبهم الاعمال دونك)[6] .

إن التكبر وحب النفس حجاب ، وحجاب التكبر والمعصية هو الذي لا يدَع الانسان يشاهد الله سبحانه قريباً ومصاناً من الحجاب . إن الحجاب بين العبد والمولى هو تكبر العبد ، وهو معلق امام عين العبد الفاسق وليس امام الحقيقة . لذا قال: **﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم**

---

(١) مفاتيح الجنان ، دعاء عرفة .
(٢) مفاتيح الجنان ، دعاء أبو حمزة الثمالي .
(٣) ص٣٢٨ .
(٤) سورة يوسف ، الآية(٩٠) .
(٥) مفاتيح الجنان ، دعاء أبو حمزة الثمالي .
(٦) مفاتيح الجنان ، دعاء أبو حمزة الثمالي .

حديد﴾[1] . أي كشفنا غطاء الغفلة هذا الذي كان أمام عينك ، إذ ليس هناك غطاء فوق آيات الآفاق او آيات الانفس أو فوق حقيقة الوجود المحض .

شعر : «ليس للجمال حجاب سوى صفات الجلال فليس على هذا الخد نقاب ولا على هذا اللب من قشر» .

نرجوا الله تعالى أن يرحم الجميع بتوفيق نيل افضل نعمة الهية وهي لقاء الله في الدنيا والبرزخ والقيامة .

وان يرحم اساتذتنا ومعلمينا ومؤلفي العلوم الالهية وان يجعل قلوبنا جميعاً وعاء لمعارف القرآن الكريم وكلام الانبياء والاولياء عليهم السلام .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة ق ، الآية(٢٢) .

الدرس الثاني عشر

كفاية الله سبحانه في جميع حاجات العباد

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الاوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث في المضمون المشترك للسور السبع التي تقع في بدايتها كلمة (حم) . واهم مضمون مشترك لهذه السور السبع هو بيان اصل الوحي وضرورة الوحي وشرح ما جاء به الوحي . واهم ما جاء به الوحي هي اصول ومعارف الدين ، أي التوحيد والنبوة والمعاد . لذا كان الكلام حول هذه الاصول الثلاثة اكثر من أية مسألة؛ معرفة الله ، ضرورة الرجوع إلى الله وضرورة الوحي والرسالة التي هي هداية الهية .

وقد قدمت سورة (حم فصلت) ثلاثة طرق بشأن معرفة الله ، احدهما طريق الآيات الآفاقية ، والآخر طريق الآيات الانفسية ، والثالث طريق مشاهدة حقيقة الواجب من المشاهدة والتدبر في نفس الواجب إذ تارة يعرف

الانسان ، الله عن طريق معرفة العالم ، والرؤية الكونية . وتارة يعرف الله عن طريق معرفة الانسان ومعرفة النفس ، وتارة يعرف الله بالله ، يعرف الله بمشاهدة ذات الحق ، يدرك الله من نفس الله لا من آثار الله ولا يتوصل إلى خالق العالم عن طريق العالم . ولا يدرك خالق الانسان عن طريق الانسان ، بل يعرف الله عن طريق الله ذاته وهذا هو طريق الاوحدين من النار ، وليس بالطريق الذي يسهل قطعه على الاشخاص العاديين ، ليس بالطريق الذي يطويه الناس السالكون بسهولة بل هو من نصيب الانسان الممتاز الذي هو افضل من ذلك الذي يعرف الله عن طريق غير الله .

هذه الطرق الثلاثة ، عرضت في ختام سورة (حم فصلت) اصل الآية الكريمة كان قوله : **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق﴾**[1] .

الطريق الثالث ، هو طريق معرفة الله عن طريق الله **﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾**[2] ، أفلا يمكن معرفة الله سبحانه بمشاهدة الوجود المحض؟ هل من اللازم لمعرفة الله ، ادراكه عن طريق غير الله في حين أنه شاهد كل شيء ومشهود قبل كل شيء .

إن القرآن الكريم ، علّم الحكماء الالهيين ، هذه الطرق الثلاثة ، ومن هنا نظمت ثلاثة طرق لمعرفة الله في الحكمة المتعالية . احداها طريق الرؤية الكونية الذي يكون فيه السالك والطريق والهدف منفصلة عن بعضها الآخر ، لأن الانسان الذي يتوصل في هذا التفكير إلى خالق العالم عن طريق مطالعة أسرار العالم يكون سالكاً لطريق فكري والتدبر في اسرار العالم ، هو

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .

طريق ، ومعرفة الله سبحانه هدف ، وهذه المسائل الثلاث متميزة عن بعضها الآخر ، السالك والمسلك والهدف .

والطريق الآخر هو طريق معرفة النفس وفي هذا النمط من التفكير يكون السالك نفس الطريق . ويدرك الانسان ربّه ، من خلال معرفة نفسه .

ينظر إلى خواطره بمطالعة آثاره ويرى أن :ابه ليس تحت تصرفه ، وان ماضي ومستقبل خواطره ليس تحت تصرفه .

تارة يُفسخ عزمه ، واخرى يحل عقده ويتبدل التصميم احياناً إلى ندم ، وقد قال أمير المؤمنين سلام الله عليه : (عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم)[1] ، وفي هذا السير العلمي يكون السالك نفس الطريق والهدف منفصلاً عنهما . الانسان يتحرك في نفسه حتى يعرف الله .

إن الانسان الذي يسافر في ذاته ، هو كالبحر الذي يرى في داخله ، الجوهر ، حيث ينمّي في داخله جوهرة معرفة النفس ، ويعرف الله بالتدبر في نفسه بدون عناء مشاهدة أسرار العالم .

الانسان العارف بنفسه يمتلك في داخله جوهرة العرفان وهو ينمّيها ويحافظ عليها ، ويدعو الآخرين إلى نفسه ، وجواهره ليست مستعارة من الآخرين .

إن الفرق بين البحر ، ومتحف الآثار هو أن الجواهر التي في المتحف ليست من المتحف إنما جاءته من الخارج فهو لم يربيها ، أما الجواهر التي في اعماق البحر فهي لم تأت من الخارج ، بل إن البحر هو الذي نمّاها .

---

(١) نهج البلاغة صبحي الصالح ، الكلمات القصار ٢٥٠ .

إن الجواهر المستعارة تسترد يوماً ، أما الجواهر التي تكون في تعب الانسان فهي باقية .

الانسان الذي يسعى في معرفة النفس حتى يصل إلى معرفة الله هو كالبحر الذي يتاجر برأسماله ولديه اكتفاء ذاتي . وفي هذا القسم يكون الطريق والسالك واحداً ولكن الهدف منفصل عنهما .

الثالث: طريق معرفة الوجود المحض ، وفيه يكون الطريق والهدف واحداً ، ولكن السائر منفصل عنهما ، فالانسان يعرف الله بمشاهدة الله ، يعرف الله بمطالعة أصل الحقيقة . وطي هذا الطريق خاص بالأوحدين من الناس وليس ميسوراً لكل انسان مفكر .

وقد عرض القرآن ، هذا الطريق ، فقال: ﴿**أولم يكف بربك**﴾ ، أليس الله نفسه بكاف في معرفة الله ، إنه كاف بالطبع لأنه ﴿**انه على كل شيء شهيد**﴾ . الله مشهود فوق كل شيء .

إن الشهيد هنا يعني المشهود وليس بمعنى شاهد ، لأنه لو كان شهيد يعني شاهداً ، فإن معنى الآية سيكون أن الله شاهد كل شيء ، وهذا لا يكون دليل كفاية الله لمعرفة نفسه ، أما إذا كان شاهد بمعنى مشهود فإن معنى الآية هو أن معرفة الله نفسه كافية لمعرفة الله ، لأن الله مشهود قبل كل شيء وفوق كل شيء ، والانسان العارف يشاهد الله أولاً قبل مشاهدة أي شيء ثم يرى ذلك الشيء .

أحد اسماء الله الحسنى ، الكافي ، ولكن كفاية الله سبحانه تكون تارة بنحو التسبيب واخرى بنحو المباشرة ، تارة يجعل تحت تصرف السالك أسباباً ووسائل للوصول إلى الهدف ، وتارة يتولى بنفسه الأمر بدون اسباب

ووسائل ، ويحل الأمر ويوصل السالك إلى الهدف .

وقد ورد بيان اصل الكفاية الالهية في القرآن الكريم **﴿أليس الله بكاف عبده﴾** ، اليس الله بكاف أمور عبده ، أليس الله بقادر على أمر؟ أم انه لا يعلم ، أو يبخل؟

إن جميع هذه النواقص هي من الصفات السلبية لله تعالى ، لأن الله ، عالم بجميع المصالح ، ولديه القدرة على ايجاد جميع المصالح . وجوده وكرمه غير محدود . هو عالم وقادر وجواد معاً ، وإذا كان الله يعلم جميع حاجات الانسان ، وإذا كانت لدى الله القدرة على رفع جميع الحاجات ، وإذا كان الله منزهاً من البخل فهو كاف بالتأكيد .

إن الموجود المحتاج إلى حاجة لا يكون عالِماً ، وإذا كان عالِماً لا يكون قادراً ، وإذا كان عالماً وقادراً فإن بخله الداخلي يحول دون حل مشكلة ورفع حاجة ، فذلك الموجود ليس لديه صفة الكفاية ، اما إذا كان الموجود عالِماً بكل الحاجات ولديه قدرة على جميع الامور وليس لديه بخل ، بل جواد محض فذلك الموجود الكامل لديه صفة الكفاية .

لذا قال القرآن في سورة الزمر : **﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام﴾**[(١)] ، بناء على هذا فإن الله سبحانه كاف في جميع شؤون عبده ، وليس هناك أمر لا يكفي فيه الله .

لكن كفاية الله ، ليست مشهودة وعلنية في جميع المجالات ، بل تكون احياناً مستورة واحياناً مشهودة فمثلاً يقول بشأن الحرب : **﴿ألن**

---

(١) سورة الزمر ، الآيتين (٣٦ و٣٧) .

يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾[1] . هنا طرحت مسألة كفاية الله في ما يتعلق بالنواحي الخاصة في قضية انتصار الحق ضد الباطل . وقوله بشأن الهداية والنصرة: **﴿كفى بربك هادياً ونصيرا﴾**[2] . إن الله كاف في هداية جميع الاشياء بشكل عام والانسان بشكل خاص ، والله كاف في النصرة والعون .

فالله يكفي في النصرة والهداية ، كما ان كفاية الله تطرح في اثبات اصل مسألة الوحي ورسالة الرسول الأكرم ﷺ كما في أمر الله سبحانه لرسوله عند احتجاج الرسول ﷺ مع الكافرين المنكرين للرسالة: **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾**[3] .

شهد الله بانني نبي لأنه ارسل كلامه بيدي . وهذه شهادة عملية ، لأنه اعطاني كلامه ورسالته . إذن فقد شهد بأنني نبي ، وإذا كان لديكم شك في أن القرآن كلام فأتوا بمثل هذا الكتاب . أنا شخص واحد أمي ، فاجمعوا كل العلماء على الأرض وأتوا بمثل هذا الكتاب . إذن شهد الله بانني نبي ، وهذه الشهادة كافية ، أي أن الله يظهر الكفاية في الامور الحساسة والمعينة ، إضافة إلى أصل الكفاية العامة .

وبناء على هذا ، هناك مظاهر متنوعة للكفاية التي ذكرت في القرآن الكريم ، بوصفها اسم من اسماء الله الحسنى . فتارة يقول بأن الله كاف عبده في جميع الشؤون **﴿اليس الله بكاف عبده﴾** ، وتارة يقول بأن الله كاف في أمور الهداية والنصرة **﴿كفى بربك هادياً ونصيراً﴾** ، وتارة يذكر في واقعنا

---

(١) سورة آل عمران ، الآية(١٣٤) .
(٢) سورة الفرقان ، الآية(٣١) .
(٣) سورة الرعد ، الآية(٤٣) .

خاصة بأن الله كاف ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ .

وكفاية الله سبحانه في الامور المذكورة تكون احياناً بلا واسطة حيث يقوم نفسه بالأمر ، واحياناً بواسطة المدبرات أمراً حيث يوصل المأمورون الالهيون والملائكة امراً إلى الهدف ﴿لله جنود السموات والأرض﴾[1] فكفاية الله على قسمين ، احدهما انه يقوم بنفسه بالأمر ، والقسم الآخر يقوم بالأمر بواسطة المأمورين .

في (حم فصلت) ذكر تعالى أنه كاف لمعرفة ذاته فهل هذه الكفاية بلا واسطة؟ أم هي كفاية مع الواسطة؟ هل الله كاف في معرفة ذاته بدون واسطة ، أم كاف مع الواسطة؟

إن ما يستفاد من هذه الآية (حم فصلت) هو أن الله كاف للمعرفة بدون واسطة ، أي أن ذات الله المقدسة كافية للتعريف بنفسها بدون واسطة ، وبنحو المباشرة لا بنحو التسبيب ولا حاجة إلى واسطة .

لا يلزم أن يسأل الانسان السالك غيره ، حتى يدل ذلك الغير على الله ولا يلزم أن يسأل نفسه من الداخل حتى يدلّه داخله على الله ، بل يمكنه معرفة الله ، بمشاهدة جمال الوجود المحض .

هناك بيت شعري يقول بأنه ليس للجمال ستاراً غير صفات الجلال ، وانه ليس هناك نقاب فوق هذا الوجه ، وليس هناك قشر فوق هذا اللب .

إن جلال الله الذي هو نفس قهر وشدة نورانية لله ، يسمح للإنسان المتعارف برؤيته ، ولكن إذا قوّى الإنسان بصر رؤية الحق ، بحيث لم ينبهر أمام ذلك النور اللامتناهي ولم يشعر بالضعف وأصبح لائقاً أن يرى ﴿نور

(١) سورة الفتح ، الآية(٤) .

السموات والأرض﴾ فانه يتمكن من معرفة الله ، بقدر وجوده ، بالتدبر في ذلك النور اللامحدود .

فالله كاف للتعريف بنفسه ، ولا يلزم أن نسأل الآيات من هو الله؟ لا يلزم أن نبحث من داخلنا عمن هو الله؟ بل إن الله هو ذاته كاف ، لماذا؟ لأنه ﴿انه على كل شيء شهيد﴾ .

ولاثبات أن المقصود من الكفاية هنا ، هي الكفاية المباشرة ، وبلا واسطة ، وليس الكفاية بنحو التسبيب يمكن تقرير دليلين لاثبات أن الله ذاته كاف لمعرفته . وذلك كأن نقول انه يمكن معرفة الشمس بمشاهدتها ، فلا يلزم أن نسأل شخصاً ولا يلزم أن نحدد ذلك بواسطة الظل كما لا يلزم أن نفهم أن الشمس اشرقت بمشاهدة نور الباب والجدار . بل إذا رفعنا الرأس ورأينا نفس الشمس ، نفهم أنها اشرقت ونتوصل إليها بغض النظر عن الأنوار البسيطة والظلال ومع أن الله سبحانه منزه من أن يشبهه شيء أو يشبه شيء ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾[1] ﴿ليس كمثله شيء﴾[2] ، فذات الله المقدسة ﴿نور السموات والأرض﴾ لا يشبهها شيء أبداً ، والشمس التي هي ذرة من ذرات الفيض الالهي لا يمكن أن تكون مثل الله تعالى ابداً . لأنه ﴿ليس كمثله شيء﴾ ولكن التشبيه بالشمس إنما هو للتقريب .

وقد بيّن في الجملة السابقة ، احد ذلكما الدليلين أي الكفاية بالواسطة ، لأنه بيّن سابقاً وسائل واسباب معرفة الله ، وهي إما العالم الخارجي والآيات الافاقية ، أو الانسان والآيات الانفسية ، قال: ﴿سنريهم

(١) سورة الصافات ، الآية(١٨٠) .
(٢) سورة الشورى ، الآية(١١) .

آياتنا في الافاق﴾ وهذا هو طريق معرفة الله عن طريق الرؤية الكونية ﴿وفي أنفسهم﴾ ، وهذا هو طريق معرفة الله من خلال معرفة الانسان ، إذن بيّن سابقاً طريق الرؤية الكونية وطريق معرفة الانسان ، وكلاهما كفاية الله بالواسطة .

وبعد أن ذكر أن بالامكان معرفة الله عن طريق الرؤية الكونية وكذلك عن طريق معرفة النفس ، قال: ﴿أولم يكف بربك﴾ وهذه الكفاية ليست تكراراً للكفاية بالواسطة التي سلف ذكرها ، بل هي مسألة جديدة ، وهي الكفاية بلا واسطة . أي لا يلزم أن يرى الإنسان العالم ويسأل العالم أنه هل يوجد إله؟ ولا يلزم أن يغوص في ذاته يتوصل إلى معرفة الله من معرفة النفس ، بل يسأل الله ذاته ويدرك ضرورته الازلية من مشاهدة جمال الوجود المحض . كما تم بيان ذلك سابقاً .

وقد ورد في جوامعنا الروائية ، نظير لهذا القسم من المعرفة ، وهو أن اخوة يوسف عرفوا يوسف بمشاهدة جمال يوسف ، ولم يسألوا شخصاً أين يوسف ومن هو يوسف؟ حتى يعرّفه الآخرون اليهم ولم يسألوا داخلهم حتى يفكروا ويعرفوا يوسف . بل فتحوا العين ورأوا جمال يوسف وعرفوا من ذلك الجمال أن هذا الجميل هو يوسف ، وبمشاهدة ذلك الجلال عرفوا أن هذا الجليل هو يوسف ، لذا قالوا: ﴿ءانك لانت يوسف﴾ .

كان الاستدلال هو ﴿ءانك لأنت يوسف﴾[1] أي انهم عرفوا يوسف من (أنت) فقد عرفوا (أنت) أولا الذي هو المخاطب ، ثم عرفوا يوسف . وقد شُبّه هذا في رواياتنا ، فقيل كما أن اخوة يوسف عرفوا يوسف نفسه

(١) سورة يوسف ، الآية(٩٠) .

بمشاهدة يوسف ، يمكن معرفة الله ، بمشاهدة جمال الله .

إن اخوة يوسف لم يسألوا احداً ، من هو يوسف؟ ولم يستعينوا بخواطرهم الذهنية ليعرفوا يوسف عن ذلك الطريق ، بل عرفوا يوسف بمشاهدته .

وبناء على هذا فإن المقصود من كفاية الله في معرفته ذاته ، هو أن بالامكان معرفة الله بمشاهدة الله ، ولكن ذلك يتطلب رؤية مثل رؤية الحسين ابن علي ـ سلام الله عليهما ـ حيث يقول : (الهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار) أي الهي لا تشغلني بالآثار والعلامات ، بل اجذبني إليك فانني عرفتك بك وليس بالعالم أو بالانسان .

إن الدليل إذا لم يكن ذات المدلول ، فإنه لا يدل على المدلول بشكل كامل . فآية الله لا تدل على الله كما يجب ابداً ، لذا قال الإمام : (الهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار . . . كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك . . . أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك . . . الهي منك اطلب الوصول إليك . . . الهي حققني بحقائق أهل القرب واسلك بي مسلك أهل الجذب)[1] .

هذا الدليل الأول على أن المقصود من ﴿**أولم يكف بربك**﴾ هو أن الله كاف لمعرفة ذاته بلا واسطة وليس بالتسبيب وعن طريق الآيات والعلائم .

أما الدليل الثاني على أن المقصود من ﴿**أولم يكف بربك**﴾ هو أن الله كاف بلا واسطة للتعريف بنفسه ، وليس بالتسبيب وبالواسطة ، هو انه قال في الجملة اللاحقة على نحو الاستدلال ﴿**إنه على كل شيء شهيد**﴾ فالله

(١) مفاتيح الجنان ، دعاء عرفة .

كاف لأنه مشهود فوق كل شيء ، وهو يُشاهَد أولاً قبل أن يُشاهَد شيء ، لأن الله مشهود قبل رؤية أي شيء .

إن الانسان إذا أراد أن يرى شيئاً ، يرى الله ، أولاً ، ثم ذلك الشيء ، لأن الله وهو حقيقة الوجود غير محدود . وبناء على هذا فإن الله محيط بجميع الأشياء فقبل أن نشاهد شيئاً نرى الله أولاً ثم ذلك الشيء ، نرى الله أولاً ثم العالم ، نرى الله أولاً ثم الانسان ، نفهم الله أولاً ومن ثم الفهم ، نفهم الله أولاً ثم الفكر والاستدلال . ندرك الله أولاً ثم انفسنا . (لا يدرك مخلوق شيئاً إلا بالله)[1] .

لماذا لا نجد هذا الفكر الرفيع في الفلسفات قبل الاسلام؟ لماذا لا نجد هذا الكلام الرفيع في افكار غير الانبياء؟ من علّم هذا للبشر؟ مع أن هذا القرآن هو وحي وكلام الله وقد نزل للجميع ، ولكن يلزمه مفسر مثل علي واولاد علي عليهم السلام أولئك الذين هم قرآن ناطق أولئك استنبطوا هذه المعارف الرفيعة من القرآن وعلّموها للحكماء .

قال أمير المؤمنين ـ سلام الله عليه ـ: (فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه)[2] .

قال بأن في هذا الكتاب توجد اسرار العالم ، توجد جميع حاجات البشر ، (ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن اخبركم عنه ، إلا أن فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم)[3] .

---

(١) توحيد الصدوق ، ص١٤٣ .
(٢) نهج البلاغة ، فيض الاسلام الخطبة ١٤٧ .
(٣) نهج البلاغة ، فيض الاسلام ، الخطبة ١٥٧ .

إن أهل بيت العصمة والطهارة ـ عليهم أفضل صلوات المصلين ـ قاموا بتربية تلاميذ كانوا يقولون: اننا نعرف الله أولاً ، ثم الانسان والعالم .

ومن تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام منصور بن حازم . وفي احد الايام قال منصور بن حازم للإمام السادس ـ سلام الله عليه ـ في جلسة درس: يابن رسول الله انني قلت للبعض في حوار علمي: (إن الله جل جلاله أجل وأعز واكرم من أن يعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله)[1] .

إن الانسان البصير إذا قال؛ إن الشمس هي أكبر من أن نعرفها بظل أو نور الجدار ، بل ظل ونور الجدار نراهما بواسطة الشمس فإن كلامه حق . فلو لم تكن الشمس لما رأينا شيئاً ولو لم يكن هناك نير اصيل ، لما رأينا طريقاً ولا حفرة يجب أن لا نتصور أننا برؤيتنا الباب والجدار نتوصل إلى الشمس ، بل يجب أن نعلم؛ أننا نرى الشمس أولاً ، وعلى ضوء الشمس نرى الباب والجدار . وفي مسألة معرفة الله كذلك نرى الله أولا ، ثم نرى العالم والانسان في ظل ﴿**نور السموات والأرض**﴾ .

ثم ذكر الإمام الصادق عليه السلام أن ذلك صحيح . لقد ربى الإمام الصادق منصور بن حازم ، وهو تلميذ الآية الكريمة ﴿**أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾ ، أي قبل أن نرى العالم فإن المشهود الذي فوق العالم هو الله ، لأن الله مشهود فوق كل شيء .

قبل أن ننظر إلى انفسنا ، فإن الله هو المشهود فوق انفسنا ، إن الله مشهود فوق كل شيء ، قبل أن نفهم الفهم ، قبل أن نفهم الاستدلال ، قبل أن نفهم الفكر ونمط الفكر ، لا أن الله شاهد فوق كل شيء ، لأن الشهيد

---

(١) أصول الكافي باب انه لا يعرف إلا به ، ح٣ .

بمعنى الشاهد ، دليل على أن الله ﴿بكل شيء عليم﴾ وليس دليلاً على كفاية الله بلا واسطة في التعريف بنفسه ، أما الشهادة بمعنى كونه مشهوداً فهي دليل على الكفاية في التعريف والإراءة من دون واسطة ، أي بما أنه مشهود في كل مكان إذنْ هو كاف .

إذن يمكن بهذين الدليلين الجملة السابقة والجملة التي بعد ﴿أولم يكف بربك﴾ ، الاستنباط ان المقصود هو ان الله كاف مباشرة وليس تسبيباً فقط ، لأن الله مشهود فوق كل شيء .

اليس كل شيء هو فقر محض ومعتمد على الله؟ ولولا وجود الله لما كان لهذا الشيء من نفسه معتمد؟ ، نحن إذاً رأينا شيئاً قائماً ، نرى أولاً مكان ارتكازه ثم ننظر إليه ننظر أولاً إلى الحقيقة الشاملة ، ثم نشاهد الشيء المحتاج والمعتمد .

ومع أن الله خارج عن الانسان والعالم ، ولكن ليس بالشكل الذي يكون مناسباً ومزايلاً معهما ، حيث قال سيد الموحدين علي بن أبي طالب؛ (هو في الأشياء على غير ممازجة)[1] ، (خارج منها على غير مباينة)[2] ، لأن حلول الحق المحض في الفقر الصرف محال .

(ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[3] ، حين سمع رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الشعر ، قال: (أصدق كلمة قالتها العرب كلمة لبيد)[4] ، وهذه هي ثقافة الوحي تعلّمها لبيد وأخرجها بصورة شعر ، وأصبح مصداقاً بارزاً (إن من

(١) توحيد الصدوق ، ص٣٠٦ .
(٢) توحيد الصدوق ، ص٣٠٦ .
(٣) البحار ، ج٧٠ ص٢٩٥ .
(٤) البحار ، ج٧٠ ص٢٩٥ .

الشعر لحمة)[1] .

جاء في سورة الحج وفي سورة لقمان مع اختلاف بسيط **﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وان الله هو العلي الكبير﴾**[2] وبناء على هذا فان الله سبحانه كاف للتعريف بنفسه بلا واسطة ولا يحتاج إلى أسباب وعلل للمعرفة لأنه مشهود قبل كل شيء .

والـذي لا يـرى الله سبحـانـه ، فهـو اعمـى ، حيـث قـال سيـد الشهداء عليه السلام : (عميت عين لا تراك عليها رقيباً) أي ان الذي لا يراك هو اعمى ، حيث لا يرى الله بوصفه مبدأ عالم الخلق ولا يراه بوصفه مرجع فاقلة الوجود ، لذا يترددون في بداية العالم ، ويشكون في نهاية العالم .

لذا قال تعالى : **﴿ألا انهم في مرية من لقاء ربهم﴾**[3] ، إن الذين لم يتمكنوا ادراك وجود الله سبحانه ، لا عن طريق الآيات الآفاقية ولا عن طريق الآيات الانفسية ولا عن طريق التدبر في حقيقة الوجود المحض هم في مرية وشـك وتـرديـد . ولكـن يجـب أن يعـرف الجميـع أن **﴿ألا إنـه بكـل شـيء محيط﴾** ، ليس هناك شيء خارج عن الاحاطة العلمية لله سبحانه .

إن الاحاطة العلمية لله سبحانه ليست بمعنى إنه مثل جسم كبير محيط بجسم صغير ، لأن احاطة الاشياء المادية هي فقط في أن يقع ظاهر شيء صغيـر تحـت غطـاء احـاطـة شـيء كبيـر ، لكنـه لا يحيـط بجميـع شـؤونـه الوجودية ، مثلاً يكون باطنه وبداية حدوثه ونهايته في المستقبل خارجة عن احاطته .

---

(١) من لا يحضره الفقيه ، رقم ٥٨٠٥ .
(٢) سورة لقمان ، الآية(٣٠) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(٥٤) .

فالبحر مثلاً يحيط بالسمكة التي في داخله ، وكذلك الفضاء المفتوح محيط بالطير الذي يطير فيه ، ولكن الإحاطة في جميع الحالات التي ذكرت وما يشبهها انما تصدق بالنسبة إلى ظاهر ذلك الشيء المحاط فحسب وليس بالنسبة إلى سائر شؤونه . أما احاطة الله سبحانه ، بالنسبة لجميع الأشياء ، فهي احاطة شاملة بالنسبة لجميع شؤونها .

أي أن داخل كل شيء محاط من الله ، كما أن خارجه محاط ، وبدايته وآخره وجزؤه وكله وذاته وصفته وفعله وحدوثه وبقائه وأوجه وحضيضه ورفعه ووضعه وغيرها كلها تحت احاطة قيمومة الله سبحانه ، فالله له احاطة علمية ووجودية ، على كل مكان يتحقق فيه مصداق وجود .

وهذه الاسماء الاربعة المباركة التي هي من الاسماء الحسنى لله والتي جاءت في أوائل سورة الحديد: **﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾**[1] هي شؤون متنوعة لاسم الله الاحسن أي المحيط . وحين يقال: **﴿الا إنه بكل شيء محيط﴾** ، فأول كل شيء هو الله ، وآخر كل شيء هو الله ، ظاهر كل شيء هو الله، وباطن كل شيء هو الله ، ولكن (هو في الاشياء على غير ممازجة ، خارج منها على غير مباينة) .

إن الذي تكون عين قلبه غير بصيرة ، لا يدرك هذه الشؤون المتنوعة لاسم المحيط ، ولأنه لا يرى (هو الأول) فانه لا يعتقد بالمبدأ والتوحيد ، ولأنه لا يرىٰ (هو الآخر) فانه لا يعتقد بالقيامة . وهكذا .

﴿ألا انهم في مرية من لقاء ربهم﴾ ، النكتة المهمة هنا هي انه إذا كان هناك أحد لا يمتلك الرؤية الأساسية والأصيلة والتي هي معرفة الله ، فانه لا

---

(١) سورة الحديد ، الآية (٣) .

يعرف العالم الخارجي جيداً كما لا يمكنه أن يدرك الانسان بشكل صحيح .

وهذه المسألة سوف تطرح في ما بعد إذا وفقنا الله ، وهي انه إذا لم يعرف الإنسان الله ولم يتيقن بالذات المقدسة ، فإنه لا يكون صاحب رؤية كونية حقيقية ، ولا يعرف الإنسان بصورة واقعية . لا يعرف نفسه ولا العالم ، لا الآيات الافاقية ولا الآيات الانفسية وليست هناك نعمة افضل من نعمة اليقين وكما لم تخلق في العالم نعمة اقل من نعمة اليقين .

نقسم على الله بحق محمد وآل محمد ـ عليهم افضل صلوات المصلين ـ الذين هم أهل اليقين ، أن ينور قلوبنا بنور اليقين بالمعارف الالهية ، وأن يرحم الجميع بتوفيق ادراك معارف القرآن الكريم ، وكلام اولياء الله عليهم السلام وأن يهدي ثواب هذه البحوث بعد القبول ، لارواح الأنبياء والأولياء وأن يختم أمور الجميع بالخير والسعادة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدرس الثالث عشر

معرفة الله ظهير لمعرفة العالم ومعرفة الانسان

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الاوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث في المضمون المشترك (للحواميم السبعة) ، أهم مضمون مشترك لهذه السور السبع هو بيان الوحي وضرورة الوحي وشرح ما جاء به الوحي وابرز ما جاء به الوحي هي اصول الدين والمعارف الاولى له مثل التوحيد والنبوة والمعاد .

وقد قُسّمت كيفية الاستدلال على توحيد الله تعالى في احدى هذه السور السبع واسمها (حم فصلت) ، بشكل مفصل ، إلى ثلاثة أقسام ، فالمفكر بشأن معرفة مبدأ الوجود يتوصل إلى الله خالق العالم أما عن طريق الرؤية الكونية ومعرفة العالم ، أو عن طريق معرفة النفس ومعرفة حقيقة الانسان أو عن طريق التدبر في حقيقة الوجود التي هي الله سبحانه ، وقد تم

بيان الفرق بين هذه الطرق الثلاثة وميزة كل منها عن الآخر .

في هذه السورة المباركة ، ذكر برهانين على أن الله سبحانه كاف ذاتاً لمعرفة نفسه . أي بالامكان معرفة الله بمشاهدة الله ، بعد أن بيّن الآيات التي في العالم الخارج عن ذات الانسان ، وكذلك الآيات التي في داخل الانسان ، أي الآيات الافاقية والآيات الانفسية ، قال: **﴿أولم يكف بربك﴾**[1] .

أي كما أن الآيات الداخلية والخارجية كافية لمعرفة الله فكذلك التدبر في حقيقة الوجود كاف لمعرفة الله سبحانه بدون الرجوع إلى العالم أو الانسان .

ثم قال: **﴿انه على كل شيء شهيد﴾**[2] ، أي أن الله مشهود ، فوق كل شيء ، أي أن أول شيء يعرفه الانسان في معرفة أي شيء ، هو الله ، وذاته المباركة مشهودة فوق كل شيء . **﴿ألا انهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾**[3] وقد وصلنا إلى هذه النكتة في ختام البحث السابق ، وهي أن الله سبحانه محيط بجميع الأشياء . محيط بالعالم ومحيط بالانسان ومحيط بفكر واستدلال المفكرين . وإذا اراد الإنسان أن يعرف الله ، فإن نفس الإنسان ومعرفته ونمط معرفته ، هي تحت الاحاطة العلمية لله . وإذا علِم بشيء بعد التدبر في العالم أو التأمل في الانسان ، فهذا العلم أيضاً تحت هيمنة علم الله .

وبما أن الله محيط بجميع الأشياء ، فهو يحيط بأصل وجود الانسان

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .
(٢) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .
(٣) سورة فصلت ، الآية(٥٤) .

العالِم وبفكره وبنمط استدلاله وذلك مثل الموج الذي يحصل في بحر واسع ، فهذا البحر محيط بكل امواجه ، محيط بظاهر هذا الموج وباطنه واوله وآخره ، لأن الموج ليس شيئاً منفصلاً عن ظهور البحر ، وبما أن علم الله غير محدود ، ولا يوجد علم آخر في قبال العلم اللامتناهي ، إذن فعلم الانسان المفكر هو ظهور من علم الله غير المحدود .

لذا قال : **﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾**[1] مما يدل على أن جميع العلوم ، هي مثل ظهورات وأشعة لعلم الله . وذات الانسان والعلم الذي لديه تابع لعلم الله غير المحدود . لأن خاصية العلم غير المحدود المحض هي هكذا .

وكذلك بيّنا في ختام البحث السابق هذه النكتة ، وهي أن الانسان إذا لم يعرف الله ، فانه لا يعرف العالم ولا ذاته . أي لا يعرف العالم حتى يعلم كيف يتعامل مع العالم ، ولا يعرف نفسه حتى يفهم ماذا يعمل مع نفسه ، لأنه لم يعرف الله الذي لديه احاطة بكل شيء ، وما كان الوجود العلمي لله سبحانه محيطاً بجميع شؤون الاشياء ولا يفترض أمر للاشياء لا يكون تحت الهيمنة العلمية لله سبحانه . وبناء على هذا لا يمكن ادراك حقيقة شيء ابداً بدون معرفة الله . وفي النتيجة لا يستفيد من ذاته ، ولا من العالم الخارجي .

لأنه لم ير تلك الحقيقة التي تنور قلب الانسان وداخله فلم ير داخله ولأنه لم ير الحقيقة التي تنور العالم ، فلم ير العالم أيضاً . وبما انه لم يعرف العالم كما يجب فانه يتعامل معه بجهل ، ولم يعرف نفسه كما يجب

---

(١) سورة البقرة ، الآية(٢٥٥) .

أيضاً ، لذا فهو غير عارف بنفسه ، إذن فهو يسير في الاتجاه المضر بنفسه كما يعمل ضد العالم .

وقد نبّه القرآن الكريم ، إلى هاتين النكتتين ، في كثير من آياته ، الأولى هي أن تشاهدوا الله سبحانه بمشاهدة العالم الخارجي . والاخرى هي أن تنظروا إلى الله سبحانه ، بالتدبر في النفس . قال في سورة الجاثية وهي احدى (الحواميم السبعة) : **﴿حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين﴾**[1] .

إذا كان هناك مفكر يطلب اليقين ، فإن التدبر في الآيات التي في العالم الخارجي ، يوصله إلى مطلوبه الاصيل ويجعله يؤمن به . والاشخاص المؤمنون يرون الآيات الالهية في العالم .

ثم قال : **﴿وفي خلقكم﴾**[2] أي أن الآيات الالهية موجودة في خلقكم أيضاً . فإذا كنتم طالبين للايمان الحقيقي ، والتخلص من كل أنواع التقليد الباطل ، فإن آية الله تجدونها في انفسكم ، فتعرفون انفسكم جيداً على أنكم آية الهية ، كما تعرفون العالم أيضاً أنه آية الهية .

إذا عرفتم انفسكم جيداً ، فانكم لا تتعاملون بجهل مع انفسكم أبداً ولا تسمحون بدخول الكبرياء والغرور إلى انفسكم ، لأنكم تعلمون انكم آية الهية وانكم فقراء ذاتاً ، أما إذا لم تعرفوا انفسكم عند ذلك تفكرون بداعية التكبر والغرور . **﴿إن الانسان ليطغى، أن رآن استغنى﴾**[3] ، إذا عرف نفسه ، يعلم أنه فقير **﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى**

(١) سورة الجاثية ، الآيات(١ إلى ٣) .
(٢) سورة الجاثية ، الآية(٤) .
(٣) سورة العلق ، الآيتين (٦و٧) .

الله﴾[1] ولا يصاب ابداً بالغرور ، وإذا لم يعرف نفسه فانه يفكر بداعية الطغيان ويتصور انه مستغن إذ هو لم يعرف نفسه .

وأما في ما يتعلق بالمعرفة الصحيحة للعالم فحين يعرف العالم بشكل صحيح يرى أن جميع هذه هي آيات الهية فلا يجعل ارتباطه الاصيل بأي شيء على الاطلاق . إذا جاءه نفع لا يفرح وإذا أخذ منه نفع لا يحزن ، لأن جميع الأشياء آيات الهية ، مجيئها امتحان رذهابها اختبار كذلك ، **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾**[2] ، لأن تلك الافاضة هي امتحان ، وكذلك هذا الاخذ .

يقول الإمام الباقر عليه السلام بأن الله سبحانه قد اختصر الزهد في جملتين في القرآن . الزهد ليس أن يهدر الانسان ماله وإنما الزهد هو أن الانسان لا يكون فرحاً إذا اتته الدنيا ، ولا يكون حزيناً إذا اخذت منه **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾** .

هكذا تكون رؤية الشخص الذي يتدبر في آيات الله بالنسبة للعالم كما تكون بشأن الإنسان بهذا النحو أنه **﴿يا أيها الناس انتم الفقراء إلى الله﴾** . لذا لا يحصل في داخله غرور كما لا تخدعه خدعة من الخارج ، لأنه خبير جيد بالانسان كما أنه صاحب رؤية كونية جيدة أيضاً . فهو يعتبر العالم آيات الهية ، ويعتبر الانسان آية الله كذلك . يعتبر الانسان كموجود محتاج كما يعتبر العالم كمأمورين وجنود الهيين وآيات الله . **﴿وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون﴾**[3] .

---

(١) سورة فاطر ، الآية(١٥) .

(٢) سورة الحديد ، الآية(٢٣) .

(٣) سورة الجاثية، الآية(٤) .

إذا كان لدى شخص رؤية صحيحة ومصانة من المغالطة ، فإنه يكون خبيراً جيداً بالانسان ، وذو رؤية كونية جيدة ، لأنه يرى الله متجلياً في كل عالم الوجود . وحين يجد الله متجلياً في الانسان ، فإنه يرى الفقر الذاتي للانسان ، ويرى الحاجة الوجودية للعالم ، عند ذلك يفهم جيداً معنى كلام امير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه أفضل صلوات المصلين ـ حيث قال : (الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه)[1] .

وعندما تصبح رؤيته للعالم والانسان رؤية الهية فانه لا يرى اوصاف الله سبحانه وهي العزة والكبرياء والاستقلال الذاتي والاستغناء المحض وامثالها في العالم ولا يشاهدها في الانسان ، بل يعتبرها كلها محكومة للاوصاف الامكانية ويشاهد ذلة العبودية والحاجة الذاتية في كل منطقة الخلق الواسعة . لذا لا هو يعتمد على نفسه ولا هو يعتمد على غير الله سبحانه .

أما إذا لم تكن رؤيته للعالم والانسان الهية فانه لا يكون صاحب رؤية كونية جيدة ولا خبيراً كاملاً بالانسان ويقول القرآن الكريم بشأن هؤلاء ، بأنهم لم يعرفوا عالم الخلق بشكل كامل كما انهم لم يعرفوا الانسان بصورة صحيحة فنسوا انسانية الانسان كما نسوا كون العالم سراباً . لذا تصوروا أن العالم موجود ثابت وخالد وان الانسان موجود مستغن ومتكبر .

حول نسيان حقيقة الانسان ، قال : ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون**﴾[2] .

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٦ .

(٢) سورة الحشر ، الآية(١٩) .

لأنه ما لم يشرق نور المعرفة في الانسان ، لا تُعرف انسانية الانسان وإذا لم ير الانسان ﴿**نور السموات والأرض**﴾ فان كل العالم يكون مظلماً بالنسبة له ، وكل حكم يحكمه يكون في الظلام ، لذا ينسب إلى غير الله الاستقلال والاستغناء الذي هو خاص بالله سبحانه . يتصور الانسان مستقلاً ، يتصور انه موجود مستقل يعتمد على نفسه . يقول انا ونحن وينسى حقيقته التي هي الفقر المحض ، لذا يرى نفسه مستغنياً ومن هنا يعيش وهو يفكر بتأمين لذّاته الحيوانية فحسب وينسى تلك الذات الانسانية وينشغل بالذات الحيوانية .

يقول القرآن بأن هؤلاء نسوا ذواتهم الحقيقية ، ولم يروا غير ذواتهم الظاهرية ﴿**أهمتهم انفسهم**﴾[1] . لم يتمكنوا أن يروا انفسهم ، لأنهم لم يروا الله سبحانه الذي هو النور المحض ، ﴿**نسوا الله فأنساهم انفسهم**﴾ أنساهم الله حقيقتهم وباطنهم ، لذا نسوا حقيقتهم الانسانية وهم يعيشون في حدود حياتهم الحيوانية فقط .

إن الجمع بين الآية التي تقول بأن الله انساهم انفسهم ، والآية التي تقول بأنهم اهمتهم انفسهم ، ولا يفكرون بشيء آخر ، هو ما تم بيانه . ومنشأ خطأهم في معرفة الانسان هو انهم لم يشاهدوا مبدأ النور .

واما بشأن معرفة العالم فهي كما قال: ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾[2] . فهؤلاء سوف لا تكون لديهم رؤية كونية كاملة ، لأنهم لم يروا النور الذي يضيء

---

(١) سورة آل عمران ، الآية(١٥٤) .

(٢) سورة الروم ، الآيتين(٦ و٧) .

ويوضح العالم ، لذا تصوروا العالم كأمر خالد .

وقد بيّن القرآن الكريم قضية ذلك المتكاثر الذي كان يريد كثرة المال وعزة الأولاد والقبيلة ، بهذا الشكل : **﴿وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا اكثر منك مالاً وأعز نفرا، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾**(١) .

إن سر هذا القول الساذج هو أن الحكم في الظلام لن يكون صائباً بالتأكيد ، والنور الوحيد الذي ينور العالم هو نور الله سبحانه الذي هو نور السموات والأرض ، وإذا لم ير شخص ذلك النور الساطع فانه لا يعرف العالم بشكل صحيح كما أنه لا يرى نفسه . لذا يتصور أن ذلك أمراً ثابتاً فينخدع به ويخضع ويلجأ اليه .

وبما أن معرفة الله هي العامل الوحيد لتنوير العالم والانسان ، والإنسان المادي محروم من مشاهدة ذلك النور ، لذا لا هو يرى داخل الانسان ولا هو يرى باطن العالم . ولذا قال تعالى بشأنهم ما يلي : **﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾** . انهم لم يعرفوا باطن العالم الذي هو أساسه .

إذن لقد اتضح أن الانسان إذا لم يكن عارفاً بالله فلا هو عارف جيد بالانسان كما لا تكون لديه رؤية كونية جيدة ، لذا قال : **﴿أولم يتفكروا في أنفسهم﴾**(٢) ، لماذا لم يدخلوا رؤوسهم إلى جيب التفكر؟ لماذا لم يصبحوا عارفين جيدين بالانسان؟ لماذا لم تكن لديهم رؤية كونية جيدة؟

---

(١) سورة الكهف ، الآيتين(٣٤ و٣٥) .

(٢) سورة الروم ، الآية(٨) .

لماذا لم يروا ذلك النور ، حيث يشاهَد الانسان والعالم بذلك النور الحقيقي؟ لو فكروا شيئاً ما لكان طريق تشخيص الصحيح واضحاً .

﴿ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾[1] . أي أن خلق العالم هو في صحبة الحق ، والعالم مصاحب للحقيقة ، وقد ظهرت الحقيقة في داخل هذا العالم ، إنهم لا يرون ذلك الحق الذي ظهر ، ويرون ظاهر العالم فقط والحق ظهر في داخل الانسان وهم لا يرون ذلك الحق ، ويرون فقط ظاهر الانسان ، لذا فقد نسوا باطنه .

يقول في سورة فصلت بأنه سيأتي يوم ينوّر ذلك النور ، بواطنهم ويرون ما هي حقيقتهم؟ كما ينور باطن العالم . ويفهمون ماذا كان باطن العالم؟ **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[2] .

في سورة الحشر ذكر أن العقاب المر لنسيان الله هو أن الله ينسيهم انفسهم ، لذا هم يعينون انفسهم ويهتمون بالغير ، وتكون كل جهودهم وسعيهم هي في اعمار غيرهم ، فمثلاً يعمرون البدن وهم لا بد لهم أن يتركوه ويعمرون الدار مع انهم سيتركونها حتماً ، يوفرون ويصلحون مسائل الحياة الحيوانية ثم يتركونها كلها . والخلاصة يعمرون دنياهم التي يجب أن يتركونها ، بل قبل ان يتركوا الدنيا هي تتركهم .

قال أمير المؤمنين سلام الله عليه : (أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وأن تحبوا تركها المبلية لاجسامكم وإن كنتم تحبون

---

(١) سورة الروم ، الآية(٨) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .

تجديدها)[1] .

وكما ان الله سبحانه لا يَدَع الانسان سيّىء التفكير يتعرف على نفسه بشكل صحيح ، فانه لا يوفق الانسان المفسد لكي يعرف العالم بشكل كامل ، لذا قال: **﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾**[2] ، لأن فهم اسرار العالم هي نعمة ، والنعمة الحقيقية لا يعطيها الله لاي انسان ، لأن التفكير الصحيح ، ليس مثل مال الدنيا وسائر الشؤون المادية التي يعطيها للصالحين والمسيئين على نحو الاختبار ، بل هو مسألة معنوية وحقيقة ، لا يعطيها إلا للصالحين ، واول شرط للصلاح هو امتلاك رؤية صحيحة .

إن الانسان الذي يفكر بصورة صحيحة يعطيه الله توفيق معرفة الانسان ورؤية كونية كاملة ، أما إذا لم يفكر شخص بشكل صحيح ولم ير ذلك النور المحض فلا هو يعرف الانسان جيداً ولا العالم . ومن قوله تعالى في سورة الحشر حول أن عقاب الانسان سيّىء الفكر هو أنه لا يعرف نفسه ، يمكن الاستفادة أن عقاب الانسان سيّىء الفكر هو انه لا يعرف العالم أيضاً . وامامه يوم يعرف فيه العالم جيداً كما يعرف الانسان جيداً كذلك .

وقد بيّن مقداراً من علامات ذلك اليوم في سورة (القيامة) ، فقال: **﴿فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الانسان يومئذ أين المفر﴾**[3] . عندما تحين لحظة الموت يبرق نور العين ، والعين ليس فيها بصر ، العين موجودة ولكنها ليست باصرة . العين موجودة ولكن ليست هناك رؤية فلا ترى شيئاً والشمس والقمر قد دمرا معا وجمع بساطهما

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٩٧ .

(٢) سورة الاعراف ، الآية(١٧٩) .

(٣) سورة القيامة ، الآيات (٧ إلى ١٠) .

في ذلك اليوم يتبين باطن العالم وباطن الانسان أيضاً يتبين من كان الانسان ويتبين ماذا كان العالم؟

في ذلك اليوم يُبين للانسان الآيات الآفاقية والعالمية والآيات الانفسية والداخلية ، يتبين للانسان في ذلك اليوم أن (الله هو الحق) .

إن الثمرة المرة لجهالة الانسان لنفسه ، وكذلك للعالم ، هي أنه لا يوجه انسانيته في مسير الكمال ، ولا يستخدم لوازم عالم الخلق في طريقها الصحيح ، لأن الهداية هي فرع للمعرفة ، فإذا لم يعرف نفسه فإنه لا يعلم كماله كذلك ، ولأنه لا يعلم كماله فانه يتصور أن سعادته هي في تأمين اللذات ، لذا يسعى في ذلك الطريق الباطل .

إن القرآن الكريم يخبر عن هذه الطائفة . هكذا: **﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون﴾**[1] . هؤلاء لم يعرفوا الانسان ولا العالم . لأنهم لم يروا النور الذي ينور الانسانية ويبين العالم ، لأنهم لم يروا **﴿نور السموات والأرض﴾** ، لذا فهم محرومون من اصلاح العالم ، بل يقومون بافساده **﴿لا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها﴾**[2] ، ومحرومون من اصلاح الانسان أيضاً ، حركتهم ضد باطن الانسان **﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾**[3] ، لذا يخسرون رأسمال السعادة **﴿خسر خسراناً مبيناً﴾**[4] .

وحين الرحلة من عالم الطبيعة يعرفون انفسهم جيداً بواسطة ظهور النور الالهي كما يدركون العالم جيداً كذلك . لكن تلك المرحلة هي فقط

---

(١) سورة الحجر ، الآية(٣) .
(٢) سورة الاعراف ، الآية(٥٦) .
(٣) سورة الأنفال ، الآية(٤٢) .
(٤) سورة النساء ، الآية(١١٩) .

عالم ظهور الحق ، وليست موطن عمل وتوبة واصلاح وامثال ذلك .

إن جميع قلق الفاسقين هو من ظهور الحق في ذلك اليوم ، ولكن لا يمكن القيام باي عمل صالح . قال تعالى في القرآن الكريم: **﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا﴾**[1] انهم يتحسرون في ذلك اليوم لأن الحق ظهر ولا يستطيعون القيام بعمل .

والخلاصة انه يمكن معرفة الله جيداً بمشاهدة آيات العالم ، وبالتدبر في آيات الله في الانسان ، وكذلك بمشاهدة الوجود المحض ، لأن الله سبحانه **﴿على كل شيء شهيد﴾** و**﴿بكل شيء محيط﴾** ، وإذا لم يعرف الانسان مفكر ، من هو الله فانه لا يعرف من هو الانسان جيداً ولا يعرف العالم ، لأن العقاب الالهي يسلب من المفكر المادي الذي يتعمد غض النظر عن التدبر في آيات الله الواضحة ، توفيق المعرفة الصحيحة .

وقد مر في البحوث السابقة ان الله تعالى يقول: **﴿جعلنا على قلوبهم أكنة﴾**[2] وعندما تكون على قلوبهم اكنة وغطاء ، فانهم يقدرون على الرؤية الصحيحة أبدا لا يستطيعون معرفة العالم جيداً ، ولا يتمكنون من رؤية باطن الانسان بشكل كامل .

وما كان لازماً بشأن الآية **﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا﴾**[3] قد تم بيانه سابقاً ، وتوضيح الحجاب المستور هو أن بعض الحجب هي حجب وفي نفس الوقت محجوبة عن

---

(١) سورة الانعام ، الآية(١٥٨) .

(٢) سورة الانعام ، الآية(٢٥) .

(٣) سورة الاسراء ، الآية(٤٥) .

الانظار ، أي انها حجب غير مرئية . نفس هذا الحجاب محجوب ، الذنب حجاب غير مرئي ، لا يَدَع الانسان يرى العالم وباطنه ، والانسان المفسد لا يعلم أن على قلبه حجاب ، لأن هذا الحجاب غير مرئي . هذا الحجاب ليس جسمانياً حتى يكون مشهوداً ، فهو غير مرئي ومستور .

إن الانسان يتصور انه ليس لديه حجاب ، في حين أن ذنبه الداخلي هو حجاب غير مرئي وهذا الحجاب يرفع يوماً ويرى الانسان ماذا عمل ، وعند ذلك يكون عارفاً بالانسان بشكل كامل وصاحب رؤية كونية صحيحة كما يصبح محاسباً جيداً .

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ . إذا كان هناك غطاء فوق اناء ما ، فانه مهما نزل من مطر لا ينزل شيء إلى داخل ذلك الاناء ، لأن هناك غطاء فوق الاناء وهو حجاب يحول دون نزول المطر إلى داخله . وإذا جعلتم اناء كبيراً فوق ماعون فان المطر النازل من فوق يمر عن ظهر هذا الاناء الكبير ولا تسقط قطرة في داخل ذلك الماعون لأنه مغطى .

قال تعالى : **﴿ختم الله على قلوبهم﴾**[1] ويرفع هذا الغطاء يوماً ، وعند ذلك يعرف نفسه إنه كان فقيراً ، ويفهم العالم انه كان آية الهية ، يفهم أن طلبه للكبرياء كان باطلاً ، ويفهم أنه كان يجب أن لا يغره العالم .

المقصود هو أن هذا العقاب الذي ذكر في سورة (الحشر) ، ليس فقط في معرفة الانسان ، فالانسان السيّيء التفكير ، لا يكون عقابه فقط انه لا يعرف نفسه بل عقابه أيضاً انه لا يعرف العالم . أي أن الانحراف المتعمد له عقابان ، وفي سورة (حم فصلت) ، ذكر أنه سيأتي يوم نرفع الحجاب ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية(٧) .

فيعرف نفسه من كان كما يرى العالم ماذا كان؟ **﴿سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾** حين يرفع الستار والغطاء ويفتح ختم القلب ، تفهم قلوبهم ماذا هناك ، لذا يقول بهدف الموعظة والنصيحة ، بأن حاسب نفسك قبل حلول ذلك اليوم .

قال تعالى في سورة (القيامة): **﴿بل الانسان على نفسه بصيرة﴾**[(١)] نفس هذا الانسان الذي كان أعمى في الدنيا يصبح بصيراً في الآخرة ، يرى ماذا فعل ويشاهد آثار القوة الالهية ولكنه لا يرى حقائق ذلك العالم حتى يلتذ . يرى فقط الجلال والانتقام والعقاب الالهي ويعاني ، تظهر السيئات التي في داخله وتتضح له ولكن لا يرى أياً من المظاهر الجميلة في الجنة ، وكما أنه كان في الدنيا اعمى مع وجود الآيات الآفاقية والانفسية وكان يرى السيئات فقط ، فانه يرى في القيامة الحية والعقرب وسائر آيات العذاب والقوة فقط ، ولكنه لا يرى النعم العظيمة في الجنة والقيامة أصلاً .

إن هؤلاء يحشرون عمياً في يوم القيامة ، ولكن هذا لا يعني أنهم لا يرون الحية والعقرب مثلاً ويلمسون لسعتها وسمومها فحسب ، بل لهم عين ترى عذاب الله فقط . فهؤلاء انما هم عمي بالنسبة إلى النعمة الالهية وذلك انهم لم يروا في الدنيا إلا السوء والقبح ، وفي الآخرة لا يرون إلا الجزاء السيّىء . يقولون ، الهي لماذا حشرتنا عمياً؟ أي بالنسبة إلى النعم في القيامة ، وليس بالنسبة إلى النقم فيها وذلك لأنهم يرون جهنم يوم القيامة **﴿ورأى المجرمون النار﴾**[(٢)] ، لكنهم لا يرون الانبياء والاولياء ، لا يرون المؤمنين ، لا يرون مظاهر لطف الله يوم القيامة .

---

(١) سورة القيامة ، الآية(١٤) .

(٢) سورة الكهف ، الآية(٥٣) .

إن كيفية عماهم في القيامة تشبه عماهم في الدنيا ، أي انهم محرومون من مشاهدة مظاهر الجمال والرحمة الالهية ، كالملائكة والانبياء والاولياء . ﴿**إنهم عن ربهم يؤمئذ لمحجوبون**﴾[1] ، وإلا فإنهم يرون جهنم وتراهم جهنم ﴿**إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرا**﴾[2] .

هذه الطائفة تفتح عيونهم في العالم الآخر ، ويرون جميع اعمالهم في فترة العمر ، يقول القرآن ﴿**ينبأُ الانسان يومئذ بما قدم وأخر**﴾[3] ، في ذلك اليوم يخبر الانسان بالاعمال التي قام بها في اوائل واواخر عمره ، أو تبين له جميع الاعمال التي قام بها في زمان حياته ، والآثار التي بقيت بعد موته .

ثم يقول لا حاجة للاخبار: ﴿**بل الانسان على نفسه بصيرة**﴾ لأنه يعلم جميع اعماله ، فما الداعي لاخباره؟ وبما أن اطلاعه على جميع اسراره واعماله دقيق وكثير وشامل ، لذا تم التعبير بـ (تاء المبالغة) أي قال بأن الانسان على نفسه (بصيرة) ولم يقل (بصير) .

ان حرف (التاء) في كلمة (بصيرة) هو مثل (التاء) في كلمة (علامة) ، التي تدل على المبالغة ، أي إذا قيل ان الشخص الفلاني علامة فيعني انه عالِم كبير جداً ، وحين يقال ﴿**بل الانسان على نفسه بصيرة**﴾ ، يعني أن الانسان بصير جداً في ذلك اليوم على جميع سلوكه وكلامه وكتابته وشؤونه الاخرى . ﴿**ولو ألقى معاذيره**﴾[4] ، مهما تعذر واراد أن يظهر نفسه معذوراً في الظاهر فانه مطلع على جرائمه ، لأن جميع الحجب ترفع ، ويشاهد

---

(١) سورة المطففين ، الآية(١٥) .

(٢) سورة الفرقان ، الآية(١٢) .

(٣) سورة القيامة ، الآية(١٣) .

(٤) سورة القيامة ، الآية(١٥) .

داخله ، وعندما ترفع الحجب ، فان احد انواع العذاب الالهي هو أن يجعله الله محاسباً لنفسه فيطلب منه أن يأتي ويكون محاسباً لنفسه .

﴿وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[1] إن المقصود من هذا الكتاب ليس انه كتب فيه ان الشخص الفلاني قام في اليوم الفلاني بهذا العمل ، بل المراد من الكتاب هو كتاب النفس الذي تنقش فيه العقائد والاخلاق والاعمال ، وهو موجود في الدنيا بصورة مجملة ومغلقة ، ويظهر في القيامة بصورة مفصلة ومفتوحة . عند ذلك يشاهد جميع عقائده واخلاقه واعماله متجسمة .

وبناء على هذا ، تكون نفسه صحيفة عمل . لذا يقال له : **﴿اقرأ كتابك﴾** ، اقرأ كتاب اعمالك **﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾** .

إن هذا الأمر هو بدوره شكل من اشكال التعذيب ، حيث يشاهد الانسان المشهد بالشكل الذي يكون ملزماً أن يحكم نفسه ، لذا يعض في ذلك اليوم على يديه من شدة التحسر **﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾**[2] ، أو يقلب كفيه من شدة الحزن **﴿فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها﴾**[3] ، لماذا تاه؟ لماذا رافق الشخص الفلاني او الطائفة الفلانية؟ **﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾**[4] **﴿ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا﴾**[5] ليتني رافقت النبي وآل النبي عليهم السلام ! ليتني لم اصرف تلك الأموال في الطرق الفلانية! هذا

---

(١) سورة الاسراء ، الآيتين(١٣ و١٤) .
(٢) سورة الفرقان ، الآية(٢٧) .
(٣) سورة الكهف ، الآية(٤٢) .
(٤) سورة الفرقان ، الآية(٢٧) .
(٥) سورة الفرقان ، الآية(٢٨) .

الانسان الذي لم يعرف نفسه في الدنيا ، يعرف نفسه جيداً في القيامة كما انه يعرف العالم الخارجي بشكل كامل، لأنه ترفع جميع حجب الظن .

إن الله سبحانه يظهر في ذلك اليوم بوصفه الواحد القهار ، وخلاصة هذان الاسمان أي الواحد القهار سيكون الاسم الشريف «الأحد» ، حيث ليس لشيء وأحد في ذلك اليوم ظهور إلا الله الاحد ومقام الأحدية المنيع ، لأنه إذا تجلى الله بوصفه وحدة قاهرة ، لا يكون هناك مجال لتجلي الغير ، لأن ظهور الحق يجعل الجميع تحت شعاعه ، وفي ذلك اليوم وهو يوم ظهور الحقيقة يشاهد الانسان العالم بشكل كامل كما يرى نفسه جيدا كذلك ، ويكون محاسباً لنفسه ، ومع أن الله سبحانه يعتبر نفسه كافياً للمحاسبة ﴿**كفى بالله حسيباً**﴾[1] و﴿**كفى بنا حاسبين**﴾[2] وامثال ذلك فانه مع هذا يجعل الانسان محاسباً لنفسه ، وهذا بدوره شكل من اشكال التعذيب كما سبقت الاشارة . احد أنواع عذاب الانسان هو أن يكون محاسباً لنفسه ويحكم نفسه ، كما انه مسؤول نفسه أيضاً . الانسان يسأل نفس الانسان .

وقد تقدم في احد المباحث السابقة أنه ليس فقط يُسأل الانسان أين استخدمت الاذن والسمع ، بل يُسأل أين استخدمت انسانيتك؟ ﴿**لا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾[3] أي انه لا يُسأل الانسان فقط بشأن عينه وأذنه ، بل سوف يُسأل بشأن قلبه الذي هو حقيقته . الانسان مسؤول كما أنه مسؤول عنه كذلك .

---

(١) سورة النساء ، الآية(٦) .
(٢) سورة الانبياء ، الآية(٤٧) .
(٣) سورة الاسراء ، الآية(٣٦) .

في البحوث السابقة تم بيان انه يوجد في داخل الانسان ، موجود كامن ، يشكل حقيقة الانسان ، ويُسأل الإنسان بشأن تلك الجوهرة الثمينة كيف نميّتها أو دحرتها؟

نأمل من الله سبحانه ، ببركة محمد وآل محمد ـ عليهم أفضل صلوات المصلين ـ أن يعطي الجميع تلك الرؤية الخاصة ، حتى ندرك ذات الحق ، في رؤية الكون وفي معرفة الانسان وفي معرفة الحق ، وان يجعل قلوب الجميع ، وعاء لمعارف القرآن الكريم وكلام الانبياء والاولياء عليهم السلام ، وان يهدي الله ، هذه البحوث بعد القبول ، كافضل هدية للارواح الطيبة للانبياء والاولياء وأن يرحم الاساتذة والمعلمين ومؤلفي العلوم الالهية ، وان يختم أمور الجميع بالخير والسعادة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الدرس الرابع عشر

كيفية النزول الدفعي والتدريجي للقرآن

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الانبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الانبياء وخاتم الاوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث يدور حول السور السبع التي تبتدىء بكلمة (حم) والمعروفة باسم (الحواميم السبعة) وبما أن لهذه السور السبع مضمون مشترك ، وإن كان لكل منها مضمون خاص ، من هنا كانت بداية كل واحدة من هذه السور السبع هو (حم) وهو حرف مشترك . واهم مضمون مشترك في هذه السور هو تبيين ضرورة الوحي ومبدأ الوحي وما جاء به الوحي وشرح الاصول العامة للدين من التوحيد والنبوة والمعاد .

وقد ذكرت في هذه السور شبهات منكري المعاد المغالطة وتم بيان ادلة ضرورة المعاد بشكل مفصل ، كما ذكرت في هذه السور السبع الشبهات الواهية لمنكري الوحي والرسالة ، أيضاً ، ووضحت البراهين القطعية في

ضرورة الرسالة والوحي ، وتم بيان أوهام منكري المبدأ كما شرحت أدلة ضرورة المبدأ فيها لا بنحو التكرار وإنما ذكرت ادلة كل طائفة في قسم من هذه السور بشكل مستقل ومنفصل ، وردّ عليها كلها بأجوبة قاطعة .

إحدى هذه السور السبع التي مر بعض مباحثها سابقاً ، هي سورة (الدخان) وقد اشتهرت هذه السورة باسم الدخان لورود كلمة الدخان في اوائل هذه السورة .

﴿بسم الله الرحمن الرحيم . حم والكتاب المبين﴾(١) ، بعد هذه الكلمة المتشكلة من حروف مقطعة ، يقسم بالقرآن المبين . واسم القرآن موجود في جميع هذه السور السبع . وبما أن المضمون المشترك لهذه السور هو بيان الوحي وخطوط الوحي ، لذا طرحت قضية نزول القرآن في بداية جميع هذه السور السبع .

﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾(٢) ، لأننا منذرين ، ننذر الانسان من عواقبه السيئة حتى يخاف ويتجنب المخالفة . وقد تم في المباحث السابقة توضيح انزال القرآن وظرف الانزال وصفة ذلك الظرف ، بهذه الصورة وهي أن الله سبحانه قد انزل حقيقة القرآن إلى درجة انها نزلت من عالم التجرد العقلي التام إلى عالم المثال والبرزخ النزولي ومن ذلك الموطن إلى عالم الطبيعة وقد خرج في ثوب الالفاظ والحروف حتى يُقرأ ويُكتب ويُسمع .

إلا أن هذا الكتاب في المراحل العالية مثل **﴿من لدن حكيم عليم﴾**(٣) ومثل **﴿وانه في أم الكتاب لدينا لعلي**

(١) سورة الدخان ، الآيتين (١ و٢) .
(٢) سورة الدخان ، الآية(٣) .
(٣) سورة النمل ، الآية(٦) .

حكيم﴾[1] ، مصان من كل تمثل وصورة برزخية ، فضلاً عن التجسد الطبيعي .

إن نزول القرآن ليس بمعنى التجافي لكي يكون قد نزل من ذلك المقام المنيع ولم يعد له وجود في ذلك المثام الرفيع ، بل بمعنى التجلي حيث يتمثل في موطن المثال البرزخي مع حفظ نشأة التجرد العقلي التام ويتجسد في عالم الطبيعة مع حفظ عالم المثال . على عكس التجافي . فمثلاً عندما يقوم الانسان بانزال كتاب من قفص المكتبة ، فهذا الانزال هو على شكل تجافي وذلك يستلزم أن الكتاب حين ينزل من الطبقة العليا للقفص ، لا يعود له وجود في ذلك القسم العلوي للقفص .

ومعنى نزول القرآن ليس بشكل التجافي بالتاكيد ، بل هو بمعنى التجلي ، أي أن الحقيقة العقلية للقرآن تنزّل إلى درجة بحيث تترتب عليها الاحكام الطبيعية الموجودة . فمثلاً إذا قام حكيم بوضع معنى عقلي في قلب اللفظ ، أو كتبه بالقلم فقد نزّل تلك المعارف الرفيعة ، ووضعها في قالب اللفظ ، حيث نزّل تلك المعارف المعقولة من التجرد العقلي واوصلها إلى مثال البرزخ ونزّلها من هناك إلى العالم الطبيعي ، وهذا لا يعني أن تلك المعارف العقلية تجافت عن مقام الروح المجردة لذلك الحكيم وجاءت إلى صفحة الورق ، ولم يعد هناك شيء في روحه المجردة ، بل ان معنى تنزل المعارف العقلية هو أن رقيقة تلك الحقيقة المعقولة تجسدت بصورة لفظ في عالم الطبيعة ، وهذا نفس معنى انزال القرآن الكريم .

واما قول الله **﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾** فمما يدل على أن ظرف هذا

---

(١) سورة الزخرف ، الآية(٤) .

الفيض كان ليلاً . وقد وصف الله الليلة بانها ليلة مباركة ، وعندما يصف الله شيئاً بأنه مبارك فهذا يدل على أنه يصاحبه خير كثير ، وهذه الليلة المباركة تقع في شهر رمضان المبارك ، بدليل أنه قال: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن**﴾[1] .

إن قوله ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾[2] يعني أنه نزل في ليلة تقدير الاشياء ، ليلة ينظم فيها كل شيء بهندسة ومقدار . ومن مجموع هذه الآيات يستفاد أن القرآن نزل في ليلة وهذه الليلة مباركة وتقدر فيها أمور العالم .

قال تعالى في نفس سورة الدخان هذه: ﴿**إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل امر حكيم**﴾[3] .

وبناء على هذا فإن الليلة التي كانت ظرف نزول القرآن الكريم لها عدة أوصاف تستحق التكريم مثل: مباركة وقدر ، وتفصيل الامور وشرحها على أساس هندسة الهية . وهذه الليلة تقع في شهر رمضان المبارك وجميع القرآن نزل في شهر رمضان المبارك في ليلة قدره ، لكن ليلة القدر على التفضيل واضحة للاوحدي من عباد الله سبحانه ومخفية بالنسبة لعامة الناس .

يقول ابن طاووس رضوان الله عليه في كتابه القيم «الاقبال»: انا اعرف شخصاً يعلم ليلة القدر ، ويقصد بهذا الشخص نفسه ، ويقول: لا تعجبوا من هذا العلم ، لأن الذي يعرف الله ويعرف النبي لا يعجز عن معرفة ليلة القدر ، فالله والنبي أعلى بكثير من ليلة القدر . وهذه المسائل طرحت في

---

(١) سورة البقرة ، الآية(١٨٥) .

(٢) سورة القدر ، الآية(١) .

(٣) سورة الدخان ، الآيتين(٣ و٤) .

البحوث السابقة .

وقد طرحت خلال هذه المباحث ، مسألة وهي أن ظاهر جميع الآيات المذكورة هو أن جميع القرآن نزل في ليلة القدر ، لأنه قال هنا : **﴿حم والكتاب المبين إنا أنزلناه﴾** انزلنا هذا الكتاب المبين في ليلة مباركة ، أو قوله في الآية الكريمة : **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾** أي ان جميع القرآن نزل في شهر رمضان المبارك لا أنه قد نزلت آية أو سورة قصيرة وامثال ذلك فحسب وظاهر بعض الآيات يدل على أن القرآن نزل تدريجياً خلال سنين عديدة ، كقوله : **﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾**[1] ، أي أننا أنزلنا القرآن بشكل تدريجي ، حتى تقرأه أنت أيها النبي على الناس على مكث وكقوله : **﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾**[2] .

فمثلاً كانت تنزل آيات مناسبة للحوادث المختلفة الفردية أو الاجتماعية وحوادث الحرب والسلم والعزيمة والهزيمة وقضايا المقاومة والهجرة وغيرها ، كما أن كثيراً من الآيات المتعلقة بالاحكام نزلت في المدينة وبناء على هذا لا يمكن أن ينزل الكتاب الذي ينظم مجموعة القوانين وعلى أساس وقائع مختلفة واسئلة متنوعة دفعة واحدة وعليه فالقرآن كتاب تدريجي وقد صرح القرآن في الآيات المذكورة أن هذا الكتاب نزل بالتدريج ، والشواهد التاريخية تدل أيضاً على أن هذا الكتاب الالهي جاء بالتدريج .

وبناء على هذا ، فإن بعض آيات القرآن الكريم تدل على أن هذا

---

(١) سورة الاسراء ، الآية(١٠٦) .

(٢) سورة الفرقان ، الآية(٣٢) .

الكتاب السماوي نزل دفعة ، كالآيات التي طرحت في بداية البحث وتحدثنا عنها بينما تدل بعض الآيات الاخرى على أن القرآن لم ينزل تدريجياً ، كما في آية سورة الفرقان وآية سورة الاسراء اللتين جرى البحث بشأنهما مؤخراً وكما يفهم من المضمون الواضح للآيات معنيان ، احدهما كون نزول القرآن دفعيا والاخر كون نزوله تدريجياً ، كذلك يفهم هذا التقسيم الثنائي من عناوين الانزال والتنزيل ، لأن الانزال كما قيل هو عبارة عن النزول الدفعي والتنزيل هو عبارة عن النزول التدريجي .

وقد تقدم الجواب على هذا السؤال والذي يعالج التعارض الابتدائي لهاتين الطائفتين مثل أن اجمال وخلاصة القرآن ومقام قضائه نزل على رسول الله ﷺ في ليلة القدر ، وفي الثلاث وعشرين سنة نزل مقام تفصيله وشرحه وقدره أي أن مقام وحدته ومقام قضائه ومقام جمعه نزل في ليلة واحدة ، ومقام كثرته ومقام تفصيله وبسطه نزل خلال ثلاث وعشرين سنة .

وكان هذا هو الجواب الذي ذكره كثير من المفسرين ، ولكن بيّنا سابقاً أن الجمع الدلالي بين الآيات المتعارضة يجب أن يكون مناسباً مع اصل مضمون الدليل ، وان كان لا ينسجم مع بعض ظواهره ، وفي هذا الصدد لا يمكن تفسير النزول الدفعي للقرآن بمعنى نزوله الاجمالي ، لأنه يستفاد جيداً من الآيات المذكورة في صدر البحث أن القرآن كله نزل في ليلة القدر ، وليلة القدر هي عبارة عن زمان تقدير وتفصيل وتفريق الامور والكثرة وامثال ذلك . ولا يمكن ابداً تفسير نزول القرآن في تلك الليلة بالنزول الاجمالي والبسيط والواحد .

ولكن بيّنا سابقاً أن الاجمال والدفعة على قسمين ، احدهما ينسجم مع التفصيل والكثرة ، والثاني يقع في مقابل ذلك ، حيث لا يتناسب ابداً مع

التفريق والتشتت وعلى هذا ، فإن الانزال الدفعي يكون منسجماً مع تفصيل وكثرة ليلة القدر ، ويوضح ذلك هكذا ، انه بالرغم من أنه يستفاد من سورة الدخان أن القرآن نزل في الليلة التي تنزل فيها جميع الامور بقدر وتفتح جميع المغلقات وتكثّر جميع الوحدات ، وتتبدل جميع القوانين الاساسية إلى فروع كثيرة ، ولكن يجب التدقيق في هذا المعنى حيث أن التقدير في عالم الامكان هو على شكلين .

فالقرآن الكريم يعتبر بعض المراحل الوجودية حد قدر وكثرة وتفصيل وما هو فوق ذلك الحد يعتبره فوق القدر والتقدير . ويصفها كقواعد عامة بعنوان المحكم وامثال ذلك . قال في سورة الحجر : **﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾**[1] . إذن لكل شيء خزينة ، وهذه قاعدة قرآنية ، وينزل من تلك الخزينة بالمقدار الذي يراه الله سبحانه صلاحاً ، وهذه قاعدة قرآنية ثانية .

يستفاد من هاتين القاعدتين أن مقام التقدير والتنزل والقدر ، هو أنزل من خزائن الغيب ، والاشياء في العالم ما دامت من الخزائن فهي لم تقدر ولم تنفصل ، لأنه ليس ثمة تفصيل وكثرة في خزائن الغيب وإنما تقدير الاشياء مقرون بنزولها ، مثل أن تكون هناك علوم تفصيلية كثيرة مخزونة في ملكة انسان مجتهد ، وملكة الاجتهاد هذه التي هي مخزنه العلمي ، هي أمر بسيط ، لأنها ليست اكثر من نورانية علمية ، وحين يُسأل هذا المجتهد ينزل اجوبة مناسبة لكل سؤال من مخزن واحد وبسيط وهو ملكة الاجتهاد النورانية .

---

(١) سورة الحجر ، الآية(٢١) .

ولو سُئل المجتهد الف مسألة واجاب بمقدار كل سؤال ، فهذا لا يعني أنه كان في مخزنه العلمي الف جواب منفصل كل منها عن الآخر ، لأنه في مقام الاجتهاد ليس لديه اكثر من ملكة علمية بسيطة واحدة ، وينزل من ملكة الاجتهاد التي هي مقام نوري وليس فيها تقدير اصلاً الف جواب مقدر ومنفصل كل منها عن الآخر إذن هذا التقدير وهذه الكثرة هي في مقام التنزل وليس في مقام الاجتهاد العالي .

يقول الله سبحانه : **﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾** . فالخزينة نفسها ليست محل تقدير وقدر ، بل هي محل قضا ومحل وحدة واجمال وامثال ذلك .

ولكن هناك تعابير أخرى في القرآن الكريم تدل على أن كل شيء في عالم الامكان له قدر ، والشيء الوحيد الذي لا يدخله القدر ـ بسكون الدال ـ والقدر ـ بفتح الدال ـ ، والتقدير ، وهو غير محدود ، هو الله تعالى فقط . فالله وحدة لا يمكن تقديره ، وكل موجود غير الله له قدر وحد معين .

فمثلاً قال في سورة الرعد : **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾**[1] ، ليس فقط ما ينزل من مخزن الغيب له قدر ، بل ان نفس خزائن الغيب لها قدر . ونفس القضا الذي هو فوق القدر له قدر ، لأنه ذكر الخزائن بالجمع ، قال : **﴿إن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾** أي أن لكل شيء عدة خزائن ولكل خزينة حد خاص . وإذا لم يكن لكل من خزائن الغيب تقدير خاص ولا يكون هناك قدر ، فليس لها كثرة ، وإذا لم تكن هناك كثرة فهي لا تجمع ، أي لا يمكن القول (خزائن) بل يجب القول (خزينة) ، فحيث أن الله تعالى ذكر مخازن

---

(١) سورة الرعد ، الآية(٨) .

الغيب بالكثرة ، حيث قال: ﴿**إن من شيء إلا عندنا خزائنه**﴾ يتضح أن كل خزينة يجب أن تكون منفصلة عن الخزينة الاخرى ويكون لها قدر آخر حتى تكون إلى جانبها وفي قبالها . ولو كانت كلها مغلقة ومحكمة وكانت امراً واحداً ، لما ذكرت بتعبير كلمة الجمع مما يدل على أن للخزائن أيضاً كثرة وقدر ، كما انه قال في سورة الرعد: ﴿**كل شيء عنده بمقدار**﴾ .

ففي سورة الحجر يقول بأن للامور خزائن وهي تدل على الكثرة والقدر وفي سورة القمر يقول: ﴿**إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾[1] . وعنوان الخلق في هذه الآية ليس في مقابل عالم الامر ، بل عنوان الخلق في هذه الامور بمعنى عام يتضمن الامر والخلق .

لأن عنوان الخلق تارة يكون خاصاً ويجعل في مقابل الامر ، مثل ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾[2] ، واحياناً يكون عاماً ويطلق على عالم الأمر أيضاً . في هذه الحالة يقال للملائكة وسائر الموجودات في عالم الامر مخلوقات الهية . محتوى الآية المذكورة أنه كل شيء خلقناه بمقدار . ولكن يجب التدقيق بشكل صحيح في هذا المقدار ، لأن من الممكن أن يكون الشيء بلا قدر بالنسبة إلى ما دونه ولكن له مقدار بالنسبة إلى ما فوقه .

إن الموجود الذي ليس له مقدار بالنسبة إلى عالم الامكان ، ولكن له قدر بالنسبة إلى خالق عالم الامكان هو الانسان الكامل . فالانسان السالك الذي تكون نهاية سيره لقاء الله ليس له قدر . والانسان الكامل الذي قد بدأ الحركة في طريق الصراط المستقيم ، تستمر حركته حتى يصل إلى لقاء الله ، وبعد نيل لقاء الحق ، له سفر آخر من الله إلى سائر الاسماء والصفات الذاتية

---

(١) سورة القمر ، الآية(٤٩) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية(٥٤) .

لله ، وهذا السفر لا ينتهي . فمع أن هذا الانسان السالك له قدر بالنسبة إلى ذات الله المقدسة التي هي مطلق محض ، لكنه بلا قدر بالنسبة إلى عالم الامكان ، وغير محدود والانسان يبدأ في هذا السير الطويل والمبارك من أنزل مراحل الوجود **﴿هل اتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا﴾**[١] ، إلى اعلى مراحله والتي هي عبارة عن اللقاء الباطني مع الله **﴿يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾**[٢] ويحصل على لقاء الله الذي هو أعلى من اللقاء الربوبي **﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾**[٣] .

لقد وعد الله سبحانه بلقاء الله كما بيّن زاد الطريق ، قال: **﴿واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه﴾** . إن مسألة لقاء الله هي فوق مسألة لقاء الرب **﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾**[٤] ، مما يدل على أن هناك لقاء لله وقد خسر المكذبين ، وبما أن لقاء الله ليس له حدود ، إذن ليس ثمة حد للانسان الكامل من هذه الناحية . وجميع الذين كانوا مع الانسان في هذا الطريق الطويل لهم مقدار سواء الذين يساعدونه في هذا الطريق كالملائكة والناس الصالحين المتوسطين أو الذين يمنعونه ويعيقونه فيه ويقومون بقطع الطرق مثل شياطين الإنس والجن . فالجميع يتوقف خلال الطريق ، وهو وحده الذي يواصل طريقه فسواء مرشدو ومعاونو الانسان أو قطاع الطريق ومانعو الانسان جميعهم محدودون ولذا يتوقف الجميع خلال الطريق .

اصدقاء الانسان يتوقفون في الطريق وكذلك اعداؤه أيضاً بينما الانسان الكامل يواصل السير الابدي حتى لقاء الله . والملائكة هم اصدقاء الانسان

---

(١) سورة الدهر ، الآية(١) .
(٢) سورة الانشقاق ، الآية(٦) .
(٣) سورة البقرة ، الآية(٢٢٣) .
(٤) سورة الانعام ، الآية(٣١) .

من اهل الطريقة ، والشياطين هم اعداء الانسان الكامل .

الشيطان يقف في الطريق ليقطعه ولا يَدَع الانسان يواصل هذا الطريق . بينما الملائكة يساعدون في هذا الطريق ، حتى يواصل الانسان السالك هذا الطريق جيداً . والقرآن يقول بأن هؤلاء كلهم لهم قدر ومقطع خاص ، فأعداء الانسان لهم قدر ، ويقطعون الطريق بمقدار وبعد ذلك لا يتمكنون من قطع الطريق ، واصدقاء ومعاونو الانسان لهم قدر ويستطيعون مساعدته إلى مقدار معين ، وحين يعبر الانسان المتكامل ذلك الحد ، عند ذلك لا يستطيع الصديق المساعدة كما لا يناله العدو .

ويوال الانسان الكامل تلك المرحلة النهائية تحت ولاية الله ، وقد ذكر تعالى في القرآن الكريم أن الطريق الذي يتمكن الانسان في مسيره أن يصل إلى الله ، هو مستقيم **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾**[1] **﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾**[2] وذلك الطريق المستقيم له هذه الميزات وهو أنه لا يوجد فيه اختلاف بشكل لا تتلاءم بعض اجزائه مع اجزائه الاخرى وليس فيه تخلف ليكون احد أقسامه طريقاً والقسم الآخر مقطوعاً وليس طريقاً كما ان السالكين في هذا الطريق ليسوا مختلفين مع بعضهم .

فالصراط المستقيم هو الذي لا يكون فيه اختلاف ولا تخلف ولا بين سالكيه مخالفة واختلاف . وإذا كان طريق ما غير ممهد ، كان وبعضه مرتفع وبعضه الآخر منخفض فهذا الطريق مختلف وليس متساوٍ . فهو طريق ولكنه غير متساوٍ . وإذا كانت بعض اجزاء الطريق يمكن السير فيها وبعضها مقطوعة ، وغير قابلة للمسير ، فهو لا يكون صراطاً مستقيماً ، لأن قسمه

---

(١) سورة الانعام ، الآية(١٥٣) .

(٢) سورة هود ، الآية(٥٦) .

الثاني مقطوع وغير قابل للمسير ، وقد تخلف عن القسم الأول . وكذلك لا يكون هناك خلاف بين السائرين في هذا الطريق .

إن الانبياء والاولياء الذين هم سالكو هذا الطريق لا يخالفون بعضهم البعض ، فكل نبي جاء أيد كلام الانبياء السابقين . **﴿مصدقاً لما بين يدي﴾**[1] إذن ليس هناك خلاف بين السائرين في هذا الطريق **﴿إنما المؤمنون اخوة﴾**[2] ، لأن المؤمن ابن النور والرحمة (أبوه النور وامه الرحمة)[3] ، كما روى صاحب المحاسن البرقي عن الإمام السادس عليه السلام .

إن مجتمع المؤمنين يعيش بالعقل والعاطفة فهم يفهمون المسائل العالمية جيداً وكما ان لهم علاقة ومحبة مع بعضهم البعض . فليس بينهم خلاف ، لذا قال: **﴿إنما المؤمنون اخوة﴾** ، انهم يتمتعون دائماً برؤية صحيحة وعلاقة صحيحة لانهم كلهم ابناء عقل واحد ونور واحد . فليس ثمة خلاف بين السائرين في هذا الطريق . ونفس هذا الطريق ليس فيه اختلاف ومخالفة ولكن هناك قطاع طرق في هذا الطريق . والشياطين هم قطاع هذا الطريق . انهم يقفون في هذا الطريق ، فلا هم يسيرون فيه ولا يَدَعون السائرين فيه ، يسيرون .

إن القرآن الكريم يذكر الشيطان بوصفه قاطع طريق ، يمنع السائرين ، وينقل كلام الشيطان هكذا: **﴿لاقعدن لهم صراطك المستقيم﴾**[4] ، لكن

---

(١) سورة الصف ، الآية(٦) .
(٢) سورة الحجرات ، الآية(١٠) .
(٣) المحاسن للبرقي ، ج١ ص١٣١ .
(٤) سورة الاعراف ، الآية(١٦) .

النبي ﷺ ، موجود في هذا الطريق ، يدل عليه ويسير فيه ويأخذ معه الآخرين **﴿يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم﴾**[1] أي إنك على صراط مستقيم ، بل أنت صراط مستقيم .

فالانسان الكامل ، يسير ويأخذ معه غيره ، والشيطان لا يسير ولا يَدَع احداً يسير . مثل المنافقين والكافرين **﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾**[2] . انهم بعيدون ويبعدون ويمنعون . وقد تقدم بحثه سابقاً .

ولكن إلى متى يستطيع الشيطان قطع الطريق؟ إلى أي حد يمكنه العرقلة؟ إن الانسان إذا واصل هذا الطريق وسارع **﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾**[3] وبعد السرعة استبق **﴿فاستبقوا الخيرات﴾**[4] وامثال ذلك ، وبعد السرعة والسبقة اصبح إماماً **﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾**[5] أصبح نموذجاً واسوة ، عند ذلك لا يصل إليه الشيطان .

ولما كان الصراط المستقيم ، صراطاً باتجاه الاعلى ، فإن الشيطان لا يصل من الاسفل إلى الأعلى وقد اعترف هو بعجزه وقال إنه يضل جميع هؤلاء **﴿الا عبادك منهم المخلصين﴾**[6] . إذن مقدار وهندسة الشيطنة محدودة أيضاً ، وكما أنه ليس للوهم طريق في المسائل العامة للعقل التي للعقل فيها حضور بشكل مستقل ، وليس للتخيل طريق في مرحلة العقل الكامل ، وليس للوسوسة طريق في مقام الشهود المحض ، فليس لقطاع

---

(١) سورة يس ، الآيات (١ إلى ٤) .
(٢) سورة الانعام ، الآية(٢٦) .
(٣) سورة آل عمران ، الآية(١٣٣) .
(٤) سورة البقرة ، الآية(١٤٨) .
(٥) سورة الفرقان ، الآية(٧٤) .
(٦) سورة ص ، الآية(٨٣) .

طريق العقل العملي طريق في مقام التوحيد الافعالي والصفاتي والذاتي ، ولا لقطاع طريق العقل النظري طريق إلى العقل النظري على صعيد التخيل والوهم ، فكذلك الشيطان لا مجال له لقطع الطريق على العباد المخلصين .

إن مقدار الشيطنة محدود في نظام الوجود والشيطان له حد ، وبعد ذلك الحد لا يبقى مجال لوسوسته وقد تم بيان سرّ هذا سابقاً . في المرحلة التي لا يوجد فيها باطل لا يوجد كذلك شك ووسوسة ، لأن الشك والوسوسة هي في المحل الذي يكون هناك حق وباطل ، فيكون هناك شيء مشكوك ، هل هو من قسم الحق أم من قسم الباطل؟

ولكن في الموطن الذي لا يوجد شيء غير الحق ، ولا يكون للباطل طريق ، فان الوسوسة والترديد ليس لهما طريق هناك . فمثلاً لو لم يكن في هذه المكتبة حرف غير حرف الالف لكنا جميعاً على يقين أن كل حرف نراه من بعيد أو من قريب هو حرف الالف ، لأنه لا يوجد هنا حرف آخر غير الالف . ولكن لو كانت في هذه المكتبة حروف اخرى مثلاً حرفين ، أحدهما كان حرف الالف والثاني حرف الباء عند ذلك لو رأينا حرفاً من بعيد لحصل لدينا شك هل أن هذا الحرف هو الف أم باء؟ فلأنه يوجد حرفان ، يوجد أيضاً ، فرد مشكوك ، أما لو لم يكن في هذه المكتبة غير حرف الف ، لما شككنا ، ولجزمنا بكل ما نراه أنه الف .

والعباد المخلصين ليس لديهم شك ووسوسة في تلك المرحلة العالية ، من الوجود ، لانه ليس في ذلك الموطن محل للباطل ، وحين لا يكون ثمة محل للباطل لا تكون هناك وسوسة ابداً . فالشيطان لا يصل إلى ذلك المقام المنيع . هندسة الشيطنة محدودة . وعمر العدو قاطع الطريق والمانع عن طي الطريق ، محدود بحد معين ، ومن تلك المرحلة وما بعدها

يطوي الانسان السالك ، الطريق بمساعدة اصدقائه وهم الملائكة . وعندما يرتفع عن كل مرحلة يتوقف عدد من اصدقائه ، لأن كل واحد من الملائكة خلق بقدر معين **﴿وما منا إلّا له مقام معلوم﴾**[1] حتى يصل إلى مرحلة بحيث يقول افضلهم كجبرئيل سلام الله عليه : «لو دنوت أنملة لاحترقت»[2] ، تحرقني شدة نورانية سرادقات الجلال والجمال ، لذا لا يستطيع الارتفاع عن ذلك المقام الرفيع .

إن السالك الالهي ، يقطع المراحل النهائية تحت ولاية مباشرة من الله . والخلاصة أن المسألة التي قالها جبرئيل سلام الله عليه كاعتراف بالعجز في معراج الرسول الاكرم ﷺ تقولها جميع المخلوقات في ظروف خاصة ، لأن كل مخلوق له حد وقدر إذا اراد ان يرتفع عنه فانه يحترق . فأعداء الانسانية لهم قدر لا يستطيعون الارتفاع عنه ، واصدقاء الانسانية كذلك لهم حد وقدر لا يتمكنون الارتفاع عنه ، لأنه **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾** .

وبالطبع فإن الانسان الكامل له مقام لا تصل إليه ايدي الاصدقاء حتى يساعدوه كما لا تصل إليه ايدي الاعداء حتى يتطاولوا عليه ، وقد قطع رسول الله ﷺ هذا المقام المنيع ، كما قطعه الناس الكاملون الذين هم بمنزلة نفس رسول الله .

الخلاصة أن اصل الخلق مقرون بالنظام والهندسة ، والقول ان الحد هو في عالم القدر وليس في عالم القضاء انما هو ناظر إلى حد خاص وإلا فجميع الاشياء في عالم الخلق ممزوجة بالحد . كل العالم له قدر وحد ،

---

(١) سورة الصافات ، الآية(١٦٤) .

(٢) البحار ، ج١٨ ص٣٨٢ .

قدر في مقابل القضاء وهو قدر خاص ، وقدر عام يشمل القضاء ايضاً ، وذلك القدر مقرون مع اصل الخلق .

قال تعالى : ﴿**فيها يفرق كل امر حكيم، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين، رحمة من ربك**﴾[1] ، والمراد من الرحمة في هذه الآية هي الرحمة المعنوية والخاصة ، مثلا رسالة النبي هي رحمة ، وتنزيل الكتاب السماوي رحمة . وتخويف الانسان من العواقب المرة للفساد رحمة ، كل هذا رحمة الهية خاصة ﴿**إنه هو السميع العليم**﴾[2] الله يسمع الاسئلة كما يعلم كيف يجيب عنها جواباً مناسباً .

﴿**رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين**﴾[3] أي ان الله الذي يرسل الوحي والنبوة وسائر البركات ، هو نفس ذلك الإله الذي يربي كل النظام الموجود إذا كان لديكم يقين بأن الله يدير نظام العالم ، فان الله نفسه هو الذي ارسل نبيّاً لهدايتكم طبعاً إذا قبلتم . وحسب التعبير اللطيف لصاحب الكشاف ، ﴿**إن كنتم موقنين**﴾ تقال في الحالة التي يصل لشخص احسان وكرم من قبل أحد ، يقال له ان هذا السخاء والكرم والجود معروف من ذلك المعطي إذا كنت سمعت .

مثلاً إذا كان هناك شخص له شهرة بالسخاء والكرم ووصلت منه كرامة إلى شخص آخر يقال ان هذه الكرامة والسخاء هي من الشخص الفلاني المشهور بالكرم ، إذا كنتم سمعتم . ﴿**إن كنتم موقنين**﴾ أي إذا علمتم أن رب السماوات والأرض هو إله الجميع فقد جاء نبي لهدايتكم من قبل الله ،

---

(١) سورة الدخان ، الآيات (٤ إلى ٦) .
(٢) سورة الدخان ، الآية(٦) .
(٣) سورة الدخان ، الآية(٧) .

لأنه رب كل هذا النظام ، والانسان يجب أن يعبد ربه ، فليس هناك معبود إذن إلا الله ، فاعبدوه .

﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الاولين﴾[1] .

إلى هنا طرح مسألة التوحيد الربوبي ومسألة ضرورة الوحي ومسألة الربوبية في تقدير كل العالم ، بأن الله تعالى ينظم كل شيء بمقدار ، وانه هناك قدر للرسالة وكذلك للهداية ، كما ان هناك مقداراً لربوبية السماء والارض .

ولكن في قبال جميع هذه اللطائف يقول: **﴿بل هم في شك يلعبون﴾**[2] كلامهم في حدود الشك لا اليقين ، وعملهم في حدود اللعب لا العمل الصالح . وفي تفسير (لعب) كما تم بيان ذلك سابقاً من حيث الاشتقاق والحدوث ان هذا الفرع مأخوذ من اصل لغوي وادبي من مادة لعاب . ان معنى كون الدنيا لعب وامثال ذلك هو أن عمل أهل الدنيا وفكرهم وسيرتهم هو في مستوى لعاب ، ولعاب الفم لا يروي عطشاناً ابداً ، بل ما ان يرطب اللعاب الشفة فانها تجف ، فذكر ان الدنيا ليست اكثر من لعاب ، لا ترفع ابداً عطش الانسان ، والعاب أهل الدنيا هي بمستوى مضمضة بلعاب الفم الذي لا يروي عطشانا أبداً .

إن الشك والترديد هو بمستوى لعاب الفم كما ان لهو الاطفال في ساحة اللعب هو بمستوى اللعاب حيث يأنسون بذلك في فترة خاصة من الحياة ، ويفقدون العمر بدون أن يستفيدوا من ذلك ، بما يكفي .

---

(١) سورة الدخان ، الآية(٨) .
(٢) سورة الدخان ، الآية(٩) .

حين سئل الإمام السادس سلام الله عليه ، من الإمام بعدك؟ قال : (من لا يلهو ولا يلعب) ، لا يلهيه شيء ولا يشغل نفسه بشيء ، وفي هذا الحال دخل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، ومعه نعجة صغيرة فأمرها قائلاً : (اسجدي لربك) . أي اسجدي لله ، فاحتضن الإمام السادس سلام الله عليه ، ابنه في حضور هذا الشخص ، وقال : (بأبي من لا يلهو ولا يلعب)[1] .

إن الطفل يأخذ النعجة الصغيرة للعب والاستئناس ، ولكن ليس الطفل الذي كموسى بن جعفر عليه السلام . هؤلاء ليسوا من اهل اللهو واللعب . عندما بدأ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، باب الحوائج إلى الله ، يصلي في مكان مزدحم بالناس قيل لجعفر بن محمد الصادق الإمام السادس عليه السلام ، إن ابنه موسى عليه السلام صلّى في مكان مزدحم وان عدد من الناس كانوا يمرون بالقرب من مصلاه ، سأل الإمام السادس عليه السلام ابنه كيف صلّى في مكان مزدحم بالناس ، وكان يمر بالقرب من سجادته بعض الناس ، فقال ما مضمونه انني كنت أعبد الذي كان اقرب الي من العابرين قرب مصلاي ، كنت اعبد الله الذي كان اقرب إلي من هؤلاء الذين كانوا يَقتربون مني .

من مقامات السالك الالهي هو مقام الاحسان (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك) . وهذا المقام هو ثمرة اليقين .

إن ما لدى الآخرين هو لعب ، وشبهة أهل الترديد هي لعابهم ، وتلك الشبهة ليست علماً وماء زلالا يطفىء عطش الجهل على الاطلاق . العلم هو الماء الزلال الذي يروي عطش الجهل . وشبهة وشك العقائد المادية ليست

---

(١) الكافي ، كتاب الحجة ، باب الاشارة والنفي علي بن الحسن عليه السلام .

إلا لعاب فم ، ولا يمكن للانسان المتعطش للمعارف أن يرتوي بشبهات الماديين هذه على الاطلاق .

قال تعالى: ﴿**بل هم في شك يلعبون**﴾ ولو يقومون ببناء باطنهم لجرى من داخلهم ينبوع زلال وماء خالص ، فمثلاً لو أن شخصاً قام بالبناء في قلبه اربعين يوماً ، لجرت ينابيع الحكمة من قلبه (من أخلص لله اربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[1] .

هذا الأمر بالسير والسلوك ، امرنا به المعصومون عليهم السلام ، في جوامعنا الروائية ، اولئك الذين ساروا هذا الطريق ، ووصلوا إلى محل بحيث قال اصدقاؤهم: (لو دنوت انملة لاحترقت) كما قال اعداؤهم: ﴿**إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ ، فاعترف قاطع الطريق انه لا يصل اليهم حتى يتطاول كما ابدى الصديق عجزه وانه لم يعد يستطيع المساعدة أو الصحبة أولئك قالوا ، (من أخلص لله اربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) ، لماذا تنشغلون بلعاب الفم؟

أربعون يوماً يراقب الانسان حياته ، طعامه ، نومه ، كلامه ، عينه واذنه ، تجري ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه . أليس من المؤسف أن يلهو هذا الانسان الذي لديه في داخله قنوات وينابيع زلال ، بلعاب الفم؟!

نأمل بحق محمد وآل محمد عليهم آلاف التحية والثناء ، أن تجري ينابيع المعارف القرآنية وحكمة أهل البيت من قلوب الجميع ، وأن يرحم معلمينا وأن يختم عاقبة امور الجميع بالخير والسعادة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) البحار ، ج٧٠ ص٢٤٩ .



الدرس الخامس عشر

الشدة والرخاء امتحانان الهيان

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلّى الله على جميع الانبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الاوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث يدور حول المضمون المشترك للسور السبع التي تبدأ بالحروف (حم) . واهم مضمون مشترك لهذه السور السبع ، هو شرح الخطوط العامة للوحي وبيان ما جاء به الوحي وهو التوحيد والنبوة والمعاد إلى جانب الاحكام الاخرى .

احدى تلك السور السبع هي (حم الدخان) ، وقد تم بحث بعض آياتها ووصلنا إلى هذه الآية الكريمة التي تقول: **﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾**[1] وبعد اقامة البرهان على التوحيد الربوبي والتوحيد العبادي قالت: **﴿بل هم في شك**

(١) سورة الدخان ، الآيتين(١٠ و١١) .

يلعبون﴾[1] انهم يلهون بالشك لاعبين ، في حين أن بامكانهم أن يجروا ينابيع الحكمة من باطنهم .

ان الفرق بين المؤمن والكافر ، هو أن ينابيع الحكمة تجري من باطن المؤمن نتيجة الاخلاص بينما الكافر يكتفي بلعاب فمه فيريد أن يرفع به العطش .

إن اللعاب يعني الماء الذي يسقط من الفم وهو قريب من اللعب ، فكما ان لعاب الفم لا يروي أي عطشان ، فإن الاعيب الدنيا لا توصل أي انسان متعطش للكمال ، إلى الكمال . والشيء الوحيد الذي يروي عطش الانسان الطالب للكمال هو ينابيع الحكمة الجارية ، التي تجري من داخله . وفي جوامعنا الروائية أمر باصلاح داخل القلب (من اخلص لله اربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[2] وقد تقدم بحثه .

ثم يقول تعالى بشأن الذين يعيشون في شك وترديد ويأنسون بالاعيب الدنيا ان أمامهم يوماً مليئاً بالدخان والخطر: **﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾** .

هذا الدخان الغليظ المؤلم هو إما كناية عن أنهم لا يرون السماء المفتوحة والواسعة نتيجة شدة فقرهم وبؤسهم وجوعهم ، لأن عيونهم اصبحت لا ترى بوضوح ، أو أن آيات عذاب اخرى في السماء ظهرت بصورة دخان أو هي مقدمة ظهور القيامة الكبرى .

على أي حال . إن تلك الظاهرة هي عذاب لتنبيه الفاسقين ، في أن

---

(١) سورة الدخان ، الآية(٩) .

(٢) البحار ج٧٠ ، ص٢٤٩ .

يكفوا عن التجاوز والتعدي . ﴿**يغشى الناس هذا عذاب أليم**﴾ . يغشى ذلك الدخان المؤلم هذه الطائفة الفاسقة ويدخلها في العذاب .

إن تعذيب الله سبحانه ، متنوع ، فتارة يكون بالغرق حيث يغشي الماء الجارف الكفار ﴿**فغشيهم من اليم ما غشيهم**﴾[1] ، وتارة يكون العذاب دخاناً يغشى المفسدين ويحيط بهم .

والمجرمون حين يرون هذا العذاب الاليم ، يقولون: ﴿**ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون**﴾[2] .

فيقول الله سبحانه: ﴿**أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون، انا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون**﴾ .

﴿**ثم تولوا عنه**﴾ اداروا ظهرهم لهذا النبي ، بدلاً من أن يتجهوا إليه ﴿**وقالوا معلم مجنون**﴾ اتهموه ، فقالوا بأن ما يقوله هو كلام علّمه إياه ، الآخرون ، وليس وحياً . وليس لديه رشد عقلي ، إنه مجنون والعياذ بالله .

فلا هذا الكلام هو له ، ولا هو متلقٍ عاقل ، فكلامه كلام الآخرين كما أن لديه جنون كذلك . وليس لديه قدرة على التحليل حتى يتقبل بشكل صحيح .

(مجنون) ، اتهموا النبي ﷺ بهذه التهمة ، لأن اقواله لم تكن تطابق عقل اولئك الجهلاء ، حيث انهم كانوا يرون الشيء الذي ينطبق على افكارهم الساذجة معقولاً ويتصورون الشيء الذي يتعارض معهم غير معقول .

---

(١) سورة طه ، الآية(٧٨) .

(٢) سورة الدخان ، الآية(١٢) .

لقد تحمل الرسول ﷺ ، هذه الاهانات والتهم وواصل طريق الارشاد والتعليم والتزكية . يقول الله سبحانه انه يرفع هذا العذاب لاتمام الحجة ، لنرى هل انهم ينتبهون ويستيقظون ويلتفتون إلى الحق ، في حال الرفاه والرخاء ، أم انهم يسلمون انفسهم مرة ثانية إلى فساد الذنب ولا يتخلون عن الظلم؟

﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً انكم عائدون﴾ أي إننا نرفع هذا العذاب في المستقبل القريب ، أو نرفع هذا العذاب فترة ، حتى يتبين ماذا تعملون؟ فسوف تعودون إلى نفس فسادكم وطغيانكم فلن تكون هذه الفترة من العذاب ، فترة تربية وتعليم لك . إننا انزلنا هذا العذاب المؤقت لتوعيتكم وتحذيركم ، ولكنكم ما إن تخرجون من هذا القيد ، تعودون مرة اخرى إلى تجاوزكم السابق .

جاء في سورة (حم الزخرف) ، التي هي قبل (حم الدخان) ، بان الله يرسل العذاب كاختبار . فيقول اولئك انهم يؤمنوا إذا ارتفع العذاب ؛ فيرفع الله العذاب ، فيعودون مرة ثانية إلى طغيانهم وطلبهم للرفاه: **﴿وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون﴾**[1] .

جاء في سورة الدخان . إن الكفار كانوا يقولون بشأن الرسول الاكرم ﷺ : **﴿معلم مجنون﴾** والعياذ بالله كان الكفار والمنافقون يهينون ويحقرون الذين يأتون بالوحي وحملة النبوة ويردون سلبياً على دعوتهم وذلك انه **﴿تشابهت قلوبهم﴾**[2] .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية(٤٩) .

(٢) سورة البقرة ، الآية(١١٨) .

طلب آل فرعون من موسى الكليم ان يسأل الله بما له من عهد عنده وهو انه إذا تاب شخص وآمن ، تقبل توبته وايمانه ويرفع العذاب ان يرفع العذاب ﴿**إننا لمهتدون**﴾ أي نتعهد أن نهتدي ونرى الطريق ونطويه .

﴿**فلما كشفنا عنهم العذاب**﴾[1] حين رفعنا العذاب وحصلوا على الرفاه والرخاء ﴿**إذا هم ينكثون**﴾[2] . وقال في سورة (حم الدخان): ﴿**إنا كاشفوا العذاب قليلاً انكم عائدون**﴾ .

إن العذاب والضغط والشدة تطرح في القرآن بوصفها امتحان الهي والله تعالى تاره يبتلي الانسان بالنعمة حتى يمتحنه ، وتارة يبتليه بالعذاب والعناء والضغط اختباراً له أيضاً ، ويظهر ما في باطنه من خلال الامتحان بالرخاء أو بالعناء .

وكان كل نبي يأتي يتعرض قومه إلى هذه الامتحانات الصعبة حتى ينضجوا ويقووا بشكل كامل في فترة الضغط والشدة هذه . أي ان الامم إذا تعرضت للضغط احياناً فهو من اجل أن ينتبهوا ، ويعلموا أن الرفاه لا يستمر ويعلمون أن عالم الطبيعة متغير ، وهي تحت تدبير مبدأ متعال ، وليست تحت تصرف احد .

إن ما جاء في سورتي (حم الزخرف) و(حم الدخان) ، طرح في سورة الانعام وسورة الاعراف بوصفه قاعدة عامة .

قال تعالى في سورة الانعام: ﴿**ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم**

---

(١) سورة الزخرف ، الآية(٥٠) .
(٢) سورة الزخرف ، الآية(٥٠) .

يتضرعون﴾[1] .

فلا قدرة المتجبرين ثابتة ، ولا رخاء ورفاه المترفين دائم ، ارضاء الغرائز الطبيعية والحيوانية في الشهوة والغضب ، والجذب والدفع والميل والنضرة يظل قائماً والغرض من ذلك الامتحان هو أن يعودوا ويتضرعوا وينتبهوا ولكنهم ظلوا في غيبوبة .

لماذا لا ينتبه هؤلاء في حال الخطر؟ لماذا لا ينضجوا في فترة الضغط؟ لماذا لا توقظهم المشاكل والعناء؟ الم يعلموا أن الضغط والشدة امتحان؟

إن القرآن يشجع على انه يجب أن ننضج في مدرسة الشدة ، وفي مدرسة امتحان الضغوطات **﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾**[2] لماذا يتضرعوا في وقت الشدة ولا يستيقظون ، حيث لا قدرة في العالم غير قدرة الحق!؟

إن اليقظة تستلزم الرؤية التوحيدية ، وأثر التوحيد هو الانقطاع عن النفس والانقطاع عن الآخرين والارتباط بالقدرة الالهية التي لا تقبل الزوال أي أن تروا انفسكم اداة من الادوات اللامتناهية في الخلق كما تروا الآخرين تحت قوة الخالق الواحد كذلك .

لماذا لا يتضح لكم هذا المعنى في وقت الضغط ، وهو انه ليس هناك مبدأ حاكم في العالم سوى الله؟! **﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾** لماذا لا يفهم هؤلاء في زمان الشدة أن الأمر بيد الله فقط؟

---

(١) سورة الانعام ، الآية(٤٢) .

(٢) سورة الانعام ، الآية(٤٣) .

إن منطق الوحي هو أن الله سبحانه لا يجعل أحداً في ضغط وعناء عبثاً وانما ذلك لاجل امتحان وتكامل الناس ، وإذا أراد الله تعالى الامتحان فانه يامر جميع المأمورين الالهيين وتستعمل جميع الاسباب والعلل لأجل الامتحان ، حتى يحصل الناس على كنز الكمال في داخل عناء الامتحان .

القرآن يرغّب ويحث الجميع على ان يعتبروا فترة العناء ، مدرسة تعليمية فيقول بأن مفتاح السماوات والارض بيد الله ، أي ان ظاهر وباطن وغيب وشهادة السماء بيد الله . إن نظام الخلق هو نظام العلة والمعلول ، فكل علة هي مفتاح معلول ، وكل حادثة إذا اريد حدوثها فانها انما تحدث عن طريق علتها .

إن النظام العلّي والمعلولي ، هو نظام القفل والمفتاح ، ومفتاح هذا النظام بيد الله ، عالم الشهادة معلول لعالم الغيب ، وغيب هذا العالم ، بيد الله .

ويقول القرآن أيضاً: ﴿**له ملك السموات والأرض**﴾[1] أي ان ظاهر السموات والارض هو لله ، ويقول كذلك: ﴿**له مقاليد السموات والارض**﴾[2] ويقول: ﴿**لله غيب السموات والارض**﴾[3] ، أي ان باطن السموات والارض هو لله .

إذا كان نظام الخلق ، نظاماً علّياً ومعلولياً ، فإن العلة والتي هي غيب المعلول تحت تصرف الله ، يجب أن يفهم الانسان المتألم الذي يعيش في

---

(١) سورة البقرة ، الآية(١٠٧) .
(٢) سورة الزمر ، الآية(٦٣) .
(٣) سورة هود ، الآية(١٢٣) .

امتحان الضغط أن لا أحد يستطيع عمل شيء إلا الله سبحانه ، الذي هو مالك مفتاح العالم وكل المفاتيح عنده ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾[1] كما ان جميع الخزائن عنده كما تقدم بحث ذلك . وكل ما ينزل من المخزن ، هو بتنظيم من الله سبحانه .

احدى افضل النعم الالهية هي الضغوطات المربية والألم الذي يؤدي إلى كنز الكمال . لأن الانسان يستيقظ ويرى أن الأمر هو بيد المبدأ الذي يملك مفتاح عالم الوجود . ﴿عنده مفاتح الغيب﴾ ، إن الملائكة تعلم كثيراً من مفاتح الغيب والائمة عليهم السلام يعلمون ، ولكن كل تلك المفاتيح هي بيد الله سبحانه .

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه أفضل صلوات المصلين ـ وهو الذي كان يقظاً دائماً: (يا أيها الانسان ما جرأك على ذنبك وما غرك بربك وما أنسك بهلكة نفسك . . . أم ليس من نومتك يقظة . . .)[2] .

إذا لم يستيقظ احد بإرادته ، فإنه يوقظ بالشدة ، والجنة هي لاولئك اليقظين . إن العبد الصالح لله سبحانه ، الذي تنتظره . الجنة ، يكون مظهراً لله الذي لا ينام أبداً وليس من أهل الغفلة . ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾[3] المؤمن لا ينام أبداً ، يقظ في يقظته ، ونومه يقظة .

لقد ربّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، اصحابه الخاصين تربية بحيث كانت تحل لهم كثير من الحقائق في عالم النوم . كان يسألهم احياناً في الصباح : (هل

---

(١) سورة الانعام ، الآية(٥٩) .

(٢) نهج البلاغة ، فيص الاسلام ، الخطبة ٢١٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية(٢٥٥) .

من مبشرات)[1] أي ماذا رأيت في الرؤيا في الليلة الماضية؟

إن اولياء الله يقظون دائماً ، كما ان الاشخاص العاديين نائمون دائماً حتى يستيقظوا بالموت (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)[2] والشخص الذي يمكن أن تكون له رؤية صادقة هو الذي يكون مراقباً ومحاسباً لنفسه في اليقظة فمثلاً يذهب العالم المحقق الى المكتبة ويغلق الباب بوجه الآخرين حتى لا يزعجونه ولا يسمع الاصوات ولا تلفت نظره المناظر الخارجية ، وهذا من اجل أن يكون محفوظاً عن كل شيء غريب على الفكر ، حتى يفهم شيئاً .

والمؤمن الذي هو ولي من اولياء الله بما انه يمتنع عن كل ما هو اجنبي عن تهذيب النفس وتزكية الروح فهو بناء على هذا عدا عن انه في النوم لا يسمح لأي تلوث بالوصول إلى باطنه يبقى محفوظاً أيضاً عن الامور العادية التي لا يكون الارتباط بها ذنباً لكنه عامل انشغال ، لذا تكشف له معارف في الرؤيا ويجري من داخله ينبوع الحكمة .

إن النوم بالنسبة لولي الله ، هو بمثابة صف دراسي . ان الذي يأكل قليلاً وينام بذكر الله ويتلو كل ليلة المسبحات الستة ولا يحرم من قراءة سورة (الواقعة) ، وينام بذكر الله ومع الطهارة ، يحصل على رؤيا صالحة .

حين سئل أحدهم ماذا ادخرت لابنائك؟ قال: علمت اطفالي سورة (الواقعة) ، وهم يقرؤونها كل ليلة قبل النوم ، والله سيعطي لعبده الصالح توفيق الحصول على المال الحلال .

---

(١) الكافي ، ج٨ ص٩ .

(٢) مئة كلمة للجاحظ .

إن قلوب اولياء الله الحقيقيين ، هي كالجنة ، التي لا تنام ولا هي مكان نوم ، لأن الجنة يقظة دائماً كما أن أهل الجنة يقظون دائماً .

وإذا طرح في القرآن الكريم ، كلام عن المقيل والنوم نصف النهار فهو في البرزخ ﴿أحسن مقيلا﴾[1] في البرزخ توجد قيلولة ونوم قليل ، اما في الجنة فليس هناك نوم ، والذي كان في الدنيا يقظاً دائماً ، فانه يذهب إلى عالم ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ .

إن التعليم البليغ القرآني هو أن الله سبحانه حي بالذات ، فاسعوا أن تكونوا حيًّاً بالعرض . ولما كان الله حياً ويقظاً دائماً ، ولا طريق أبداً للنوم ومقدمات النوم في حرم الله ، فاسعوا أن تكونوا يقظين بالعرض دائماً .

تصل رسالة في الجنة ، من قبل الله تعالى ، إلى أهل الجنة ، كتب في عنوان الرسالة (من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت) ، هذه الرسالة هي من الله الذي لا يموت إلى المؤمن ولي الله الذي لا يموت ابدا ، لأنه تجاوز الموت . بل ان الموت قد مات اساساً . ولم يعد هناك موت لأهل الجنة . الله حي خالد بالذات ، وولي الله حي خالد . في الجنة ، بالعرض .

وهذا الكلام ذكره كثير في الحكماء الاسلاميين والعرفاء الالهيين في كتبهم العقلية والعرفانية ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وذكروا له معاني رفيعة .

وقد ذكر الاستاذ الكبير ، الإمام الخميني ـ رضوان الله تعالى عليه ـ هذا الحديث الشريف في رسالته الشريفة المسماة (مصباح الهداية إلى الخلافة والامامة) (وقد كتب هذه الرسالة العلمية العميقة قبل حوالي

---

(١) سورة الفرقان ، الآية(٢٤) .

خمسين سنة ، حيث كان عمره الشريف آنذاك حوالي تسعة وعشرين سنة أو ثلاثين سنة ، وادراك هذا الكتاب العميق صعب جداً بالنسبة لاهله فضلاً عن الآخرين البعيدين عن هذه المسائل ذكر هذا الحديث . وشرح ان رسالة تأتي من الله تعالى ، للمؤمنين في الجنة ، كتب في تلك الرسالة ما مضمونه : من الله الذي لا يموت إلى المؤمن الذي لا يموت بعد الآن . كتب في تلك الرسالة ما مضمونه ان كل ما اريده يكون ، وقد اذنت لك أن يحصل لك كل ما تريد في الجنة .

وهذا هو المقام الرفيع ، حيث يصبح مظهراً للارادة التامة لله سبحانه ، اليس من المؤسف على ذلك المقام الرفيع ، أن يبيعه الانسان بمتاع الدنيا؟ جاء في (الحواميم السبعة) بأنه يقال للمجرمين انهم فقدوا تلك الطيبات في الدنيا .

الخلاصة أن فترة الضغوطات هي فترة تربوية كمثل فترة المدرسة ، حتى تتيقظوا وتعلموا ان جميع الامور بيد رب العالمين ، ويجب أن تعبدوه وتستعينون به فقط .

ومع أن مسألة امتحان العناء طرحت في سورة (حم الدخان) و(حم الزخرف) ولكن القاعدة العامة لها جاءت هكذا في سورة الانعام: ﴿**فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا**﴾ .

كان استاذنا الكبير آية الله المرحوم الشيخ محمد حسين فاضل التوني رضوان الله عليه يقول كلاماً لطيفاً في الدرس ، وهو ان الانسان هو عبد الله ويذهب إلى مولاه ﴿**يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه**﴾[١]

---

(١) سورة الانشقاق ، الآية(٦) .

وحين يذهب العبد إلى مولاه ، يجب أن يأخذ معه هدية تكون جديرة باهتمام المولى ، أي يجب أن يأخذ معه شيئاً ليس لدى المولى لأنه إذا اخذ شيئاً إلى المولى وكان لدى المولى الكثير مثله ، فإن ذلك الشيء لا يكون هدية قيمة .

فمثلاً إذا قدم إنسان عند الرجوع إلى الله تعالى ، علما أو كمالاً آخر من الكمالات الوجودية ، وقال الهي إنني بسعيي وجهدي اكتسبت علماً اقدمه بين يديك هدية . هذا العلم القليل لن يظهر أمام علم الله اللامتناهي ، لأن الله سبحانه لديه علوم غير محدودة ولديه احاطة علمية بجميع الاشياء من جميع الجوانب ، بل إن علم الآخرين هو من مواهبه أيضاً وقد وزع الله مقداراً من علمه اللامتناهي بنحو التجلي وليس بنحو التجافي ، بين المجتمعات البشرية .

بالالتفات إلى أن العلم المحدود للانسان لا يجعل مقابل العلم اللامحدود لله ، لأنه إذا كان علم الله غير محدود فليس له مقابل أبداً ، حتى يقول الانسان أن علم البشر محدود وعلم الله غير محدود ، إذا جعل علم البشر في مقابل علم الله ، وعلم الله في مقابل علم البشر ، فان كلاهما يكونان محدودان مع فارق أن علم الله اكثر من علم البشر ، ولكن بما أن العلم الالهي غير متناه وغير محدود ، فانه لا يترك مجالاً للغير . ومن هنا فمع وجود العلم اللامحدود لله ليس هناك مجال لعلم آخر .

ليس فقط (لم تترك غيرته مجالاً لغيرها في العالم) بل جميع كمالاته هي هكذا أي أن قدرته لم تترك مجالاً لقدرة في العالم أيضاً ، فإذا قبلنا أن كمالات الله تعالى غير محدودة ، فإننا نعتبر كمال كل إنسان ، ظهوراً من تلك الكمالات اللامحدودة ، لا أن نقول أن كمالنا هو في مقابل الكمال

اللامحدود لله ، وكمال الله غير المحدود ، هو في مقابل كمالنا المحدود .

لأنه إذا قلنا هكذا فقد حددناهما كلاهما ، في حين أن صفات الله هي عين ذاته ، وذاته وجود صرف وغير متناه ، فتكون جميع صفاته غير محدودة أيضاً . أي أن كل ذات وكل صفة وكل فعل ، يوجد في العالم فإن في ذات وصفة وفعل الله اللامتناهي .

بناء على هذا لا يستطيع الانسان السالك أن يقول الهي اهدي اليك علماً أو قدرة أو ايثاراً أو كمالاً آخر ، فلا يمكن اخذ الكمال الى حضرة المولى ، بل يجب اخذ شيء لا يملكه المولى ، ويكون عدم وجوده لديه عين الكمال ، وذلك الزاد هو العبودية والفقر والمسكنة والذلة والتضرع .

أي يقول؛ الهي زادي هو الذلة والمسكنة ، اعلم انني لا استطيع عمل شيء ، فجئت بالعجز والذلة والعبودية والرق ، وهذه العبودية والرق غير موجودة في حرم كبرياء المولى .

إن عدم وجود ذلك [لدى المولى] ، يعود إلى الكمال الوجودي لأنه سلب السلب ، والله سبحانه يقبل هذه الهدية من الانسان ، لأن الانسان حين يؤمن بالله فذلك يعني أنه يؤمن بان نفسه وماله تعود لله ويجد نفسه عاجزاً .

ولأن المؤمن يبيع جميع ذاته وصفاته وفعله لحضرة الباري تعالى عن طريق البيعة معه ، إذ البيعة تعني بيع النفس والمال ، والبائع هو الذي يبيع متاعه ، وعندما يبيع جميع وجوده إلى الله ، عند ذلك لا يكون مالكاً لشيء .

وبالطبع فإن الامر كذلك تكويناً ، حيث لا يملك أحد شيئاً مقابل الله سبحانه . غاية الأمر أن هذه المسألة تحل بالنسبة إلى البعض ويدركونها في مقام الامتحان والتكامل بينما تظل مجهولة بالنسبة إلى البعض .

وبناء على هذا ، فإن الشخص الذي يبايع الله تعالى لا يعود مالكاً لنفسه أو ماله **﴿لا يملكون لانفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا﴾**[1] ، لذا يقول ليس لدي أي شيء لا أنه يجامل ، بل تلك حقيقة ، ويأخذ هذا الفقدان للذات والصفة والفعل كهدية ومتاع إلى باب المولى ، وهذا المتاع يقع مقبولاً لدى الله ، لأنه يأخذ شيئاً ليس موجوداً في محضر المولى . وعدم وجود هذا كمال أيضاً .

إن القرآن يعرّف الانسان بهذه النكتة الدقيقة ، ويقول بانه لماذا لا يفهم المبتلون بالشدائد أن جميع الامور هي بيد الله **﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾** لماذا لا يتضرعون في زمان الشدة؟

﴿ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ ، ثم يبين سر عدم التنبه ، ان قلوبهم قست نتيجة استمرار الذنب . يعتبرون الحوادث الالهية التي هي امتحان الله ، بوصفها حادثة قد حصلت بالصدفة أو نتيجة الحظ السيّىء ، لذا لا يفهمون ولا يتضرعون .

إن الشخص الذي لا يعتقد بالحقيقة يقبل بالخرافات ، فالحظ والحظ السيّىء والحسن هي من الخرافات . والشخص الذي لا يعتقد بالله وربوبية الله رب العالمين ، نتيجة فقدان التفكير العقلي ، يعتقد بالحظ الحسن والسيّىء .

حين لا يقبل بالعقل يصاحبه الوهم ، وحين لا يحترم نداء المَلَك ، يخضع لوسوسة الشيطان ، ويعتقد بالحظ الحسن والسيّىء التي هي خرافات ، ولا يعتقد بربوبية الله سبحانه الذي هو الحق .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية(٣) .

ويبتليهم الله ، بالعناء والمشقة للمرة الأخيرة حتى يستيقظوا ، وعندما لا يستيقظون في المرحلة الاخيرة من امتحان الشدائد والضغوطات ، عند ذلك يأخذهم الله سبحانه بيده ، أي يرفع الضغط عنهم ويأتي بالرفاه والرخاء ، فينتقلون من صف الضغط وامتحان الشدة إلى صف الرفاه والرخاء .

وبما أن الرخاء والرفاه هو امتحان الهي ، مثل الضغط والشدة . يقول تعالى: **﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾**[1] أي حين نسوا متعمدين ما ذكّروا به **﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾**[2] عند ذلك نفتح عليهم أبواب الرفاه والنعم المادية من كل طريق فيصبحون مرفهين ومترفين ومتنعمين بشكل كامل ، وليس لديهم أي عناء ، ويحصلون على رخاء كامل من الجوانب المادية .

ثم . في داخل هذا الرخاء وفي بحبوحة الرفاه والانشغال بالنشاط يصل العذاب الإلهي ويختم حياتهم دفعة واحدة . **﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة﴾**[3] عندما تفتح جميع أبواب النعمة بوجه طلاب الرفاه وينشغلون بالتنعم ، نأخذهم فجأة حتى لا يكون هناك طريق لهروبهم .

﴿فإذا هم مبلسون﴾[4] ، يصبحون مبلسين لاننا أخذناهم فجأة ، ونأخذهم بالشكل الذي لا يستطيعون معه الفرار ، يصبحون مبلسين انه ماذا يعملون؟

---

(١) سورة الانعام ، الآية(٤٤) .
(٢) سورة الانعام ، الآية(٤٤) .
(٣) سورة الانعام ، الآية(٤٤) .
(٤) سورة الانعام ، الآية(٤٤) .

وبما أن انهاء حياة المجرمين الطاغين هو رحمة يقول الله تعالى : ﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾[1] قطعنا دابر ، أي اساس المفسدين وأساس الظالمين والحمد لله .

إن قطع الظلم واستئصال الطغيان والطاغوت وهو نعمة الهية ، وقد بيّن هذا المعنى في سورة الاعراف المباركة ، بتعبير آخر . ﴿**وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون**﴾[2] .

الإنسان الذي يواجه العناء يعلم أنه لا الرفاه يبقى ولا يتمكن أحد من انقاذه من العناء . والعناء مدرسة تربوية .

قال تعالى انه لم يرسل نبي إلى منطقة لهداية امة ، إلا وامتحن أهل تلك المنطقة ، في مدرسة العناء والضغوطات . أما بالحرب ، أو الحصار الاقتصادي أو المشاكل ، والاختلاف الداخلي وامثال ذلك .

تارة نوقعهم في الحرب ، واخرى في الغلاء ، وثالثة في نقص المواد الغذائية وامثال ذلك لأجل الامتحان وذلك لكي يتوسلوا بالمبدأ الواحد ويعلموا أنه ليست هناك قدرة حاكمة في العالم إلا الله الذي كل العالم جنوده ﴿**لله جنود السموات والأرض**﴾[3] .

وإذا امتحن هؤلاء ونضجوا في فترة الضغط ، وفهموا أن القدرة الحاكمة في العالم هي قدرة الله ، فانهم لا يعبدون هواهم حتى يقولوا إننا نعمل كل ما نرغب ، ولا يرون لغيره قيمة ربوبية ، حتى ينفذوا كل ما

---

(١) سورة الانعام ، الآية(٤٥) .
(٢) سورة الاعراف ، الآية(٩٤) .
(٣) سورة الفتح ، الآية(٤) .

يعيّنه .

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا﴾[1] ، بعد أن امتحناهم في مدرسة العناء ولم يستيقظوا ، عند ذلك نرفع العناء ، ونضع تحت تصرفهم جميع وسائل الرفاه والرخاء بحيث تكون اكثر من حاجتهم ويكبرون في رفاه ورخاء .

العفو يعني الزيادة ، عفا النبات أي ارتفع كثيراً ونما اكثر من المقدار اللازم .

﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾[2] ، يقولون قد مس آباءنا الضراء والسراء ونحن الآن نتمتع بكل نعمة وكل ما على الأرض تحت اقدامنا .

وحين وصلوا إلى هذا الحال ، وصلوا إلى هذه الرؤية الطغيانية ، **﴿فأخذناهم بغتة﴾**[3] نختم حياتهم فجأة . **﴿وهم لا يشعرون﴾**[4] بينما هم منشغلون باللذات . ويعيشون غافلين . وقضية الثورة الاسلامية العظيمة في إيران ستكون نموذجاً جيداً لهذه الآيات الكريمة حيث تلك الانظمة التي كانت تتمتع بكل النعم ، سقطت دفعة ، لم يمعن وقت كثير حتى ضمَت حياتهم **﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾** .

الآن الناس المخلصون في حالة امتحان الهي بالشدة والضغوطات ، وهم منتصرون بالتأكيد في التضرع ، انهم لا يقولون اللهم ارفع هذا

---

(١) سورة الاعراف ، الآية(٩٥) .
(٢) سورة الاعراف ، الآية(٩٥) .
(٣) سورة الاعراف ، الآية(٩٥) .
(٤) سورة الاعراف ، الآية(٩٥) .

الضغط ، يقولون اللهم خرّجنا بانتصار من مدرسة الامتحان ، لا يقولون لا تمتحننا بل يقولون ارفع رؤوسنا في أن نخرج من الامتحان مرفوعي الرؤوس .

ثم يبين قاعدتين عامتين في سورة الاعراف هذه **﴿ولو أن اهل القرىٰ آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾**[1] ، القرآن اعطى وعداً قطعياً من ناحية الاطاعة بشأن المجتمع وبشأن الفرد كذلك ، فقال بأن الفرد أو المجتمع إذا كان متقياً فانه يحصل على ربح كثير ، ولكنه هدد في ما يتعلق بالمجتمع بشأن المعصية أما بشأن الفرد فقد هدد على نحو الاحتمال وليس بنحو الجزم .

بيّن قاعدة عامة بشأن الفرد ، سواء في سورة يوسف أو في سور اخرى وهي أن الشخص الصابر والمتقي يتمتع بجزاء حسن ، وقال بشأن المجتمع في سورة الاعراف **﴿ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾** . وهذه كوعد عام من الله للمجتمع المتقي .

أما بالنسبة للمجتمع الفاسق فقال: **﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾**[2] ، لأنه رغم أن مضمون الآية لم يبين بصورة شرط وجزاء ولكن يستفاد من كيفية تعبيرها ان تكذيب الحق هو سبب للمؤاخذة الالهية .

أما بالنسبة لمعصية الفرد ، فليس في القرآن ، آية تدل على الوعيد القطعي وإنما ذلك في حدود تهديد محتمل ، قال تعالى: **﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾**[3] .

---

(١) سورة الاعراف ، الآية(٩٦) .
(٢) سورة الأعراف ، الآية(٩٦) .
(٣) سورة إبراهيم ، الآية(٧) .

ثم قال: **﴿أفأمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾**[1] .

إن ما يتعلق ببحثنا في سورة (حم الدخان) هو قوله: **﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً انكم عائدون﴾** أي إننا نرفع العذاب عنكم ، لكنكم تعودون مرة ثانية إلى سلوككم السيّىء ، إلا أنه امامكم يوم ليس هناك مجال للعودة .

﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾[2] ، نحن امهلنا ، وهبناهم العقل من الداخل وارسلنا الانبياء من الخارج وامتحناهم كذلك ، اذقناهم ارتفاعاً وهبوطاً ، حتى تستيقظوا ولو واصلتم فسقكم **﴿إنا منتقمون﴾** قبلكم كانت أمم تعرضت إلى الانتقام الالهي . **﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم، أن أدوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين، وأن لا تعلوا على الله اني آتيكم بسلطان مبين﴾**[3] .

إن قائد الناس يجب أن يكون اميناً حتى يمكن تسليم الشعب بيده ، وان يعتمد على القدرة الالهية الازلية حتى لا يتغلب عليه احد ، وهاتان الخصلتان هما من خصائص القادة الالهيين .

قال موسى الكليم: **﴿أدوا إليّ عباد الله اني لكم رسول امين﴾** ، انني احرس بامانة تامة حقوق الناس ، اعراض الناس ، اموال الناس ، شعور الناس ، ولا اخضع لاية سلطة طاغية لانني اعتمدت على السلطنة الالهية ، فلا تعتلوا على الله واتركوا القوة وطلب الزيادة .

---

(١) سورة الاعراف ، الآية(٩٧ و٩٨) .
(٢) سورة الدخان ، الآية(١٦) .
(٣) سورة الدخان ، الآيات(١٧ إلى ١٩) .

﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ . دعوتي هي كلام الله ، إذا اردتم العلو عليّ فكأنكم تريدون التغلب على الله .

جئت إليكم بسلطنة الهية ، أي أُرسلت بمعجزة مسيطرة على كل قدرة ، لها سيطرة على جميع دسائسكم . **﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾** .

يجب أن يكون القائد اميناً حتى تسلم له الامة ، وان يعتمد على القدرة الالهية الازلية حتى يكون مسيطراً بالسلطنة الالهية ، حيث نشاهد في ثورتنا الاسلامية العظيمة أفضل نموذج بعد الانبياء والائمة المعصومين عليهم السلام .

قيادة لديها رسالة باللطف الالهي ، من قبل ولي العصر وبقية الأئمة المعصومين عليهم السلام ، مقرونة بالامانة ، وتعتمد على القدرة الالهية الازلية حيث ترتبط بالسلطنة الالهية . ولا تقبل الاختراق .

وقد سُلِّمت الامة الاسلامية إلى امين لديه سيطرة ، ونأمل أن يمتع الله تعالى إمام الأمة بالامدادات الغيبية ، في ظل رعاية ولي العصر ارواحنا فداه .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الـدرس السادس عشر

الرد على منكري المعاد

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمٰن الرحيم . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله علىٰ جميع الانبياء والمرسلين والائمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث حول المضمون المشترك للسور السبع المبدوءة بـ «حم» وتعرف هذه السور باسم «الحواميم السبعة» إن أهم مضمون مشترك لهذه السور السبع هو توضيح أصل الوحي ، وبيان ضرورة الوحي ولزوم الرسالة ، وشرح ما جاء به الوحي ، والذي هو عبارة عن التوحيد والمعاد والاصول الاولية الأخرىٰ للدين تناولنا في البحوث السابقة ما كان متعلقاً بالنبوة والتوحيد في سورة «الدخان» .

أما ما يتعلق بالمعاد وعالم ما بعد الموت ، في هذه السورة ، فهو عبارة عن قوله تعالى :

﴿إن هؤلاء ليقولون، إن هي إلا موتتنا الاولىٰ وما نحن

بمنشرين﴾[1] . فمنطق الكفار هو أن الانسان يفنى بالموت ، وليس هناك عالمٌ بعد الموت . . فلا حساب بعد الموت ، ولا ثواب ولا عقاب؛ لأنه لا حياة بعد الموت ليتم فيها التحقيق في أعمال الناس .

وانكار المعاد هذا ، يجرهم إلى الفساد؛ لأن الانسان في رأي المفكرين الالحاديين ليس غير الجثة المادية؛ وهذه أيضاً تتلاشىٰ بظاهرة الموت وتنهار ، ويفنى الانسان ، ولا يعود صالحاً للحياة والبقاء بعد الموت .

ينقل القرآن الكريم منطقهم كما يستعرض دليل منكري المعاد أيضاً ، ثم يستدل على ضرورة المعاد . ووفق ذلك الاستدلال تكون الحياة بعد الموت امراً ضرورياً وحتمياً ثم يشرح بعضاً من برامج المعاد العامة؛ حيث ينقسم الناس في ذلك العالم إلى فريقين؛ الفريق الأول هم المفسدون الذين يجب أن ينالوا عقابهم . والفريق الثاني هم النزيهون الذين يجب أن ينالوا ثواب أعمالهم . وهذان المعنيان موجودان في هذه السور السبع .

﴿إن هؤلاء﴾ أي منكرو المعاد ، والكفار ، **﴿ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولىٰ وما نحن بمنشَرين﴾** أي أن نشأة الانسان تنتهي بحياة واحدة يعقبها موت واحد ولا وجود لموتين وحياتين كما يقول الوحي؛ إلا أن منطق القرآن يقول ان للانسان موتان وحياتان بينما يقول منكرو المعاد ان للانسان حياة واحدة وموتاً واحداً . وتوضيح أن للانسان موتين وحياتين ، من وجهة نظر الوحي ، هو: أن الانسان يترك الحياة الدنيوية وينتقل إلى عالم البرزخ . ثم يترك حياة البرزخ وينتقل إلى عالم القيامة وعلى هذا فالتحولات الانسانية

---

(١) سورة الدخان ، الآيتين(٣٤ ـ ٣٥) .

تتألف من موتين وحياتين .

لا يعتبر القرآن الحياة الدنيوية مهمة وجديرة بالنظر؛ لأنه يعتبر اصل الدنيا لهواً ولعباً . إن حياة الانسان في الدنيا مقترنة بالشك والوهم ، ولهذا السبب فهي لا تحتسب .

عندما يغادر الانسان الدنيا فهي الموتة الأولى . وعندما يدخل البرزخ والحياة البرزخية تحتسب حياته الاولىٰ . وعندما يترك حياة البرزخ فستكون موتته الثانية وفي المرحلة التي يصل إلى القيامة الكبرىٰ والحياة الابدية تبدأ حياته الثانية . وبناءً على هذا فالانسان ينتقل من نشأة إلى أخرى باستمرار ، وتشكل مجموع هذه التحولات في المقاطع الأربعة موتين وحياتين .

وبالطبع؛ فإن الانسان قد ترك وراءه موتاً واحداً وحياةً واحدة قبل التحرر من الدنيا بالموت حيث لم يحسبا فالانسان كان ميتاً قبل أن يأتي إلى الحياة الدنيوية ، ثم وصل إلى الحياة الدنيوية: **﴿كيف تكفرون بالله وكنتم امواتاً فأحياكم﴾**[1] .

إذن ، كان الانسان ميتاً أولاً ، ثم وصل إلى الحياة الدنيوية؛ إلا أن القرآن لا يقيم وزناً لهذا الموت السابق وللحياة الدنيوية ، لأن الحياة الدنيا مقترنة بالنوم عند اكثر الناس ، والحياة الممتزجة بالنوم لا تبعث اليقظة والوعي .

لقد ورد هذا التعبير بهذا النحو في سورة «المؤمن» التي هي احدىٰ الحواميم ومر بحثها سابقاً أن الكافرين يقولون لله تعالىٰ في يوم القيامة أنْ: **﴿ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من**

---

(١) سورة البقرة ، الآية(٢٨) .

سبيل﴾[1] : نحن تركنا وراءنا موتين وحياتين ، وها نحن في القيامة قد وصلنا إلى هذه الحياة الابدية ، ونعترف بوجود المبدأ وضرورة المعاد ، فأرجعنا إلى الدنيا لنكسب الأعمال الصالحة .

وفي سورة «حم الدخان» هكذا ورد؛ ان الكافرين يقولون بموت واحد فقط ، وان الانسان إذ يغادر الدنيا فانه يموت إلى الابد ويفنى ، وانه لن تكون بعد الموت الدنيوي أية حياة أخرىٰ؛ وبالتالي فلن يكون هناك موت آخر بالضرورة ، لأن الموت الجديد متفرع علىٰ الحياة الجديدة ، ومع عدم وجود حياة جديدة بعد الموت الدنيوي ، لن يكون ثمة موت جديد أيضاً بالضرورة .

﴿إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولىٰ﴾ أي ان كلام الكافرين هو ان عاقبة امرنا ليست إلا الموت ولا شيء آخر ، ونحن نموت في الدنيا ، ونزول إلى الأبد؛ لهذا فمهما عملنا من سوءٍ في الدنيا لن نكون مسؤولين عنه بعد الموت ، وانْ تركنا الاعمال الحسنة فلن نؤاخذ ايضاً ، إذ لا وجود لحياة اخرى بعد الموت . لهذا كانوا ينفون المعاد بصورة صريحة ويقولون : **﴿وما نحن بمنشرين﴾** : ليس وراءنا نشر وحشر بعد الموت .

فأحياناً يكون حديث منكري القيامة حول نفيها الصريح على صورة استفهام انكاري بهذا النحو **﴿أإذا ضللنا في الارض أإنا لفي خلق جديد﴾**[2] هل نبعث من جديد بعد ان ضعنا وتلاشينا بالموت في الارض . أي لن يكون للمعدوم المحض حياة جديدة وليس الموت إلا الفناء الصرف .

---

(١) سورة غافر (المؤمن) ، الآية(١١) .

(٢) سورة السجدة ، الآية(١٠) .

واحياناً كانوا يعبرون في الانكار الصريح للقيامة بهذا الشكل: ﴿**إن هي إلا حياتنا الدنيا**﴾[1] . نحن نحيي لمرة واحدة ، وتلك هي الحياة الدنيا ، وبعد الموت لا توجد حياة جديدة ، كالشجرة تكون خضراء مدة من الزمن ثم تذبل بعد الاخضرار وتنتهي ولن يكون لها أي حياة اخرىٰ بعد ذلك .

إلا أن الله سبحانه خالِقَ العالم والانسان ، يقول انكم لستم كالشجرة التي تذبل بالموت بل انكم مثل ذلك الطائر الذي يعيش في قفص الدنيا عدة صباحات ، ليتحرر بالموت من قفص الطبيعة ويحلق إلى عالم آخر ، ولا تفنون أبداً .

وإذا عجبتم كيف يحيي الله الموتىٰ فيجب أن تعلموا انكم لا تفنون بالموت ، أولاً . وثانياً: إن الله الذي ابتدعكم من دون أن يكون لكم وجود سابق ، قادر على أن يبعثكم مرة أخرىٰ .

ينقل القرآن الكريم استدلال المنكرين للمعاد ، المستند إلى مقدمتين ثم ينقده بعد ذلك المقدمة الاولىٰ هي أن الانسان يفنى بالموت . المقدمة الثانية: إنّه لو فُني الشيء فقد فقد القابلية على الحياة . وتحليل القرآن الكريم في ابطال ودحض تلك المقدمتين ، وكذلك عرض البرهان المستقل علىٰ ضرورة المعاد ، كالتالي:

أولاً: إنكم لا تفنون ، وان الموت ليس بمعنى الفناء [أي الابادة والعدم] .

ثانياً: وحتىٰ لو عُدمتم وفُنيتم وزلتم من الوجود فانّ وضعكم سيكون

---

(١) سورة الانعام ، الآية(٢٩) .

كالأول والله الذي خلقكم ، إذ لم تكونوا ـ أصلاً ـ واعطاكم الوجود ، سينشئكم مرة اخرىٰ ويمنحكم الوجود .

﴿قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكّل بكم﴾[1] : انكم لا تبادون بالموت . ليس الموت عبارة عن الفوت والضلال في الأرض ، بل هو عبارة عن الوفاة والانتقال من الدنيا . وبين الفوت الذي هو بمعنى الابادة والفناء ، وبين الوفاة التي هي بمعنى الاستيفاء والأخذ التام ، فرق عميق .

فالمقدمة الأولىٰ لقياس منكري المعاد إذن باطلة ؛ لأنهم يزعمون أن موت الانسان يشبه نزول الماء في الارض ، حيث يمتصه التراب ويتلاشىٰ ويزول . ويقول القرآن إن موت الانسان يشبه فتح باب القفص وتحليق الطائر إلى الفضاء المفتوح . الموت تحليق من الدنيا إلى البرزخ ، وليس غرقاً في الارض وضلالاً فيها .

فإن كان الله يستوفي تمام حقيقة الانسان عند الموت ، فالموت وفاة إذن ، لا فوت والانسان «مُتوفىً» لا «ضال» والموت «وفاة» لا «ضلال» .

وأما في إبطال المقدمة الثانية فقال انه علىٰ فرض انكم كنتم تفنون بالموت فإن الله الذي احياكم لاول مرة في حين انه لم يكن لكم أية سابقة وجودية ، قادر علىٰ أن يحييكم مرة اخرىٰ الآن حيث لديكم سابقة حياة . بناءً علىٰ هذا ، فكلتا مقدمتي استدلالهم يردّهما القرآن .

ثم يقول إن هؤلاء المنكرين أنفسهم يعترفون في يوم القيامة بالحياة الاخرى ، ويقولون ﴿ربنا امتّنا اثنتين واحييتنا اثنتين﴾ فكانت لنا موتتان وحياتان ؛ فمرة انتقلنا من الدنيا إلى البرزخ ، وفي المرة الأخرىٰ جئنا من

---

(١) سورة السجدة ، الآية(١١) .

البرزخ إلى القيامة .

أحد شواهد المنكرين في تثبيت مقدمة قياسهم الأول هو قولهم: إن آباءنا واسلافنا ماتوا وهلكوا ، فإن كانت لهم حياة مستأنفة فأطلعونا على حياتهم الثانية : ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾[1] ابعثوا آباءنا واسلافنا ، أو أرونا حياتهم .

إذن ، فإن أساس كلامهم هو أن الموت فناء وابادة . والمعدوم لا يمكنه العودة وشاهدهم على ذلك أيضاً هو أن أوائلهم واسلافهم وآباءهم لم يبعثوا بعد الموت .

ومنشأ مغالطتهم هو أنهم كانوا يتصورون أن القيامة بمعنى العودة المكررة إلى الدنيا على صورة التناسخ ، في حين أن القيامة هي نهاية الدنيا ، وتظهر بعد انقراض الدنيا ، لا أنها عبارة عن العودة الجديدة إلى الدنيا ، وإلاّ لما كانت عالم حساب وجزاء ، بل عالم تكليف وامتحان .

فإن الانسان مكلف في الدنيا . وحتى لو أحيي عدة مرات فهو يبعث في عالم التكليف أيضاً ، لا في عالم الجزاء؛ والعالم الذي يكون فيه العمل لا الجزاء هو دنيا لا آخرة وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام : «ان اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل»[2] .

أي أن الفرق بين الدنيا والآخرة فرق جوهري . فنظام الحياة الدنيا يرتبط بالعمل بالاحكام والتكاليف ، وكذلك تحصيل الاوصاف النفسية؛ ونظام الآخرة والحياة الاخروية معدّ للانتفاع من الاعمال والأوصاف .

---

(١) سورة الدخان ، الآية(٣٦) .

(٢) نهج البلاغة ، فيض/ خ٤٢ .

والخلاصة: ان القرآن الكريم يستعرض أساس استدلال منكري المعاد ويدحضه، وكذلك يقيم البرهان على ضرورة المعاد؛ كما يستحق استكبارهم وغرورهم الذي يدفعهم لهذه التخرّصات.

لهذا قال إن منكري القيامة الآن مغرورون بقدرة كاذبة، ولهذا فهم لا يستسلمون للخطاب والوحي الالّهي. **﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم﴾**[1] الذين تورطوا بالفساد، ووضعت العقوبة الالّهية الشديدة حداً لحياتهم؟

ان كان الكفار المعاصرون يستندون إلى القوة والقدرة فقد دفنّا اشداءُ ومقتدرين كانوا اقوى واشد من هؤلاء. إن كانوا يتبعون الدليل فالبرهان موجود على ضرورة المعاد. وان كانوا يستندون إلى القوة فقد اهلكنا من كان اشد منهم قوة لِـ**﴿انّهم كانوا مجرمين﴾**[2].

والسبب في كونه يلجأ لأصل الاستدلال على ضرورة القيامة، بعد ابطال مقدمات قياس مفكري المعاد، هو أنه قد اتضح أن اقتضاء المعاد في حد النصاب والعلية التامة، كما انه لا وجود لأي مانع كذلك؛ فازالة اشكال المعاد هو غير اثباته إن احد ابرز المضامين المشتركة في هذه السور السبع هو تثبيت المعاد. أي أن يوم القيامة حق لا ريب فيه، والحياة بعد الدنيا ضرورة لا تقبل الشك.

ومن اجل تثبيت ضرورة المعاد يقوم القرآن الكريم بعملين؛ في الأول: يرد على جميع اشكالات منكري القيامة، ليبعد عن الاذهان توهم

---

(١) سورة الدخان، الآية(٣٧).
(٢) سورة الدخان، الآية(٣٧).

امتناع الحياة المستأنفة وفي الثاني: يقيم الدليل علىٰ ضرورة المعاد لتعرف القيامة علىٰ انها ﴿**يوم لا ريب فيه**﴾[1] فمن جهة يزيل المانع ، ومن جهة اخرىٰ يبين المقتضي في حد العلة التامة ، والذي هو من اهم اعمال القرآن الكريم العلمية .

كان الماديون والمذكرون للمعاد يعتبرون الحياة بعد الموت مستحيلة أو كانوا يستبعدونها: ﴿**أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد**﴾[2] . ولما كان حل هذا الاشكال وازالة هذا الاستبعاد يثبت امكان المعاد ، لا ضرورته؛ لهذا فان الله سبحانه ، بعد أن ازال استبعاد المنكرين ، يأتي بالمرحلة الثانية وهي الاستدلال علىٰ ضرورة المعاد ، ليثبت ان القيامة يوم لا ريب فيه .

ولهذا فبعد أن ردّ علىٰ اشكالهم استدل على أصل المعاد وضرورته بهذا النحو ، فقال ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون**﴾[3] .

فلو لم يكن هنالك معاد ، وحساب وكتاب ، للتحقيق في اقوال وأفعال وكلمات الانسان ، لكان عالم الخلق لغواً وباطلاً؛ لأنه لا فرق حينئذ بين محسنيه ومسيئيه؛ بين الظالم والعادل . فكل الأعمال تزول . ولا ثواب للمحسنين ولا عقوبة للمجرمين .

العالم الذي ليس فيه حساب وكتاب ولا يكون الأفراد فيه مسؤولين عن أعمالهم ، عالم عبثي . العالم الذي ليس له هدف يبلغه . . يحيا فيه البعض ويموت البعض الآخر وتكون نهاية القافلة البشرية عدماً صرفاً ، لهو

---

(١) سورة آل عمران ، الآية(٩) .

(٢) سورة ق ، الآية(٣) .

(٣) سورة الدخان ، الآيتان(٣٨ و٣٩) .

عالم عبثي ، والله الحكيم لا يفعل شيئاً عبثاً . هذا هو القياس الاول الذي حدّه الاوسط حكمة الله سبحانه .

القياس الثاني هو : ان المساواة بين المتقي والمجرم ظلم ، وان الله العادل لا يظلم ابداً ، إذن فلا بد من التفريق بين هذين الفريقين ، والذي يتم في يوم الحساب لا في الدنيا .

إذن ، فبجعل حكمة الله الحد الاوسط ينتظم البرهان الاول ، وبجعل عدالة الله حداً أوسط ينتظم القياس الثاني . وتميز البراهين عن بعضها انما يكون بتمايز حدودها الوسطى . واختلاف حدودها الوسطى انما يكون بلحاظ تغايرها المفهومي والعنواني . من الممكن أن تكون هذه الصفات عين بعضها في الخارج بالنسبة لله سبحانه لأن جميع الاوصاف الذاتية للواجب هي عين ذاته وجميع الاوصاف الفعلية للواجب هي عين الفيض المنبسط والوجود الواسع نفسه الصادر عن الله تعالى . **﴿وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين﴾ ﴿ما خلقناهما إلا بالحق﴾** فان كانت الخليقة مقترنة بالحق فثمة هدف اذن . وكل شخص مسؤول أمام عمله ، وعمل كل شخص ايضاحي ومرتبط بعامله .

﴿ولكن اكثرهم لا يعلمون﴾ لانهم إما لا يستطيعون أن يحلوا موانع مسألة المعاد ، أو لانهم لا يستطيعون أن يحللوا ضرورة المقتضي بشكل دقيق . إما انهم لا يستطيعون التحليل ان الموت ليس ضلالاً وضياعاً في الارض؛ أو أنهم لا يستطيعون أن يدركوا انه على فرض أن الموت فناء فإن الله سبحانه قادر أن يخلق المعدوم ، كما انه خلقه من قبل ولم يك شيئاً .

كما انهم لا يستطيعون أن يدركوا جيداً انه لو لم يكن هنالك معاد فإن

العالم عبث؛ وان الله الحكيم لا يقوم بعبث ، وكذلك لا يستطيعون أن يدركوا انه لو لم يوجد يوم للحساب فإن نظام الخلق سيكون نظاماً ظالماً ، لأنه عندها كل شخص يقوم بأي عمل لا يكون مسؤولاً مقابل عمله ، والعالَم الذي لا يفرّق بين الحسن والسيّىء ، إما أن لا يكون له مبدأ ووجد عن طريق الصدفة ، أو إذا كان له مبدأ فهو مبدأ ظالم ـ سبحانه وتعالى ـ **﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾**[1] ، وبما أن الله عادل فلا ظلم في نظام خلقته .

إذن فلعالم الخلق حساب ، والمجرم والمتقي فيه ليسا سواء؛ بل ان المحسن ينال الثواب ، والمسيء يتورط بالعقاب . وهضم هذه الموضوعات التي يعود بعضها إلى دفع المانع ، وبعضها إلى اثبات المقتضي ، ليس في ميسور كل أحد .

ورد هذا الاستدلال في سورة «ص» كما ذُكر في سورة «الأنبياء» أيضاً قال في سورة الانبياء إن العالم الذي خلقه الله خلقه بالحق **﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾**[2] لم نخلقهما بلا هدف ليبدّل كل موجود بعد تحققه إلى العدم المحض . ويحيا الانسان كالموجودات الأخرىٰ فيموت ويبلىٰ ويندرس ولا يبقى له أي أثر .

هذه المسألة نفسها عرضتها سورة «ص» بصفة برهان على ضرورة المعاد ، قال: **﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾**[3] .

هذا هو الزعم الفارغ للكافرين إذ يقولون إن الانسان يفنى بالموت

---

(١) سورة الكهف ، الآية(٤٩) .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية(١٦) .

(٣) سورة ص ، الآية(٢٧) .

وليس للعالم هدف ، ولا يتحرك صوب مقصود معين ، وإن عالم الخلقة مجيء وذهاب مكرران لا يتابعان هدفاً معيناً . **﴿فويل للذين كفروا من النار﴾** .

الحد الأوسط في البرهان علىٰ ضرورة المعاد هو حكمة الله تعالى ، الذي ينتفي معه احتمال عبثية الخلق ولا هدفية نظام الخلقة . واسلوب قياسه المنطقي عبارة عن ان الخلّق بلا هدف باطل ، وان الله الحكيم لا يفعل أي باطل ، فالله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً وبلا هدف .

أو بتعبير آخر : إن الله حق ، وان الحق لا يعمل باطلاً ابداً ، إذن فالله لا يعمل باطلاً أبداً . الخلق بلا هدف باطل ، والله لا يعمل باطلاً ابداً ، ولما كانت الدنيا من دون الآخرة باطلاً ، فان لخلق العالم هدف إذن ، وذلك هو القيامة .

في سورة «ص» أقيم دليل آخر على ضرورة المعاد؛ فقال بصيغة الاستفهام الانكاري : **﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾**[1] أي لو لم يكن قيامة ويوم حساب ، فإن المؤمنين الذين عقيدتهم سالمة وحقّة ، من حيث المعتقد ، وافعالهم وتصرفاتهم حسنة وصالحة من حيث السلوك والعمل ، سيكونون كالمفسدين في الأرض ، وهذه المساواة لا تتفق مع العدل الالّهي . وإن لم يكن بعد الموت ، حياة اخرىٰ وحساب ، فسيكون المجرمون كالمؤمنين ، إذ لا امتياز بين المعدومين . ومهما فعل المؤمن الصالح من خير فلن ينال ثوابه ابداً ، والكافر المجرم أيضاً لن ينال عقاب ما ارتكب من شرور؛ لأن

---

(١) سورة ص ، الآية(٢٨) .

كليهما ينعدم بالموت ، ولا تمايز بين المعدومين ، إذ انه لا يترتب أي حكم علىٰ المعدوم .

فمثلاً لو كانت شجرة مثمرة وشجرة اخرىٰ لا تحمل سوىٰ الاشواك ، ثم ذبلت الشجرتان فلن تنال احداهما الثواب والأخرى العقاب ، لأن كلتيهما بذبولهما ستندرسان ، وليس ثمة حياة أخرىٰ لأي منهما .

فإن كان المؤمن والمجرم كتينك الشجرتين المثمرة والشائكة بأن يزولا كلاهما بالموت ، فإن النتيجة ستكون ان الشر والخير في العالم سواء . وان المجرم والمتقي سواء . وهذه التسوية بينهما لا تتّفق وعدالة الله .

خلاصة هذا الاستدلال هو أنه لو كان الموت فناءً وانعداماً ، ولا وجود لمعاد وحساب ، ولا يكافأ المؤمن ، ولا يذوق الكافر العقوبة ، فإن المؤمن والكافر سيكونان سواء ، والمساواة بين المؤمن والكافر ظلم إذن ، لو لم يكن هناك معاد ، للزم الظلم؛ ولكن الله عادل **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾**[1] ولا عادل بظالم ، إذن فان الله ليس بظالم . ولما لم يكن الله بظالم حتماً ، فانه سيجازي المؤمن ويثيبه ، ويجازي الكافر ويذيقه العذاب . والحساب والمجازاة ، والثواب والعقاب ليست ممكنة من دون حياة أخرىٰ . إذن ، فما جاء في سورة «حم الدخان» ورد قسم منه في سورة «حم المؤمن» ، وفصّل القول في قسم آخر منه في سورة «الأنبياء» وسورة «ص» . بناءً علىٰ هذا ، فمسألة المعاد محلولة في بُعدَيها .

إذا اراد احد أن يبحث في مسألة المعاد فينبغي أن يستطيع حل جميع

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٦) .

اشكالات المعاد ليتلقّى المعاد كأمر ممكن ، كما ينبغي أن يقيم الدليل علىٰ ضرورة المعاد أيضاً ، ليُتلقىٰ كـ﴿**يوم لا ريب فيه**﴾ .

لا تثبت ضرورة المعاد بمجرد رفع اشكالات المعاد ، وانما هو يوضح كون المعاد أمراً ممكناً فحسب بمعنى أنه لا مانع من وجود حياة أخرىٰ بعد الموت .

ولما كانت مسألة المعاد اكثر من أمر ممكن ، لأن الحياة بعد الموت أمر ﴿**لا ريب فيه**﴾ وضروري . وعلىٰ هذا ، فان الموضوع لا يُثبت بمجرد حل اشكال المعاد ، بل يجب البحث في ضرورته ، وقد ذُكرت أدلة ضرورة المعاد في سورة «حم الدخان» وسورة «ص» وسورة «الأنبياء» .

وبعد أن اتضحت مسألة ضرورة المعاد ، تُعرض بعض مشاهد القيامة ، وهي أن الأفراد سيكونون في يوم القيامة علىٰ صنفين .

﴿**إن يوم الفصل ميقاتهم اجمعين**﴾[1] . المعاد يوم فصل المؤمن عن الكافر في الدنيا الكل مع بعضهم البعض لا فرق بين المؤمن والكافر . أو انه إذا كان فرق فلا حساب ولا جزاء . كلاهما يتمتع بالنظام الطبيعي ﴿**كُلاًّ نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾[2] . فالمؤمن يتمتع في هذا النظام من مزايا الطبيعة باذن الله ، والكافر يتمتع في هذا النظام بمزايا الطبيعة بإذن الله .

الخلاصة ، انه إما أن المؤمن والكافر لا يُميَّزان في الدنيا ، أو على فرض تمييزهما ، لا وجود للثواب والعقاب . أما القيامة فـ﴿**يوم**

---

(١) سورة الدخان ، الآية(٤٠) .

(٢) سورة الاسراء ، الآية(٢٠) .

الفصل﴾ . أي يتميز المؤمن من الكافر ويعرفان ﴿**وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾**[1] ، ﴿**يوم تبلى السرائر﴾**[2] تلك السرائر ، تلك الاسرار ، تلك الرموز ، تلك الخفايا وتلك المخبوءات تعلن يومئذ ، ويُعرف كل احد جيداً ، وكذلك يحدد ويميَّز الثواب والعقاب .

بناء على هذا ، فالقيامة يوم الفصل ، أي التفريق وفصل الخصومة والقضاء ، ولهذا سمي بـ «يوم الفصل» .

ففي الوقت الذي تكون القيامة «يوم الجمع» فهي «يوم الفصل» أيضاً . فالقيامة «يوم الجميع» لـ ﴿**ان الاولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾**[3] فهو يوم الجمع .

لكنه «يوم الفصل» من حيث يفصل ويفرق بين العقيدة الحقة والعمل الحق عن الباطل منهما ، وكذلك يفصل بين ثواب المحق وعقوبة المبطل .

في الدنيا ، أما أن الحق والباطل مخلوطان من باب التشابه أو الشبهة والشك أو الريب وإما أن المحق لا يُفصل عن المبطل وان امتاز الحق والباطل عن بعضهما . أو انه لو كان تشخيص المحق عن المبطل ميسوراً فلا يترتب أثر ايجابي علىٰ هذا الامتياز ، لأن الدنيا ليست يوم الثواب والعقاب . إذن فسيكون يوم الفصل يوم القيامة فحسب .

ففي ذلك اليوم يتمتع المؤمنون بهذه الميزة بأن يؤمَر المجرمون بان يفصلوا صفوفهم عن المؤمنين ﴿**وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾** . لا يقال :

---

(١) سورة يس ، الآية(٥٩) .
(٢) سورة الطارق ، الآية(٩) .
(٣) سورة الواقعة ، الآيتان(٤٩ و٥٠) .

وامتازوا اليوم أيها المؤمنون ، لأن هؤلاء هم الأصل ، وهم **﴿اولوا بقية﴾**[1] . بل يقال للكافر أن يفصلوا صفهم عن المؤمنين .

﴿إن يوم الفصل ميقاتهم اجمعين، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون، إلا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم﴾[2] . في الدنيا سلسلة خصوصيات لا تكون في الآخرة أبداً . في الدنيا يمكن أن يؤدي شخص عملَ شخص آخر ، أو أن يقوم أحدٌ بعمل ويعينه الآخر . فكلا الأمرين ميسر في الدنيا .

فقد يقوم شخص باداء عمل شخص آخر بالاستقلال ، بأن يتحمل عنه مشقة العمل في الأساس ، وقد يشرع صاحب العمل بعمله ويكون الآخر معيناً له ويبلغ بالعمل إلى النهاية . كلا هاتين الحالتين ممكن في الدنيا .

ولكن أياً من هاتين الحالتين غير ممكنة في الآخرة . فلا يستطيع أحد أن يأخذ علىٰ عاتقه عمل الآخر ، ولا أن يكون معيناً له .

قال : **﴿يوم لا يغني مولىً عن مولى شيئاً﴾** فلا يؤدي أحد عمل غيره إلى درجة الاغناء وعدم الاحتياج بأن يغنيه عن أصل العمل . **﴿ولا هم ينصرون﴾** أي وليس بوسعهم أن يُنصروا أو يصلهم العون والمدد من الآخرين .

بل إن النظام في القيامة هو بحيث أن على كل احد أن يحمل عمل ووزر نفسه غاية الأمر أن البعض حملهم خفيف ، والبعض الآخر ثقيل كثير .

اولئك الذين عصوا ثقلت موازينهم ، واولئك الذين عصوا واغووا

---

(١) سورة هود ، الآية(١١٦) .

(٢) سورة الدخان ، الآيات (٤٠ ـ ٤٢) .

الآخرين بهذه السنة الباطلة فموازينهم أثقل ، فهم يحملون اوزارهم واوزار الذين أضلّوهم **﴿وليحملنّ اثقالهم واثقالاً مع اثقالهم﴾**[1] ، لا انهم يحملون اوزار غيرهم إذ لا تزر في ذلك اليوم وازرة وزر اخرىٰ ، بل يحمل كلَّ ثقل صاحبُ ذلك الثقل .

فلا أحد يحمل ثقل غيره ولا احد ينصر غيره ، لهذا قال : **﴿يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم﴾** . إلا من يرحمه الله فيشمل بالشفاعة .

عندما طلب الإمام الصادق عليه السلام في وسط الطريق من احد اصحابه أن يقرأ القرآن ، فهناك أمر **﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾**[2] ، قرأ ذلك الصحابي الذي كان من تلاميذ الإمام عليه السلام هذه الآية : **﴿ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم ينصرون إلاّ من رحم الله﴾** فقال عليه السلام نحن الذين نشفع لشيعتنا»[3] .

هذا هو وعد الشفاعة الذي وعد الله تعالى المؤمنين الذين رضي عنهم ، وإلا فان الكافرين بما انهم ليس لهم دين مرضيّ فلن يكون لهم أي نجاة لا عن طريق العلل والأسباب التكوينية إذ **﴿تقطعت بهم الأسباب﴾**[4] ولا عن طريق الانساب والعلل الجعلية إذ **﴿لا أنساب بينهم يومئذ﴾**[5] .

لا يستطيعون القيام بعمل يحل مشكلتهم بالمباشرة ولا يتمكنون من

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية(١٣) .
(٢) سورة المزمل، الآية(٢٠) .
(٣) تفسير الميزان ج١٨ ص١٦٢ .
(٤) سورة البقرة ، الآية(١٦٦) .
(٥) سورة المؤمنون ، الآية(١٠١) .

القيام بعمل يفتح عقدهم بالتسبيب إلا المؤمنون الذين يتمتعون بشفاعة أولياء الله .

نسأل الله تعالى أن يجعل قلوبنا جميعاً أوعية لمعارف القرآن ببركة الانبياء والأولياء ونقسم على الله بانبيائه واوليائه العظام أن يشمل اساتذتنا ومعلمينا وكتّابنا الالّهيين برحمته الواسعة . وان يختم عواقب أمورنا جميعاً بالخير والسعادة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدرس السابع عشر

ترسيخ المعاد وبعض مشاهد القيامة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله على جميع الانبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين . سيّما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث يدور حول المضمون المشترك للسور السبع المبتدئة بـ«حم» ، وأن اهم محتوىً مشترك لها هو توضيح الأصول العامة للدين ؛ أي التوحيد وضرورته ، والنبوة ، ومسألة المعاد .

وكما مر سابقاً فقد ذكر الله تعالى كلام منكري المعاد وكذلك دليلهم على توهم نفيه . ومن ثم اجاب عن دليلهم كما أقام دليلاً على ضرورة المعاد .

وهذا المضمون ورد في سورة «حم الدخان» و«حم الجاثية» و«حم الأحقاف» ؛ فهذه المجموعة من السور تشترك ـ في الخصوص ـ بهذه المضامين المذكورة .

فقد جاء في سورة «حم الدخان»: **﴿إن هؤلاء ليقولون، ان هي إلا موتتنا الأولىٰ وما نحن بمنشرين﴾**[1] . يقول منكرو المعاد انه ليس هناك سوى الموت القادم فلا حياة بعد الموت، ولا موت بعد تلك الحياة. أي لا وجود لبرزخ ولا قيامة ، بل نفنى بالموت ، ولا معنى لحياة جديدة بعد العدم المحض . فلن ننشر ـ أبداً ـ بعد الجمود والاندراس .

وكان دليلهم انه لو كان الاموات يبعثون وكانت الحياة بعد الموت حقاً لبُعث اسلافنا؛ فان كانت لديكم ـ يا من تدّعون وجود الحياة بعد الموت ـ القدرة علىٰ احياء اموالتنا فأحيوهم لنا؛ عندها سنؤمن بالحياة بعد الموت **﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾**[2] . إن كنتم صادقين في دعوىٰ المعاد من ان هناك حياة بعد الموت فابعثوا موتانا ليتبين لنا أن الموت ليس فناءً وانعداماً وان هناك حياة جديدة بعد الموت . ومن ثم جاءهم الجواب المفصل في سورة «حم الدخان» نفسها ، وقد مرّ أن ما عُرض في سورة «حم الدخان» كضرورة للمعاد ، هو أن عالم الخلقة حق؛ ولما كان الحق ما حوىٰ هدفاً ، إذن فلعالم الخلقة هدف؛ لأنه إذا لم يكن لخلق الدنيا هدف فسيكون باطلاً ، لأن المجرم والمحسن سينعدم كلاهما بالموت فلا الأول ينال ثوابه ولا الثاني يبتلي بنتيجة أعماله .

فالعالم الذي ليس فيه حساب وكتاب وثواب وعقاب ، ولا يكون فيه احدٌ مسؤولاً عن نتيجة أعماله ، لهو عالم باطل . وبما أن الله سبحانه حق محض ولا يصدر عن الحق المحض باطل أبداً ، وان هذا العالم هو خلق الله ، فلا بد أن يكون لهذا العالم هدف ولا يكون باطلاً .

---

(١) سورة الدخان ، الآيتين (٣٤ ـ ٣٥) .

(٢) سورة الدخان ، الآية(٣٦) .

وكما طرح هذا الموضوع في سورة «حم الدخان» فقد تم طرحه ـ أيضاً ـ في سورة «الأنبياء» وسورة «ص» المباركتين . وقد شُرحت ـ إلى حد ما ـ البراهين المطروحة في هذه السور علىٰ ضرورة المعاد ، وتميّز كل برهان عن البرهان الآخر بتميز الحد الاوسط لكل منها .

اقيمت ـ لحد الآن ـ ثلاثة براهين على ضرورة المعاد ، وكان الحد الأوسط في احدها الحق وفي الآخر الحكمة ، وفي الثالث : العدالة .

كان البرهان الأول هو أن الله سبحانه حق محض وأن الحق المحض لا يفعل الباطل ابداً إذن فلا بد أن يكون للعالم الذي هو خلق الله تعالى هدف .

وكان البرهان الثاني هو أن خلق العالم بلا هدف عبث ، وان المبدأ الحكيم لا يفعل العبث ، إذن فلا بد أن يكون لعالم الخلقة هدف ولا يكون الخلق عبثاً .

البرهان الآخر هو أن الله تعالى عادل ، وان العادل لا يظلم ابداً . فإذا لم يجاز المحسنون علىٰ اعمالهم الحسنة ، ولم يعاقب المجرمون على اعمالهم السيئة كان ذلك ظلماً . إذن لا بد من المعاد الذي هو يوم الحساب كي يتحقق فيه مكافأة المحسن وثوابه ومجازاة الكافر ومعاقبته وكما ورد هذا المضمون في سورة «حم الدخان» فقد ورد في سورتي «حم السجدة» و«حم الاحقاف» اللتين تعدّان من الحواميم السبع أيضاً .

فقد ورد في «حم الجاثية» قوله تعالى **﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾**[1] .

---

(١) سورة الجاثية ، الآية(٢١) .

فأولئك الذين كسبوا السيئات زعموا انهم يفنون بالموت وان المؤمنين يفنون كذلك فيستوون معهم فلا يثاب المؤمنون علىٰ ايمانهم ولا يحاسب الكافرون على كفرهم تستنكر الآية عليهم ذلك وتقول هل انهم زعموا ان الجميع يفنون بالموت ولا حياة بعد ذلك؟! ﴿ساء ما يحكمون﴾ لأنه ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾[1] فموجودات العالم خلقت تتجلبب بالحق ولا ترتدي ثوب الباطل .

إن العالم الذي لا هدف له ، عالم باطل ، والعالم الذي لا تجري فيه متابعة أعمال الناس لهو عالم باطل . . العالم الذي يستوي فيه الحسن والقبيح عالم باطل؛ وان الله سبحانه حق محض ولا يصدر عن الحق المحض إلا الحق فـ﴿الحق من ربك﴾[2] : كل ما هو حق فهو من الله .

﴿وَلِتُجْزىٰ كل نفسٍ بما كسبتْ وهم لا يظلمون﴾[3] ؛ فليس لأحد حصانة ولا يُظلم أحدٌ . فلا المجرم يعاقب باكثر من جرمه ، ولا المؤمن يحرم ثواب عمله بل يحصل المؤمن على أجر اعماله الخيرة كما ينال الكافر عقوبة شروره وجزاءها المرّ .

فعندما يذكر القرآن الكريم ـ في سورة الاحقاف ـ قصة هداية الوالدين المحبّين الخير لولدهما الضال يقول انه يرفض الولد كلما ينصحانه ويحذّرانه من الآخرة ويقول: ﴿أفٍّ لكما اتعدانني ان اخرج وقد خلت القرون من قبلي﴾[4] : انكما تقولان ان هنالك حياة بعد الموت وحساباً وكتاباً وانني

---

(١) سورة الجاثية ، الآية(٢٢) .
(٢) سورة البقرة ، الآية(١٤٧) .
(٣) سورة الجاثية ، الآية(٢٢) .
(٤) سورة الاحقاف ، الآية(١٧) .

سأخرج بعد الموت من القبر ، وانتقل من دائرة الدنيا الضيقة إلى منطقة البرزخ الواسعة؛ في حين أن كثيراً من الاقوام والملل والأجناس قد ماتوا قبلي ولم ار احداً منهم يعود إلى الحياة؛ فإن كان حقاً هنالك حياة بعد الموت فليُبعث اولئك وينالوا جزاء ما اقترفوا من أعمال .

وخلاصة توهم ذلك المنكر القصير النظر ـ على صورة قياس استثنائي ـ كما يلي: إذا كانت الحياة بعد الموت حقاً لعاد الماضون من الاقوام إلى الحياة مرة اخرىٰ ، وبما أنهم لم يعودوا إلى الحياة ، إذن فالانسان يفنى بالموت ولا حياة بعده . أي ان هذا الركب البشري لا يصل هدفاً ، انما يتحرك صوب بحر الفناء وحسب .

﴿وهما يستغيثان الله﴾[1] أي يطلبان من الله الغوث ويقولان للولد: **﴿ويلك آمن ان وعد الله حق﴾** . لكن ذلك الولد المادي والقصير النظر يرفض فيقول **﴿ما هذا إلا اساطير الاولين﴾** وحجته انه لو كانت الحياة بعد الموت ممكنة لبعث اسلافنا وعاد آباؤنا إلى الحياة من جديد .

وقد بين القرآن الكريم ـ وفي معرض ردد على هذا التوهم ـ إن الموتىٰ يُبعثون في عالم غير هذا العالم؛ فهم يبعثون في عالم جزاء لا عالم عمل وحركة . فلا بد أن يصلوا دار القرار وعالم الجزاء ، لا أن يعودوا إلى الدنيا التي هي عالم الحركة والعمل والتكليف والامتحان . ولن تكون الدنيا التي هي نشأة الاختبار والانتخاب نشأة الجزاء ودار القرار . . إن هذا المضمون المشترك نراه في جميع السور الحواميم .

في تتمة البحث في «حم الدخان» وصلنا إلى قوله **﴿ان يوم الفصل**

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية(١٧) .

ميقاتهم أجمعين، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون﴾[1] أي: في يوم القيامة الذي هو يوم الفصل، وان كان الكل يحضر، لكن الجميع لهم حياة فردية.

فنظام الحياة في الآخرة فردي لا جمعي، فليس بمقدور أحد أن يكون ولياً لأحد يحمل عنه مسؤولية عمله، ولا بميسور احد ان ينصر احداً أو يعينه.

إن الاعتبارات الاجتماعية ملغاة هناك، والعلل والاسباب التكوينية خارجة عن اختيار الانسان، وكما قال تعالى: **﴿وتقطّعت بهم الأسباب﴾**[2]. أي ان العلل والأسباب التكوينية ستكون متقطعة ومقطوعة هناك. وقال أيضاً: **﴿لا أنساب بينهم﴾**[3]: فلا دور للعلائق والانساب، لأن الجميع يقومون من التراب ويبعثون من جديد من دون ولادة أو توليد.

فمسألة النسب والأصل منتفية هناك، وكذلك مسألة الاعتبارات الاجتماعية و: **﴿لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾**[4].

والخلاصة، انه لا الضوابط الدنيوية مؤثرة هناك ولا العلاقات الاجتماعية، أما الشفاعة فقد ورد فيها هذا الاستثناء **﴿إلا من شهد بالحق﴾**[5].

وكما اسلفنا من أن الإمام الصادق سلام الله عليه قال في الطريق لأحد

---

(١) سورة الدخان، الآيتان(٤٠ و٤١).
(٢) سورة البقرة، الآية(١٦٦).
(٣) سورة المؤمنون، الآية(١٠١).
(٤) سورة البقرة، الآية(٢٥٤).
(٥) سورة الزخرف، الآية(٨٦).

أصحابه: «اقرأ قرآناً»[1] ـ فتلا ذلك الصحابي هذه الآية: **﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله﴾** فقال الإمام عليه السلام نحن الذين ننصر شيعتنا . وهذه هي الشفاعة المستثناة بقوله **﴿إلا من رحم الله﴾** **﴿إنه هو العزيز الرحيم﴾** فهو العزيز ، ولا يخرق مشيئته وارادتَه شيءٌ .

القوة الممتنعة يطلق عليها «العزة» والله سبحانه ، وفي الوقت الذي هو عزيز ، رحيم يرحم اولئك الجديرين برحمته .

ولما كانت تجري مكافأة المؤمنين واثابتهم ومحاسبة المجرمين ومعاقبتهم في القيامة ، لذلك قال عنها انها **﴿يوم الفصل﴾** لأن الفصل يتم فيها بين المؤمن والكافر . وفي الحقيقة فانه يقال للكفار ان يفصلوا صفهم وحدهم عن المؤمنين ويخرجوا من الصفّ **﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾** .

ثم ان الله يكشف طرفاً من أنواع العذاب في جهنم ، ومقداراً من نعم الجنة ، فيقول ، **﴿ان شجرة الزقوم، طعام الاثيم﴾**[2] فلجهنم اشجارها التي تنْبت منها ولا تحترق فهناك سلسلة من الاشجار تخرج جذورها من اعماق جهنم وتتغذىٰ على شُعل النار **﴿انها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾**[3] . أي ان شجرة الزقوم التي ثمرتها طعام الأثيم ، شجرة تطلع في اعماق جهنم وتأخذ بالخروج والصعود . . فهي شجرة نارية والشجرة التي تنمو بالنار وتتغذىٰ على النار لا يكون حاصلها سوىٰ لهب النار وألسنته . فكما يكون

(١) الميزان ج١٨ ، ص١٦٢ .
(٢) سورة الدخان ، الآيتان(٤٣ و٤٤) .
(٣) سورة الصافات ، الآية(٦٤) .

البعض حطبا لجهنم ﴿**واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا**﴾[1] ، فكذلك قد يكون البعض اشجاراً لجهنم . فالقاسطون من أهل القسط والجور لا القسط والعدل ، هم حطب جهنم ، يذوبون في النار ويصلون الآخرين أيضاً .

ان كان البعض حطباً لجهنم فان البعض الآخر من رؤوس الكفر والنفاق قد تكون اشجاراً جهنمية . وإن كان البعض ﴿**وقودها الناس والحجارة**﴾[2] فقد يكون البعض اشجارها النارية .

فإن من كان شجرة خبيثة في الدنيا ولم يعط إلا الثمار المرة للآخرين ، ولم يُذق منه إلا المر ﴿**أينما توجّهه لا يأت بخير**﴾[3] وجميع اغصانه مليئة بالثمار المرة ، يمكن ان يظهر في القيامة على صورة شجرة من النار . . والله وحده يعلم من دواهي هذه الشجرة؟!

بيّن القرآن الكريم حصب النار ، وان مجموعة هم حصب جهنم . ان حصب الدنيا لو وضعت علىٰ الجبال لاحترقت واصبحت رماداً وانتهىٰ ، وكذلك تصير رماداً بالاحتراق . اما حصى النار وحطبها فلا تصير رماداً وتزول كما أن الانسان الجهنمي لا ينعدم بالاحتراق بالنار ولا يزول ﴿**كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب**﴾[4] . بناء على هذا ، فالشجرة الجهنمية التي تخرج من قعر النار تبقىٰ مشتعلة ولا تزول بل تؤمّن طعام اهل النار أيضاً .

فمن كان خبيثةً في نفسه فقوته من شجرة الزقّوم؛ وثمارها ﴿**كالمهل**

---

(١) سورة الجن ، الآية(١٥) .

(٢) سورة البقرة ، الآية(٢٤) .

(٣) سورة النحل ، الآية(٧٦) .

(٤) سورة النساء ، الآية(٥٦) .

يغلي في البطون، كغلي الحميم﴾[1] أي كالمعدن المنصهر أو الماء المغلي أو الفلز المذاب .

يأمر الله تعالى مأموري العذاب الذين هم ملائكة خاصون **﴿وما جعلنا اصحاب النار إلا ملائكة﴾**[2] بأن **﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم﴾**[3] : خذوا هذا المحكوم بالعذاب بالاعتلاء والسيطرة والقهر والتسلط واذهبوا به إلى اعماق جهنم .

وبما أن اعتقال المجرم والذهاب به إلى جهنم مقرون بالقهر والعلو والسلطة ، فقد عبر عنه بالاعتلاء . وبما انهم يذهبون به إلى وسط النار فقد عبر عنه بـ**﴿سواء الجحيم﴾** .

يطرد الكافر ويلقى به في وسط النار ، كما يُرشد المؤمن إلى بحبوحة الجنة . وليس وسط النار بحيث لا يختلف عن اوله وآخره ، فليست النار ذو سطح واحد وسواء ، بأن يكون لصدره وذيله ووسطه فرق اعتباري فقط لا حقيقي ، بل ان خطر الاحتراق في وسط جهنم اكثر منه في مواضعه الأخرىٰ .

الجحيم : النار الكثيرة والمتراكمة ، والملتهبة ، ولا يطلق الجحيم على كل نار ، وان استقر احد وسط الجحيم سلط عليه الضغط والكبت من كل جانب **﴿يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾**[4] لأنه إذا مات استراح في حين ان عليه مكابدة العذاب الأبدي .

---

(١) سورة الدخان ، الآيتان (٤٥ و٤٦) .

(٢) سورة المدثر ، الآية(٣١) .

(٣) سورة الدخان ، الآية(٤٧) .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية(١٧) .

لا موت في القيامة لأن الموت بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان؛ أما وقد وصل الإنسان إلى دار القرار فلا حديث بعد عن الموت .

إن الروايات الواردة من أن الموت يصوّر في يوم القيامة على هيئة ما ثم يأتي النداء من الله بذبحه فيموت الموت ، آذنة بأن الموت ينتهي وان الحياة في ذلك العالم خالدة ابدية؛ فلا أهل النار يموتون ، ولا اهل الجنة . بل يقيم اولئك في عذاب دائم ويقيم هؤلاء في نعيم دائم .

وبما أن الحياة المريرة الابدية لأهل النار لا مجال فيها لحياة مريحة أو موت ، لهذا قال : ﴿**ثم لا يموت فيها ولا يحيى**﴾[1] أي لا يموت فيرتاح من شر جهنم والعذاب ، ولا يحيا حياة طيبة ولذيذة لينعم حقاً بالحياة ، ذلك انه كان عليه تأمين الحياة الطيبة واللذيذة من الدنيا ولم يفعل ، وليس في الآخرة امامه حياة سوى الحياة المليئة بالرجز والعذاب .

﴿**ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم**﴾[2] أي يُصب فوق رأسه من نفس ذلك العذاب الحار والمغلي ويقال له : ﴿**ذق إنك انت العزيز الكريم**﴾[3] ذق فقد كانت لك في الدنيا عزة كاذبة وكرامة زائفة . كنت تزعم نفسك عزيزاً مكرّماً ، في حين إنك كنت خلواً من العزة والكرامة فـ ﴿**إن أكرمكم عند الله اتقاكم**﴾[4] .

و﴿**لله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾[5] . اما انت فكنت كافراً لا تتمتع

---

(١) سورة الأعلىٰ ، الآية(١٣) .
(٢) سورة الدخان ، الآية(٤٨) .
(٣) سورة الدخان ، الآية(٤٩) .
(٤) سورة الحجرات ، الآية(١٣) .
(٥) سورة المنافقون ، الآية(٨) .

بالعزّة ولا تحظى بالكرامة .

لقد ألصق الكافر في الدنيا عزة كاذبة بنفسه ، ونسب كرماً باطلاً اليها ـ اما في جهنم فيقال له علىٰ سبيل الاستهزاء ﴿**ذق إنك انت العزيز الكريم**﴾ أو انك نسبت في الدنيا إلى نفسك العزة والكرامة الكاذبة .

﴿**إن هذا ما كنتم به تمترون**﴾[١] . هذه النار ، وهذا العذاب ، وهذا المشهد هو ذاته ما كنتم تشككون به . لقد كنتم في مرية منه وشك . وقد مر بحث ذلك في ذيل الآية ﴿**بل هم في شك يلعبون**﴾[٢] من هذه الـ «حم» نفسها .

أي أن هؤلاء منشغلون بلعبة الشك ولديهم شك حول المعاد ، وليس واضحاً لديهم نهاية الأمر وعاقبته . هذا بشأن المجرمين وعقوبتهم ، اما عن الصالحين ومثوبتهم فقال ﴿**إن المتقين في مقامٍ أمين**﴾[٣] . فمن آمن بالله وانبيائه واوليائه فقد دخل حصن الأمان ، وهو بالتالي مرتاح في الدنيا والآخرة . فيقال له في جنة السعادة: إنك في مقام امين . . لن يصلك أي عذاب ، لا العذاب الظاهري ولا العذاب الباطني ، ولا العذاب الجسمي ولا الروحي . . لا نقص لديك من الخارج ولا حزن ينتابك من الداخل ، فلا وجود لهمٍّ ولا حزنٍ في الداخل يسبب له الازعاج ولا عدم انسجام وتوافق مع الخارج يسبب له الضيق .

الجنة هي المقام الأمين ومستقر الذين ابتعدوا عن كل ما لم يقلق الامن الفردي والاجتماعي وتجلببوا بجلباب الايمان الخالص ﴿**الذين آمنوا**

---

(١) سورة الدخان ، الآية(٥٠) .

(٢) سورة الدخان ، الآية(٩) .

(٣) سورة الدخان ، الآية(٥١) .

ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[1] .

فمن أمنه الآخرون في الدنيا أمن في الآخرة من كل عذاب ، ومن لم يؤذِ الآخرين أو يجرح عاطفة أحد ، ومن لم يظلم احداً فهو مقام أمين .

إن حديث السلسلة الذهبية القيم ، الذي نقله الإمام الثامن عليه السلام في سفره الميمون إلى خراسان ـ عن آبائه المعصومين عليهم السلام ، عن جدهم صلىٰ الله عليه وآله ، عن الملائكة وحملة الوحي ، عن اقرب الملائكة ، عن الله تعالى انه قال :

«كلمة لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي» ناظر إلى هذا المعنى ، وهو أن التوحيد حصن الله الآمن ومن دخله أمن كل عذاب .

وعن الإمام الرضا عليه السلام أيضاً : «من قال لا آله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»[2] . ثم عرّف الاخلاص بقوله «واخلاصه ان تحجزه لا إله إلا الله عما حرم الله عز وجل» .

فكل من قال هذه الكلمة باخلاص ؛ والاخلاص هو أن تحجزه عن المعاصي أي تجعله موحداً لدرجة يرىٰ الله سبحانه شاهداً عليه ، فلا يلوث نفسه بأي ذنب ، فإن تلك الكلمة تدخله الجنة ، وليس ـ فقط ـ **﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾**[3] بل جنة اللقاء التي وعد الله عليها في نهاية سورة الفجر **﴿فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾**[4] .

عندما وصل الإمام أمير المؤمنين ـ عليه افضل صلوات المصلين ـ

(١) سورة الانعام ، الآية(٨٢) .
(٢) توحيد الصدوق ، ص٣٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآية(٢٥) .
(٤) سورة الفجر ، الآيتان(٢٩ و٣٠) .

مقام الخلافة ، ارتدى ثوباً وجاء المسجد وقال: «سلوني قبل أن تفقدوني»[1] . فسألوه اسئلة جمة واستفادوا منه كثيراً . كان احد الاسئلة: «كم بين موضع قدمك إلى عرش ربك» قال الإمام للسائل: «سل متعلماً ولا تسأل متعنتا» ثم قال: «من موضع قدمي إلى عرش ربي أن يقول قائل مخلصاً لا إله إلا الله»[2] .

التوحيد الخالص هو الشجرة الطيبة التي اصلها ثابت وفرعها في السماء . وإذا كان التوحيد الذي هو رؤية خاصة واتجاهاً معيناً ينتهي إلى عرش الله ، فكذلك الانسان الموحد المخلص . . يبلغ عرش الله أيضاً .

لهذا كان قلبُ المؤمن عرش الرحمٰن ، فلا يمكن أن تصل الكلمة الطيبة والتوحيد والاعتقاد الخالص به عرش الله ولا تصله روح المؤمن ، لأن حقيقة العلم متحدة مع روح العالِم كما أن حقيقة الاعتقاد لا تنفصل عن روح المعتقد . فكيف يمكن لوصف النفس وكمال الروح أن يبلغا عرش الله ولا تبلغه ذات الروح الكاملة والنفس الموصوفة بذلك الوصف .

وعلى أية حال ، فالمؤمن المتقي الخالص يبلغ هذا المقام الامين ، سواء كان في **﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** أو في جنة اللقاء **﴿فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾** . وكلا المرحلتين مهيئة لخاصة اولياء الله بينما للمؤمنين المتوسطين مرحلة واحدة فقط وهي **﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** .

جاء في آخر سورة القمر **﴿إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق**

---

(١) احتجاج الطبرسي ، ج١ ص٢٥٨ .
(٢) احتجاج الطبرسي ، ج١ ص٢٥٨ .

عند مليك مقتدر﴾[1] أي انهم يتمتعون بالنعم الظاهرية والباطنية؛ فهم **﴿في جنات ونهر﴾** وهم **﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾** .

كاملو التقوىٰ يعدون من قسم الاوحدي من الناس المتكاملين ولهم جنتان؛ الجنة التي فيها الانهار والنعم المادية والظاهرية ، والجنة التي ليس فيها سوى لقاء الرحمٰن . فهم **﴿عند مليك مقتدر﴾** وهم **﴿في جنات ونهر﴾** .

أما في السورة مورد البحث فقد ورد ذكر العيون التي يجاورها أهل الجنة **﴿في جنات وعيون﴾** . وقال: **﴿يلبسون من سندس واستبرق متقابلين﴾**[2] .

وهذه الالبسة الحريرية لم تنسجها دودة القز بل نسجتها وحاكتها اعمالهم الصالحة من صلاة وصيام ، كما ان العسل هناك ليس من انتاج النحل بل هو نتيجة اعمالهم الصالحة . فليس ما يلبسونه من سندس واستبرق نتاج شرنقة أو ورقة بل ان اعمالهم الصالحة في الدنيا هي التي تظهر في الآخرة على هذه الصور والهيئات النافعة والمفيدة .

قال في سورة «الرحمن» المباركة: **﴿متكئين على فرش بطائنها من استبرق﴾**[3] لكل فرش بطانة ووجه ، والمهم الوجه من الفرش لأنه يعتبر صورته الظاهرية ولذا تبذل كل الجهود الفنية من اجله ليرفع بالتالي من قيمة الفرش وجماله . اما البطانة فلا يصرف عليها كبير اهتمام ، لا من ناحية المواد الأولية ولا من ناحية العمل والفن لأنها الجزء الباطني الذي يجعل

---

(١) سورة القمر ، الآيتين(٥٤ و٥٥) .
(٢) سورة الدخان ، الآية(٥٣) .
(٣) سورة الرحمٰن ، الآية(٥٤) .

فوق الارض ولا يرى .

يقول الله سبحانه عن بطائن الجنة انها من سندس واستبرق . فهو لا يتحدث عن ظاهرها فهي بالتأكيد مما لا يمكن وصفه بالاوصاف الدنيوية . ولما كان الله يعلم بنا نحن الذين نعيش في الدنيا انه ليس لدينا ما هو أفضل من الحرير والسندس والاستبرق فقال: إن بطائن الفرش في الجنة هي من افضل وأفخر ألبستكم فما بالكم بالظاهر؟ وما هو ظاهر هذه الفرش؟ الله وحده يعلم! ذلك ان في الجنة نعماً لا سابقة خارجية لها في الدنيا من حيث الوجود العيني ، كما لا سابقة ذهنية لها من حيث الوجود العلمي لدىٰ اهل الدنيا وفي اذهانهم .

هذه الأنواع من النعم متعلقة بالاواسط من اهل الايمان الذين يتلذذون بها . اما الأعلى من هذه اللذات الجسمانية فهو لذة الحضور الالٓهي والحضور بين يديه تعالى ﴿متقابلين﴾ أي أن اهل الجنة يقابل بعضهم بعضاً .

المؤمنون ليسوا في احتجاب أو غفلة . ليس فقط لا يتحدثون عن أحد في غيبته بل انهم في حضور دائم . كيف يمكن ذلك ، وكيف يمكن أن يكونوا حاضرين مع بعضهم دائماً ويتقابلون معاً دوماً ، فلهذا بحثه المستقل .

ليس المقصود من ﴿متقابلين﴾ ان كل اثنين منهم يجلس احدهما مقابل الآخر ، فهذا التقابل ممكن في الدنيا ولا لذة كبيرة من ورائه ليُذكر كواحدة من نعم الجنة المهمة . بل ان المقصود ان الجميع متقابلون مع الجميع في كل شؤونهم واحوالهم فلا يغيب احدهم عن الآخر أو يحتجب

عنه .

كيف يمكن أن لا يكونوا متقابلين و **﴿نور السماوات والأرض﴾** ظاهر هناك كأحسن ما يكون الظهور؟ وكيف يمكن أن يغيبوا أو يغفلوا عن بعضهم وهم في محضر النور المحض؟ اما انهم ليشاهدون بعضهم دوماً وينعمون بوصال دائم لا يتخلله عذاب الهجران . فليست الآخرة ـ كالدنيا ـ لا ينال فيها الوصال إلا بعد مرارة عذاب البعد والهجران .

لو كان الخليلان إلى جنب احدهما الآخر دائماً لنعما بلذة الوصال الدائم ، أما لو افترقا عن بعضهما للحظات ورفع الهجران ، ثم انقضت مرحلة الهجران المرة وعاد إلى الوصال فقد تحققت لهما لذة ما .

فمثلاً ـ على الإنسان ، في الدنيا ، أن يذوق لذة الشبع بعد تحمل عناء الجوع ، فما لم يجع ويذق الم الجوع لا يلتذ بتناول الغذاء . لذة الوصال ـ كذلك ـ تأتي بعد الم الهجر . أما في الجنة ، فلذة الشبع موجودة دائماً من دون سبق عناء الجوع ، ولذة الوصال حاضرة دوماً من دون تحمل عناء الهجر والفراق .

الجنة عالم يكون الانسان فيه في لذة وصال دائم من دون أن يتحمل مشكلات البين ، وفي لذة شبع دائم من دون ان يتحمل آلام الجوع .

﴿كذلك وزوجناهم بحور عين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾[1] .

إن اهل الجنة يزوجون بالجميلات من ذوات الحور في العيون . وأي فاكهة يطلبون تحضر لديهم وهم آمنون .

---

(١) سورة الدخان ، الآيتين(٥٤ ، ٥٥) .

الفاكهة في الجنة تابعة لارادة المؤمن ، لا متبوعة له ، أي انه لو رغب بتناول فاكهة ما ، لا يلزمه الذهاب تحتها واقتطافها ، بل كما ان العيون تحت تصرفه واختياره **﴿يفجرونها تفجيرا﴾**[1] فكذلك اشجار الجنة ، يغرسها المؤمنون وتنمو وتخضر حيث شاءوا فأشجار الجنة ليست كأشجار الدنيا لا تعطي كل شجرة إلا ثمرة واحدة ـ بل أي فاكهة ارادوا حملتها لهم أية شجرة ، لأن إرادتهم في طول العلل ، كما ورد في سورة يس من ان **﴿لهم ما يدّعون﴾**[2] .

وقد اتضح كيفية ادعائهم في سورة يونس من أن **﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾**[3] أي ان كيفية دعواهم وطلبهم هي بان يدركوا نقصهم واحتياجهم للفاكهة ـ مثلاً ـ ثم ينزهوا الله سبحانه من كل نقص **﴿سبحانك اللهم﴾** لتحضر عندهم الفاكهة ؛ وبحث هذا الموضوع مستقل عن شرح المضامين المشتركة للحواميم السبع .

ثم قال : **﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾**[4] . ذاق اهل الجنة موتة واحدة فقط وتجاوزوها ، فهم احياء إلى الابد . قد انتقلوا من عالم الدنيا إلى عالم الابد ، وان ورد في سورة «غافر» قوله **﴿ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين﴾**[5] فإنه يمكن اعتبارهما ـ مجموعتين ـ موتاً واحداً . الانسان الذي غادر الدنيا يرد الآخرة . وللآخرة مقطعان؛ البرزخ والقيامة . فاحياناً يُعدّ البرزخ جزءاً من القيامة واحياناً يعدّ من الدنيا فيذكر بصفة لبث

---

(١) سورة الدهر ، الآية(٦) .
(٢) سورة يس ، الآية(٥٧) .
(٣) سورة يونس ، الآية(١٠) .
(٤) سورة الدخان، الآية(٥٦) .
(٥) سورة غافر ، الآية(١١) .

في الأرض ، إذ يُسأل أهل البرزخ في القيامة: **﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾**[1] .

وعلىٰ أية حال ، فانها ـ مجموعة ـ في عداد موت واحد ، وان قال في سورة (غافر) ان اقواماً في يوم القيامة يقولون **﴿ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين﴾** كما مر بحثه وعلىٰ ضوء التحليل المذكور يمكن الجمع بين الآيتين؛ لأن بعض الآيات تدلل علىٰ الانسان عندما يصل إلى القيامة يكون قد مات موتة واحدة ، وذاق الموت لمرة واحدة ، فيما تدلل آيات اخرىٰ على أن الانسان ، بعد بلوغه حياة القيامة ، يكون قد ذاق الموت مرتين والحياة مرتين .

ولعل هذا التفسير يحل تلك العقد الواردة في الاشكال وجوابه بانه كيف ان المؤمنين لم يذوقوا فيها الموت إلا الموتة الاولى في حين ان للانسان موتتين وحياتين؟ يثبت القرآن ـ مجموعاً ـ ثلاث مراحل للانسان السالك إلى الله : الحياة الدنيا ، وحياة البرزخ وحياة القيامة الابدية . ويقسم الحياة بعد الموت من الدنيا إلى نشأتين : البرزخ والقيامة والكبرىٰ .

عندما ينقل حديث منكري المعاد في سورة «الجاثية» حيث يقولون : **﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾**[2] يقول في جوابهم **﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾**[3] . أي أن الله قرر لكم ثلاث مراحل؛ هي : الحياة الدنيا ، والانتقال من الدنيا إلى البرزخ كموت من عالم الطبيعة ، والحياة الخالدة الابدية في

(١) سورة المؤمنون ، الآية(١١٢) .
(٢) سورة الجاثية ، الآية(٢٤) .
(٣) سورة الجاثية ، الآية(٢٦) .

الآخرة . وما جاء في سورة «الدخان» ورد في سورة «السجدة» : **﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم﴾**[1] .

لقد علم القرآنُ البشرية مثل هذه المعارف بواسطة الرسول الأكرم ﷺ ـ فقال : **﴿فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾**[2] . أي ان ما يناله المؤمنون انما هو بفضل الله . **﴿فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾**[3] نحن نزلنا هذه المعارف ويسرنا تلاوتها والتدبر فيها بلسانك أيها النبي لكي يتذكروا وينتبهوا

﴿فارتقب انهم مرتقبون﴾[4] فهم ينتظرون النتيجة فانتظر انت أيضاً وانظر تحقق وعد الله لكم ووعيده للكفار .

بناء على هذا ، فإن كثيراً من مطالب سورة (الدخان) قد وردت في سورة (الجاثية) ولذا لا نبحث في «الجاثية» ـ على حدة إلا في الموضوعات التي لم ترد في «الدخان» أو التي لم تتناول من قبل وهذا ما سنطرحه في البحوث القادمة باذن الله .

نسأل الله تعالى ـ ببركة انبيائه واوليائه العظام ـ أن يجعل قلوبنا اوعية لمعارف القرآن الكريم واحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام وأن يشمل معلمينا ومؤلفي العلوم الالهية برحمته الواسعة ويجعل عواقب امورنا جميعاً إلى خير وسعادة .

وغفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

---

(١) سورة الدخان، الآية(٥٦) .
(٢) سورة الدخان ، الآية(٥٧) .
(٣) سورة الدخان ، الآية(٥٨) .
(٤) سورة الدخان ، الآية(٥٩) .



الـدرس الثامن عشر

دفن الروح في مقبرة الهوى اكبر مانع من قبول الوحي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله على جميع الانبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث في المضمون المشترك للحواميم السبع التي تبتدىء كل منها بـ «حم» ؛ فإنه ، وان كان محتوىٰ جميع سور القرآن الكريم العلم والحكمة ، إلا أن خصيصةً جعلت هذه السور السبع مرتبطة معاً ، ودعت لأن تكون جميعها مبدوءة بالحرفين المقطعين «حم» . فبما أن الحروف المقطعة ناظرة إلى مضمون السور نفسها ، وان هذه السور السبع قد اختصت بنفس الحروف المقطعة ؛ يتبين ـ إذن ـ ان لهذه السور مضامين مشتركة .

واهم مضمون تشترك في ايصاله هذه السور السبع هو اصول الدين ، أي التوحيد والنبوة والمعاد . وقد تم البحث في هذه الموضوعات الثلاثة ، إلى حدٍّ ما . بقيت نقطتان؛ الأولى: ما هو اهم مانع للكفار والمنافقين عن

تقبل الوحي؟ الأخرىٰ: فيم تمتاز هذه السور السبع عن بعضها؟

تناولنا لحد الآن ما تشترك به هذه السور وتمتاز به عن غيرها ، وينبغي أن نتناول الآن ما تمتاز به كلّ من هذه السور عن بعضها ؛ فإنه وإن كان للحواميم السبع مضمون تشترك به ، إلا أن لكل منها خصوصية أيضاً تمتاز به ، وعلى أساسها صارت سوراً مستقلة ؛ واما أن تكون تلك الخصوصية في أصل محتوىٰ السورة أو في كيفية واسلوب بيان ذلك المحتوىٰ .

النقطة الاولى هي: ما هو أهم مانع للكفار من قبول الوحي؟ وكيف يُحرم الانسان من فيض رحمة الوحي؟ وما هو العامل الذي يحول دون قبول الانسان لأحاديث الانبياء الآلهيين عليهم‌السلام ؟

يبين القرآن الكريم ، في هذه السور السبع ، وبعبارات مختلفة ، السبب في عدم تقبل الكفار للوحي ، وهو أنّ الانسان إن لم يتدارك الانحرافات الصغيرة بالتوبة والانابة ، واستمر فيها ، يكون قد دفن نفسه ـ بسوء اختياره ـ داخل الاوهام والخرافات؛ والانسان المدفون في الاوهام والخرافات لا هو يصغي لكلمات الانبياء ولا هو ينظر آيات الله ولا هو يتفكر في خلق الله أبداً .

إذا دُفن قلبُ الانسان في الاوهام والخرافات ، فلن يصل مسمعه صوت الأنبياء ولن ترىٰ عينه آيات الله ، ولن يعنيه أي عامل خارجي كذلك .

لقد اتضح هذا المعنى نصاً أو بصورة جلية في كثير من هذه السور السبع ففي سورة فصلت ، مثلاً: **﴿وقالوا قلوبنا في اكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾**[1] . فالكفار

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٥) .

والمجرمون الذين ابتلوا باللذات والخرافات الوهمية ودفنوا انفسهم فيها ، بينهم وبين انبياء الله حجاب؛ فلا آذانهم تسمع كلمات الانبياء ولا عقولهم تفكّر في معارف الانبياء عليهم السلام .

في سورة الشمس ، وبعد أن أقسم الله سبحانه بقوله : **﴿والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلّاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها، والارض وما طحاها، ونفس وما سواها﴾**(١) ، قال : **﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسّاها﴾**(٢) . قد خسر الذي دفن روحه وبدد ثروته؛ ذلك انه دفن الروح الالّهية ، والفطرة ، والقلب الذي وهبه الله ، في الاوهام والاخيلة الباطلة دفنها حيّة؛ فلا يستمع ـ بعد ذلك ـ لحديث الأنبياء ، ولا يرىٰ آيات الله ، لأن روحه الطاهرة قد دست ودفنت .

وتأسيساً علىٰ هذا الأصل ، قال في سورة «فصلت»: **﴿وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾**(٣) فهم يقولون ان قلوبنا في اكنّة أي كالانسان المتوحش الذي يعيش في غارة أو كنان **﴿وفي آذاننا وقر﴾** أي ثقل؛ ولذا فليست لديهم القدرة علىٰ الاستماع إلى الحق ، ولا نصيب من القدرة على رؤية آيات الله تعالىٰ .

عبّر عن هذا المعنى نفسه بصورة اخرىٰ في سورة الجاثية ، فقال : **﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾**(٤) : انكشفت لهم اعمالهم السيئة ، وأحاط بهم استهزاؤهم بالوحي الالّهي والانبياء

---

(١) سورة الشمس ، الآيات(١ ـ ٧) .
(٢) سورة الشمس ، الآيتان(٩ و١٠) .
(٣) سورة فصلت الآية(٥) .
(٤) سورة الجاثية ، الآية(٣٣) .

والمؤمنين الصادقين؛ وكما انهم عدموا توفيق النظرة إلى الذات أو العالم الخارجي في الدنيا ، اثر ارتكابهم المستمر للذنوب والمفاسد ، فكذلك ابتلوا ـ في القيامة ـ بنتائج اعمالهم السيئة ، وأحاطت بهم سيئاتهم فلا يملكون القدرة على التحرر من آثارها المهلكة .

الأصل العام الذي يبينه القرآن هو أن المعصية والمكر لا يحيط سوى بالانسان المفسد نفسه : **﴿ولا يحيق المكر السيّىء إلا بأهله﴾**(١) . فالانسان المبطل مدفون تحت ركام افكاره الباطلة .

ما يشبه هذا المعنىٰ والتعبير ، جاء في سورة «حم الزخرف» ، قال : **﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾**(٢) . فالكفار يخوصون في اللهو واللعب؛ وارواحهم الآلهية مدفونة في التسالي العابثة واللُعب الفارغة؛ ثم يقولون **﴿قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾** .

فيقول عنهم ان هؤلاء المدفونين في الاوهام والخرافات لن يزيل أي عاملٍ صعوباتهم في يوم الحظر ، لانهم لا يستطيعون الاستمرار وطلب العون من العلل والعوامل الداخلية ، أو الخارجية . قال في سورة الأحقاف :

﴿ولقد مكّناهم فيما ان مكنّاكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وافئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾(٣) .

---

(١) سورة فاطر ، الآية(٤٣) .
(٢) سورة الزخرف ، الآية(٨٣) .
(٣) سورة الاحقاف ، الآية(٢٦) .

مضمون الآية الشريفة تشمل كلا الموضوعين ، فبما انهم قد **﴿حاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** فقد تعطل تفكيرهم وسمعهم وابصارهم عن سماع أحاديث الحق ورؤية آياته . فلا يستطيعون الاستفادة من آذانهم ، ولا بوسعهم الانتفاع من عيونهم ، أو الاستمداد من قوة الفكر فيفكروا جيداً **﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** .

فالانسان الخائض في فساد الاستهزاء لا فرصة لديه للتفكير ولا قدرة لديه للنظر أو السمع . فمضمون صدر الآية : إننا اعطيناهم القدرات المادية والمالية الهائلة ، ومنحْناهم قوة الادراك ، وخلقنا لهم السمع والأبصار والافئدة؛ لكن الذنوب والاستثمار الخاطىء لتلك الامكانات المادية والقوىٰ البدنية هي التي ادت إلى عدم انتفاعهم بأي من تلك النعم الادراكية؛ فلا عرفوا علاجاً في ساعة الخطر ، ولا استعانوا بالثروة أو المال . فلا العلل والعوامل الخارجية أدركتهم ، ولا العلل والعوامل الداخلية اعانتهم ، لانهم دفنوا نفوسهم في قبر الخيالات والاوهام والذنوب .

يخاطب الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مفسدي الحجاز ـ علىٰ سبيل التهديد ـ ان لو كنتم مغرورين بامكاناتكم المادية وقواكم البدنية وامثالهما ، فاعلموا ـ إذن ـ انه كان قبلكم مستكبرون يتمتعون بامكانات اكبر من امكاناتكم ، ولم تبلغوا امكاناتهم ، إلا انهم ـ ومع امكاناتهم تلك ـ لم يفلحوا : **﴿ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه﴾** . لقد مكنا قوم هود والاقوام الظالمة الماضية ـ من حيث الثروة والقوة ما لم تبلغوه انتم . فـ **﴿إن﴾** في هذه الآية نافية بمعنى «ما» أي انكم ، ومهما بلغتم من التمول والقدرة ، فلن تبلغوا مبلغ قوم عاد وثمود . فمن جهة **﴿وجعلنا لهم سمعاً وابصاراً وافئدة﴾** ليسمعوا كلمات الحق ، وينظروا آيات الله ، ويتفكروا في خلق الله ، ويفكروا في شأن الكون

والانسان ، وأنّ كل موجود ، وجوده ليس عين ذاته ، أي «ممكن الوجود» ـ اصطلاحاً ـ محتاج إلى «واجب الوجود» .

فالمخلوق مفتقر إلى الخالق ، وعالم النشأة يحتاج إلى آله قادر وحكيم؛ إلا انهم لم يستمدوا من العلل الداخلية كالعين والاذن والقلب ، ولا استمدوا من العوامل الخارجية كالثروة والمال .

﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شيء﴾ . فلم ينفعهم سمعهم ، ولا اعانتهم ابصارهم ، ولا أنقذهم فكرهم ، لأن الفكر للانسان الحي لا المدفون في الاوهام والخرافات؛ والسمع والبصر للانسان الحي ، لا المدفون في المزاعم الباطلة . فمن دفن نفسه في الذنب لا يسمع ولا يرىٰ ولا يفهم **﴿وقد خاب من دسّاها﴾** .

ولم لم ينفعهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم؟

ـ **﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾** . فالذي ينكر آيات الله انّما يدفن نفسه داخل الاوهام والخيالات المادية ، ولا يرىٰ الانسان المدفون شيئاً . **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** ، فقد اهال تراب الذنوب على نفسه ودفنها فيها .

هذا التعبير الوارد بشكل جامع في سورة «الاحقاف» موجود نفسه في اغلب هذه السور السبع .

والسر في التعبير عن المذاهب المادية والآراء الالحادية بالاوهام والخرافات والتخيلات ، هو أن طريق الحق واقع ثابت يسلكه الانسان المؤمن المطيع ويبلغ به الهدف بالكامل . أما الانسان الكافر والعاصي الذي تخلىٰ عن ذلك الطريق فهو جارٍ وراء الباطل ، والباطل وهم . وفي نهاية

الطريق ، وبعد أن يكون قد فقد كل قواه يدرك انه كان قد سلك طريقاً معوجة ضالة؛ أي يثبت له في تلك اللحظة أن مسيره كان باطلاً ، لا أن مسيره يصبح باطلاً آنذاك .

وليس تعبير القرآن **﴿وإذا مسّكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه﴾**[1] بمعنىٰ انكم تضلون معبودكم الآن؛ فبعض عبدة الاصنام الاسطوريين يحمل معه صنمه اثناء سفره ايضاً . بل بمعنى انه سيتبين لكم في يوم الخطر أن عبادة الاوثان كانت امراً موهوماً وباطلاً ، وتكون كذلك أي يتبين أن الوثن ـ مثلاً ـ خشب أو حجر وليس آلهاً لكي يُعبد .

إنكم كنتم تتصورون الأحجار ـ في نظرتكم ـ آلهة ، لانكم كنتم تقولون **﴿إذ نسويكم بربّ العالمين﴾**[2] . أي كنتم تسوون بين الأوثان وبين آله العالمين ، وتعترفون في يوم القيامة للأصنام ، وتقولون لهم اننا كنا **﴿نسويكم برب العالمين﴾** .

فالمقصود انه يتضح في يوم الحظر أن عبادة الاصنام كانت ضلالاً وأن الاصنام ضالة ، لا أنه تضل الاصنام آنذاك . فهذا الحجر أو الخشب ـ مثلاً ـ لا يضيع ، بل الذي يضيع ويضل هو الصنم ، أي الأمر الباطل ، وعبادة الصنم أي الأمر الباطل ، وعبادة الجاه والمقام ، أي الأمر الباطل . ويتبين في يوم الحظر انها كانت هباء ولا شيء؛ لا انها تصير هباء في ذلك اليوم؛ بل ان كونها هباء يتبين في ذلك اليوم .

فالانسان المهدد بخطر الغرق في البحر يدرك ان الاصنام التي اتخذها

---

(١) سورة الاسراء ، الآية(٦٧) .

(٢) سورة الشعراء ، الآية(٩٨) .

لنفسه لا تختلف عن الاحجار والاعواد الاخرىٰ شيئاً ، وان ما كان يعبد لحد الآن كان وهماً ، ولا يغني الوهم والباطل شيئاً .

يعبر القرآن عن المدفون بالباطل ، بالمبطل . يقول: ﴿**يخسر المبطلون**﴾[1] هؤلاء الذين خاضوا في الباطل ستظهر خسارتهم في يوم القيامة .

لقد كان التعبير الآخر لاحدىٰ الحواميم هو ﴿**فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون**﴾[2] . فهؤلاء يخوضون في اللهو واللعب . وقد بينت اصل هذا التحليل سورة «النور» المباركة ، بأن شبّهت كل اعمال الكافرين بالسراب الذي يتعقبه الظامىء ، ليكتشف في النهاية حقيقته .

فلو أن انساناً ظامئاً جرىٰ في الصحراء المفتوحة نحو سراب ، وبذل سعيه وجهده في ذاك؛ وبعد ان وصل المكان الذي كان يحسبه ماءً أدرك أن لا وجود للماء هناك ، فان عطشه باق في تلك الحال رغم افتقاده قوة الطلب وبقائه يتلظى بألم العطش؛ فلا ماء حصل ولا قوة ـ للبحث عن الماء ـ بقىٰ .

هذه هي عاقبة الكافرين والعاصين ، يبددون اعمارهم ، فلا يستجيبون لظمأ الداخل ويزيلوه ، ولا يبقون امكانية الطلب والسعي المجدد .

والسر في أن الانسان المجرم يشاهد عند الموت خسرانه هو أن

(١) سورة الجاثية ، الآية(٢٧) .
(٢) سورة الزخرف ، الآية(٨٣) .

الحقيقة تتجلى له عند الموت إلى حد ما . فحرقة العطش موجودة ، والاعداد لما يرفع العطش وينهي حرقته غير ميسور له ، لهذا فهو باقٍ في عذاب اليم . **﴿والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة﴾**[1] . والبقيعة : الصحراء الواسعة المفتوحة و«القاع الصفصف» هي الصحراء الواسعة والمفتوحة كذلك . في مثل هذه الصحراء يتوفر السراب بكثرة . وعندما تتلألأ الشمس وتغطي الصحارى الواسعة ، فيرىٰ الظامیء كل تلك المنطقة مغطاة بالماء . ولما كان الظامیء جاهلاً فانه لا يلتفت إلى حديث المرشد والدليل . يقال له ان هذا سراب وليس ماءً لكنه لا يصغي ولا يلتفت ، بل يعدو بمنتهى العجلة والاضطراب حتى يبلغ عمق الوادي أو الصحراء ، فيدرك أنه لا وجود للماء اطلاقاً . فلا العطش الحارق تاركه ولا القدرة احتفظ بها .

﴿يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾[2] . لم يقل «وجده لا شيء» لأن «اللاشيء» ليس قابلاً للوجدان . أي لم يجد الماء لا انه وجد السراب .

التعبير القرآني اللطيف هو أنه لم يجد شيئاً ، لا انه وجد انه كان سراباً ، لأن السراب «لا شيء» و«اللاشيء» غير ممكن الوجدان **﴿ووجد الله عنده﴾**[3] . وجد الذي هو شيء ، وخالق الاشياء ، بل «اكبر شيء» ، وهو الله . يجد الله في تلك الحالة ، وهذا هو ظهور الفطرة .

فالذي كان طيلة عمره يجري وراء الكفر ، يتضح له التوحيد أخيراً

---

(١) سورة النور ، الآية(٣٩) .
(٢) سورة النور ، الآية(٣٩) .
(٣) سورة النور ، الآية(٣٩) .

ويجد الحق هناك؛ ليس بأن يصبح آخر عمره موحداً ويؤمن بل بأن يصبح عالماً فقط ، فان ذلك زمن ظهور الحق وليس زمن الايمان به ، لأن الايمان تكليف ومختص بالدنيا .

يرىٰ الكافر الله في ذلك اليوم ويقول **﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾**[1] لكنه لا يمكنه القول «آمنا» لأن الآخرة يوم ظهور الحق فقط لا يوم التكليف والايمان وتحصيل الاعتقاد .

فيفهم الخاطل الكافر في ذلك اليوم انه لم يكن يفهم . . يجد الله ويتبين له الحق **﴿ووجد الله عنده﴾** . وعندها يحاسبه الله **﴿فوفاه الله حسابه ، والله سريع الحساب﴾** .

﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا اخرج يده لم يكد يراها﴾[2] . فالكافر العاصي اما كظامىء الصحراء الملتهبة أو كالغريق الذي تتقاذفه امواج البحر .

التعبيران والمثالان قد وردا في سورة «النور» المباركة ، الأول: هو التشبيه بالظامىء في الصحراء ، الذي استهلك قواه في طلب السراب ولم ينل في النهاية شيئاً . والآخر التشبيه بالغريق في البحر العميق والموّاج ذي الامواج السوداء المتراكمة التي تمنع من الرؤية حتىٰ ان صاحبها لا يرىٰ يده من شدة السواد والظلمة . **﴿إذا اخرج يده لم يكد يراها﴾** أي لا انه لا يراها فحسب بل لا يقرب من رؤيتها أيضاً .

فمع ان اليد تحت تصرف صاحبها ، وان قربها وبعدها ، والارتفاع

---

(١) سورة السجدة ، الآية(١٢) .

(٢) سورة النور ، الآية(٤٠) .

والانخفاض بها ، واخفاءها واظهارها ، وقبضها وبسطها . . كل ذلك في اختيار الانسان ، إلا أن الغارق في بحر عميق ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . . . ، لا يرىٰ يده ، فكيف برؤية شيء آخر ، والنجاة بالتمسك به . فلا يرىٰ اليد ولا يرىٰ المادّ ولا ينال من نعمة المدد نصيباً .

ولماذا لا يستطيع أن يرىٰ؟

ـ لأنه اطفأ النور الالّهي في قلبه **﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾**[1] . فالذي لا يجعل الله نوراً له بسبب سوء اختياره ، فلن يكون له نور ابداً؛ لهذا فهو يجري خلف السراب . وبعد ان يستفرغ جهده لا يجد شيئاً .

عابد الوثن أيضاً يضيع صنمه في خضم امواج البحر ، والاحساس بالخطر . أي يرىٰ عبادة الوثن ضلالة؛ لا انه يضيع المواد الخام التي صنع منها الصنم بل انهم يحملون تلك الهياكل المعدنية والخشبية التي صنعت منها اصنامهم معهم في السفر ، لكن الذي اتضح لهم يوم الحظر هو ضياع الصنمية وان هذه الهياكل لا تصنع شيئاً .

لقد عرض القرآن الكريم هذا الموضوع العميق في الحواميم السبع بتعابير مختلفة قال: **﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾**[2] . أي: لماذا لم تنصرهم الاصنام التي اتخذوها آلهة من دون الله سبحانه في وقت الخطر؟

وقال في سورة «الاحقاف»: **﴿ولقد اهلكنا ما حولكم من القرىٰ**

---

(١) سورة النور ، الآية(٤٠) .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية(٢٨)

وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾[1] .

الخلاصة انه لا سمعهم ولا أبصارهم ولا افئدتهم تعينهم ، ولا اموالهم ولا ثرواتهم بنافعة إياهم شيئاً ، ولا الاصنام التي صنعوها تعالج مشكلاتهم لأن جميع هذه الاصنام ومعابدها كانت أوهاماً وخرافات قد حاقت بهم ودفنوا أنفسهم بها . ان عابد الصنم يدفن نفسه حياً ، فليست لديه القدرة على التفكير والرؤية والاستماع .

وان اعتبر الوثنيون الاوثان وسيلة للتقرب إلى الله ، واتخذوها آلهة لهذا السبب الباطل ، لكن التقرب إلى الله ينبغي أن يكون بما هو مستند إلى أساس كالتوحيد المتين ، كعبادة الله تعالى ، لا أن يكون مبتنياً على أساس الشرك المتزلزل ، الذي هو نفسه أهم عامل ابتعاد عن الله .

وقد كان الدافع الباطل للمشركين هو انهم يتقربون بهذه الاصنام إلى الله سبحانه : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[2] . أي ليس لنا هدف من عبادة هذه الاصنام سوى التقرب إلى الله .

يقول القرآن الكريم انه إذا كانت عبادة الأصنام حقّة ، وكان لها دور في تقريبكم إلى الله ، فلماذا لا تغني عنكم يوم الخطر شيئاً؟ مما يدل ـ إذن ـ على أن عبادتها تبعدكم عن الله ، لأن الشرك وكل باطل خرافة ، تبعد الانسان عن الله سبحانه ، الذي هو حق محض .

إن الكفر والمعصية والباطل تبعد الانسان عن الكمال الصرف أي الله ؛ ولهذا فالمشركون والكفار والمفسدون الآخرون ، في يوم القيامة ﴿ينادون

---

(١) سورة الاحقاف ، الآية(٢٧) .

(٢) سورة الزمر ، الآية(٣) .

من مكان بعيد﴾[1] مما يدل على أن هؤلاء لم يحصلوا على أي قرب من الله .

الخلاصة ، بما أن عبادة الاصنام عمل باطل ، وكل باطل يزول في القيامة ويوم ظهور الحق ، ويضل ويضيع إذن فعبادة الاصنام ستضل هي الاخرىٰ في يوم ظهور الحق ؛ أي ان عبدة الاصنام لا يشاهدون أثراً لاعمالهم العبادية ، ولهذا قال سبحانه**﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾**[2] ، **﴿ورُدّوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾**[3] أي يتبين ، عند الرجوع إلى الحق وظهور الحقيقة بطلان كل سراب . عندما يصل السالكُ المقصدُ يتبين له الحق ويفهم أن عبادة الاصنام لم تكن اكثر من سراب ، وان الاصنام كالاحجار الأخرىٰ لا قيمة لها كي تعبد ؛ فذلك الحجر الملقى خارج المعبد وهذا الحجر الصنم سواء . وتلك الحصاة المرماة في سفح الجبل وهذه الحصاة المستخرجة على صورة صنم سيان .

ان حجرية الاحجار وخشبية الاخشاب ستتضح لعباد الوثن ، ويدركون ان لا نفع ولا ضر من أي موجود في أية نشأة من نشآت الوجود سوىٰ الله سبحانه .

ان عدم فهمهم قبل يوم القيامة يعود لدفن انفسهم في قبر الخيالات والاوهام الباطلة . وان يوم ظهور الحق كيوم نبش القبور **﴿فإذا هم من الاجداث إلى ربهم ينسلون﴾**[4] فيخرجون من القبر الظاهري ، وكذلك من

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤٤) .
(٢) سورة الرعد ، الاية(١٤) .
(٣) سورة يونس ، الاية(٣٠) .
(٤) سورة يس ، الآية(٥١) .

قبور الأوهام والخرافات الباطنية . فعندما يخرجون من القبر يفهمون أن ما كانوا يزعمونه لم يكن إلا خيالات وانهم قيدوا انفسهم بسلاسل اللهو واللعب والذنوب والاستهزاء وتحركوا بأرجلهم صوب اغلال الضلال ليضعوها في اعناقهم ، وصيروا أنفسهم ـ نتيجة لذلك ـ اسرىٰ الاهواء المكبلين بالاغلال والسلاسل الثقيلة ، ودفنوها في قبر الهوىٰ .

والخيبة والخسارة لمن دفن روحه في الدسائس ، وانما تتضح هذه المعارف للمدفونين في قبر الوهم والخرافة حين يتجلى لهم الحق بشكل صريح ؛ وتلك هي القيامة الكبرىٰ : ﴿**ذلك اليوم الحق**﴾[1] . ويوم ظهور بقية الله عجل الله فرجه الشريف صورة من القيامة : ولهذا فان بعض الحقائق تتضح في ذلك اليوم .

وكما يتضح الحق فانّ بطلان المبطلين سيتضح ﴿**بل ضلوا عنهم وذلك افكهم**﴾[2] أي ان اصنامهم ضلت عنهم . «الافك» هو الانصراف عن الحق ، والاتجاه نحو الباطل ، فقال ان انصرافهم وكذبهم سيتضح ويظهر في يوم تجلّي الحق وظهوره .

﴿**وذلك افكهم وما كانوا يفترون**﴾[3] . سيتضح بطلان افتراءاتهم . بناءً على هذا ، فان قيل ان ظهور الحق يبعث على ضلال الاصنام فلا يعني ذلك ان عبدة الاصنام سيضلون مع أصنافهم في ذلك اليوم؛ بل ان بطلان عبادة الأصنام سيظهر في ذلك اليوم . أي انهم يفهمون انهم كانوا على ضلالة عند ذلك يحاسبهم الله تعالى ﴿فوفاه حسابه﴾ لأنه قد منحهم جميع

---

(١) سورة النبأ ، الآية(٣٩) .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية(٢٨) .

(٣) سورة الاحقاف ، الآية(٢٨) .

الفرص للبحث والتحقيق . وبما أن بطلان أي التجاء لغير الله يظهر ويتضح ، فان الله تعالى يقول لهم بما انكم كنتم اسرىٰ الوهم وكانت نظراتكم للعالم على أساس الحس ، ولم تؤمنوا بالغيب ، فانكم في يوم الحظر سترون الشر من الطريق الذي كنتم تؤملون الخير منه ، وتتضررون من الطريق الذي لم تتوقعوا منه الضرر .

يذكّر القرآن بنماذج في هذا المجال؛ فمثلاً في قصة نوح لم يتوقع قومه أبداً فوران الماء الطاغي من التنور الذي هو مكان الشعل والالسن النارية . كان التنور على مر الأيام مكاناً للنار ، لكنه صار في يوم الحظر قاعدة للماء ومنبعاً لفورانه ﴿**وفار التنور**﴾[1] . تحول مكان الشعلة ولسان النار إلى مكان لفوران الماء الذي هيأ الارضية لغرق جميع عبدة الأصنام ، أي يأتي الضرر في يوم الحظر من حيث لا يُتوقع .

المثال الآخر هو قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿**فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا**﴾[2] . أي عندما أردنا اهلاك المجرمين عذبناهم بسُحبٍ فرحوا لرؤيتها وتصوروا انها ستمطرهم وتزهر اراضيهم؛ لكن الذي نزل عليهم من تلك السحب ريح فيها عذاب اليم ، وضع نهاية لحياتهم جميعاً .

عندما كذبوا الانبياء ولم يستمعوا لنصح الناصحين الالهيين ابداً ، فعلنا بهم ذلك ﴿**فلما رأوه عارضاً مستقبل اوديتهم**﴾[3] . فلما ظهر السحاب في أفقهم وامتد فوق رؤوسهم ، وغطى اوديتهم وصحاريهم ، وسفوح

---

(١) سورة هود ، الآية(٤٠) .

(٢) سورة الاحقاف ، الآية(٢٤) .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية(٢٤) .

جبالهم ، وسهولهم وهضابهم ، فرحوا وقالوا ان هذا السحاب سيمطرنا ويخدم زراعتنا وحقولنا؛ فكانوا ينتظرون المدد من هذا السحاب ولم يكونوا متوجسين منه ابداً .

﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾[1] هذا سحاب سماءنا الواسعة العريضة الذي سينزل علينا المطر؛ لكن الله سبحانه يقول: لا ، ليس الأمر كذلك ، **﴿بل هو ما استعجلتم به﴾** من العذاب . انه ما كنتم تستعجلون به انبياءكم وتطالبونهم به من أنه إذا كان ثمة آله وخالق ويريد ان يعذبنا فليرسل العذاب علينا فوراً .

قالوا للنبي نوح: **﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**[2] . وقالوا نفس الكلام للانبياء الآخرين .

يقول القرآن الكريم **﴿بل هو ما استعجلتم به ريح﴾**[3] . ان هذا ليس سحاباً تعقبه امطار الرحمة بل هو **﴿ريح فيها عذاب اليم، تدمّر كل شيء بأمر ربها﴾**[4] هذه الريح المحرقة هي التي تهلك كل شيء بامر الله وتفني كل جمعكم وثرواتكم وحقولكم ومزارعكم وتحيلها إلى كومة من التراب .

ولأنها **﴿بأمر ربها﴾** فهي ليست كأعمالكم غير المدروسة ، بل ان هذه الريح الآتية ان لم تكن مأمورة بتدمير بيت أو ضيعة أو بستان ، فلن تفعل ذلك ابداً . فما تدمر . من مكان فهو باذن الله ، وما تبقيه فباذنه أيضاً ، لانها تحمل رسالة الله ، وان الله باعثها ، كما ان الرياح الاخرىٰ رسل الله وتقوم

(١) سورة الأحقاف ، الآية(٢٤) .
(٢) سورة هود ، الآية(٣٢) .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية(٢٤) .
(٤) سورة الاحقاف ، الآيتان (٢٤ و٢٥) .

باداء رسالته **﴿وارسلنا الرياح لواقح﴾**[1] .

فالنظام خاضع لتدبير رب العالمين ، وليس صحيحاً أن يهب نسيم السحر أو سموم الظهيرة من دون الاذن الالّهي ، أو أن تتحرك بسرعة أو أن تضحك قوماً أو تبكي آخرين من دون اذن الله سبحانه وتعالى :

﴿تدمر كل شيء بامر ربها فأصبحوا لا يرىٰ إلا مساكنهم﴾[2] . عندما تؤمر الرياح بأن تدمر قرية مفسدة فانها تمتثل وتؤدي مأموريتها على احسن واكمل وجه ، ولا تبقى اثراً إلا مجموعة من الدور المهدمة . ثم قال ان هذه سنة الّهية ، ولا تختص بالماضين ، بل هي تهديد لجميع الكافرين والطغاة القادمين **﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾**[3] .

فإن عمل الله تعالى بهذا النحو فهو يمهل . إذا دفن الانسان نفسه في الذنب الذي هو وهم ليس اكثر ، وفي طلب الجاه والمقام ، والذي هو وهم ليس اكثر ، وفي الحياة الدنيوية التي ليست اكثر من وهم ، ولم يستمع لكلمات الله وآياته ، رغم تمتعه بنعمه الظاهرة والباطنة ، ولم يتفكر ـ جيداً ـ في آيات الله تعالى كونه دفن روحه وفطرته ، فانه سيبتلى بهذا العذاب الاليم .

نسأل الله تعالى ببركة محمد وآل محمد ـ عليهم افضل صلوات المصلين ـ ان ينور قلوبنا ـ جميعاً ـ بالقرآنْ ، وان يهدي ثواب هذه المباحث بعد قبولها إلى ارواح الأنبياء والأولياء الالهيين وأن يمن على الجميع

---

(١) سورة الحجر ، الآية(٢٢) .
(٢) سورة الأحقاف ، الآية(٢٥) .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية(٢٥) .

بالتوفيق لاحياء المعارف الآلهية ، وان يحشر أساتيذنا ومعلمينا ومؤلفي العلوم الآلهية مع الانبياء والأولياء .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدرس التاسع عشر

ما تشترك فيه الحواميم السبع وما تمتاز به عن بعض

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وصلىٰ الله على جميع الأنبياء والمرسلين والائمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث حول السور السبع التي تبتدىء جميعها بـ«حم» والتي تعرف بالحواميم السبع ، والمضمون المشترك لهذه السور ، وهو توضيح الخطوط العامة للوحي التي عرضت خلال المباحث السابقة . ونطرح الآن بحثاً قصيراً أيضاً حول خصوصيات كل من هذه السور السبع ليتضح ما هو امتياز هذه السور السبع فيما بينها؟

في هذه السور السبع تارة يأتي الحديثُ عن توحيد الله سبحانه بصفته أهم ما أتىٰ به الوحي ، وتارة يرد الحديث عن المعاد ، وتارة عن ضرورة النبوة والرسالة ؛ ثم يُستعرض قبول أو نكول الناس ، إذ أن موقف الناس ازاء هذه المسائل ليس واحداً .

يبحث القرآن الكريم ، بأساليب متنوعة ، علل انحراف منكري الوحي واسباب إعراضهم ، وينبه إلى أخطارهم ، فيوجّه الضربة للاستكبار ، ويعاتب المستكبرين تارة في اوائل بعض هذه السور ، أو يحذر من خطر الاعراض عن كتاب الله ، سواء كان على اثر الاستكبار وغرور حب الرئاسة والمقام ، أو بسبب التنعم والاتراف والانشغال بالملذّات والشهوات .

وتارة تكون اوائل بعض هذه السور حول تبيين الوحي ، وكيف يكون كلام الله ، أو ما هي اساليب كلام الله مع عباده ؟

هذا النوع من الخواص هو الذي يؤدي إلى تمييز هذه السور السبع عن بعضها؛ فمثلاً خاصية سورة «غافر» ـ التي هي أولىٰ الحواميم ـ بالنسبة إلى سائر هذه السور هو ان لها بحثاً مفصلاً حول الاستكبار؛ فالذين يستكبرون في موقفهم ازاء الله سبحانه والوحي والمعاد ، تتناول السورة دوافعهم وأقوالهم والأخطار المحدقة بهم .

في هذه السورة يذكّر الله عدة مرات بخطر الاستكبار؛ فمثلاً ينقل عن المستكبرين موضوعاً ويجيب عليه ويبين نتائجه المرة . ثم يباشر بذكر واقعة أخرىٰ من المستكبر وينبه إلى عواقبه الوخيمة وآثاره الخطرة ، ويستعرض ـ في المرة الثالثة ـ موضوعاً آخر من المستكبر ويعلن عاقبته السيئة .

فيقول في اوائل هذه السورة نفسها : **﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾**[1] ، لأن الآخرين مسلّمون أمام شرع الله ، ويطابقون بانفسهم مع نظام الانشاء والخلْق ، ويعون أن نظام الخلق مطيع ومنقاد لأوامر الله وارادته **﴿وله اسلم من في السماوات**

---

(١) سورة غافر ، الآية(٤) .

والأرض﴾[1] . وكما أن جميع الكون مستسلم ومنقاد لارادة الله ، فان الانسان المتحرر من خطر الكفر مسلم ومنقاد لاوامر الله أيضاً . ان الكفار ـ فقط ـ هم الذين لم يعرفوا العالم ولا يعرفون أنفسهم؛ ولهذا ، فهم لا يعرفون الله عن طريق معرفة الكون ، ولا يتوصلون إلى معرفة الله سبحانه عن طريق معرفة النفس؛ لأن الكافر لا يستند إلا الى غروره وثروته وقوته الطاغوتية؛ فهو لا يستند إلى البرهان كما لا تصدق كتب الأنبياء السابقين كلامَه .

يقول الله سبحانه في احدىٰ هذه السور السبع ان مدّعاكم يجب أن يؤيده العقل أو يصدقه الوحي السماوي ، أما الحديث الذي لا يستند لا إلى العقل ولا إلى الوحي الالّهي ، فغير ممكنِ القبول به .

﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات﴾[2] أي: اخبرونا عن الدافع الذي دعاكم لعبادة غير الله . ما هو العمل الذي قاموا به في نظام الوجود ، فصاروا جديرين بالعبادة؟ هل خلقوا شيئاً علىٰ نحو الاستقلال أو شاركوا الله تعالىٰ في خلقه ، ليكونوا ـ وفق البرهان العقلي ـ أهلاً للعبادة وجديرين بالتكريم العبادي؟ لأن العقل ، كما يستنكر الخضوع لغير الخالق فانه يستسيغ عبادة الخالق بل يراها لازمة .

وان لم يكن لديكم برهان عقلي على صحة سيرتكم في عبادة الأصنام ، فعليكم أن تأتوا بكتاب من الكتب السماوية يُؤيد سيرتكم هذه **﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم**

(١) سورة آل عمران ، الآية(٨٣) .
(٢) سورة الأحقاف ، الآية(٤) .

صادقين﴾[١] : إذا لم يكن لديكم برهان عقلي من اجل اثبات صحة موضوعكم ، فعليكم أن تقيموا الدليل النقلي . . فهل ان كتاباً من كتب الانبياء السابقين عليهم السلام أجازت عبادة الاصنام وأمرتكم بالخضوع لها؟ هل ان هناك دليلاً أو علامة أو أثارة من الآثار العلمية للعلماء السالفين بين يديكم ، تشكل سنداً على جدارة الاصنام للعبادة ؟

فإن لم يكن لديكم علم ماثور ، ولا كان لديكم علم مكتوب ، وليس لديكم علم معقول ، إذن فعملكم ليس سوىٰ الجدل الباطل؛ لأن مذهباً لا يقبل به العقل ، ولا يؤيده الوحي ، ولا تعترف به آثار المحققين العقلية والنقلية ، مرفوض وليس له أي أساس علمي وتحقيقي .

وفي سورة غافر ، حيث يعتب علىٰ المستكبرين ، يقول: **﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾** . وبما أن المستكبر لا يستند إلا إلى القوة المادية والنصر الظاهري ، فان القرآن الكريم يزيح الستار عن ذلك الخواء . ويخاطب تابعيه الواعين قائلاً **﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾**[٢] .

أي: فلا تغرنكم ولا تخدعنكم قوتهم الظاهرية في البلاد ، واظهار أنفسهم وتفوقهم وبروزهم ووجود الاسم والذكر منهم في تلك البلدان مؤقتاً ، لأن هؤلاء لا ركيزة ثابتة لديهم يستندون إليها .

ذلك أنه **﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل امة برسولهم ليأخذوه﴾**[٣] : فقد عانى نوح والانبياء السابقون من المستكبرين ، وسعى رؤوس الاستكبار ليحاصروا انبياءهم ويأسروهم ويضيقوا عليهم .

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية(٤) .
(٢) سورة غافر ، الآية(٤) .
(٣) سورة غافر ، الآية(٥) .

﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ : وقفوا بالاحاديث الباطلة والشبهات الواهية أمام الحق ليدحضوه ويسقطوه ، ولكنّي أخذتهُم وأسلمتهم إلى عقابهم المر **﴿فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾**[1] ؟ أي اعلم (والاستفهام على سبيل التعجب أو التحسين) ـ إن عقابي اليم ولا يختص هذا الأمر بفئة معينة ، بل هو سنة دائمية لله سبحانه ، إذ **﴿إن ربك لبالمرصاد﴾**[2] .

ثم قال : **﴿وكذلك حقت كلمة ربك علىٰ الذين كفروا انهم اصحاب النار﴾**[3] . وهذه قاعدة عامة بأن الكفار سيشقون في الدنيا ، وسيكونون في الآخرة من أصحاب النار . والأمر الالٓهي الثابت بشأن الكفار في القيامة أن النار لا تخلي سبيلهم . اذن ، فمجادلة آيات الله هي عمل المستكبرين؛ وركيزتهم هي القوىٰ المادية .

بعد عدة آيات من نفس السورة يذكر قصة فرعون وما أشبه ، على سبيل المثال .

ثم يباشر أصل البحث ، وهو أن المستكبرين يجادلون الانبياء **﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾**[4] : فكانوا يقفون في مواجهة الوحي والانبياء عليهم السلام . أي أن الاشخاص الذين جادلوا ويجادلون في آيات الله من دون دليل ويتشددون ، فإن غضب الله سيشملهم ويأخذ بمجامعهم .

---

(١) سورة غافر ، الآية(٥) .
(٢) سورة الفجر ، الآية(١٤) .
(٣) سورة غافر ، الآية(٦) .
(٤) سورة غافر ، الآية(٣٥) .

يقال للدليل والبرهان «سلطان» لأن الدليل العقلي مسلط على الاوهام والخيالات وانواع الوساوس ، وكذلك على الادعاء المفتقر إلى دليل ، وكلِ زعمٍ واهٍ؛ ومن هنا سمّي الدليل «سلطانا» .

ان المستكبرين يجادلون بلا دليل لديهم ، فلا دليل عقلي يعتمدونه ، ولا دليل نقلي أو وحي يستمدون منه بالشكل الذي يكون مدوناً في كتاب ديني ان عبادة الاصنام صحيحة .

وما لم يكن موافقاً للعقل ولا للشرع فهو جالب للمقت ـ حتماً؛ لذا قال: ﴿**كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا**﴾ . أي ان عملهم سبب لغضب الله وغضب المؤمنين . ولا يجلب معه سوىٰ غضب الله تعالى ومقته .

ان المقت والغضب الالهي نتيجةٌ لجدل الكفار الفارغ ، لأن الله سبحانه زوّد الانسان بحجّتي العقل والوحي ليتحرك في جميع تصديقاته وتكذيباته بالاستناد اليهما .

فإن غاب هذان البرهانان الالهيان ولم يحضر أي منهما ساحة أهمّ تحول في حياة الانسان ، الا وهو التحول الفكري والثقافي ، أي العبادة ، فان ذلك التحول سينطوي ـ يقيناً ـ على غضب الله وكذلك غضب المؤمنين الربانيين الذين حبهم في الله وغضبهم في الله .

وبما أن المقت الالٓهي ليس وصفاً نفسياً بل سيكون اثراً خارجياً مؤلماً قال: ﴿**كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار**﴾[1] ؛ فأي قلب يتعامل مع الوحي الالٓهي بتكبرّ ، ويكون جباراً وظالماً معه ، فان لطف الله سيُرفع عنه ولسوف يُختم عليه . فلا يمكن بعد ذلك احلال المعارف الصحيحة في ذلك

(١) سورة غافر ، الآية(٣٥) .

القلب ، ولا اخراج الاوهام والخرافات منه .

فإذا خُتم على فم القلب ، وأُغلق بابه ، وطُبع عليه؛ لا يمكن اخراج العقائد المنحرفة والرذائل الاخلاقية من ذلك القلب ، ولا يمكن احلال العقائد الصحيحة والفضائل الاخلاقية فيه .

وبالطبع ، فان هذه العقوبة والاضلال الالّهي ، ناتج على اثر سوء اختيار المفسدين أنفسهم يقول الله ، الذي هو مقلب القلوب وخالق القلوب ، ان من كان متكبراً وجباراً سلبتُ منه توفيق فهم الآيات الالّهية وطَبعْتُ على قلبه . يقول الله تعالى في سورة الصف . **﴿فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم﴾**[(١)] أي بما ان هؤلاء انحرفوا فان الله سبحانه سلبهم لطفه فازداد انحرافهم .

في السورة مورد البحث أيضاً يقول بما ان قلب هؤلاء متكبر وجبار ، لذا طبع الله عليها : **﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾** . وفي نفس هذه السورة «حم غافر» ، أيضاً يوضح العواقب المرة لجميع المنحرفين هكذا : **﴿قال الذين استكبروا انا كلٌّ فيها﴾**[(٢)] أي اننا جميعاً في النار ، سواء رؤساء الاستكبار ، أو أتباعهم المقصرون .

في المرة الثالثة ، يعرض مجادلة المستكبرين في هذه السورة نفسها بِقوله **﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر﴾**[(٣)] إن هؤلاء الذين يقومون بالجدال في آيات الله من دون سلطان أي بلا برهان ودليل ، ان منشأ جدلهم الفارغ هو تكبرهم الداخلي . فقلوبهم

---

(١) سورة الصف ، الآية(٥) .
(٢) سورة غافر ، الآية(٤٨) .
(٣) سورة غافر ، الآية(٥٦) .

تسعىٰ إلى كبر ليس لهم . فلا شيء في قلوبهم سوىٰ التكبر .

إن القرآن ، وإن كان ﴿**شفاءٌ لما في الصدور**﴾[1] وعنصراً مؤثراً لمعالجة جميع الامراض الموجودة في القلب ، لكن ذلك مشروط بأن يستشفي المريض نفسه بالقرآن ويطلب العون من دوائه وعلاجه . فالمريض الذي في قلبه مرض التكبر ولا يذوق عقار القرآن الشافي لا يُعالج أبداً .

وبما أن التكبر والاستعلاء غير المشروع مرضٌ ، لا سلامة ، إذن فهو ليس صفة كمالية كي تبلغ الهدف وتبلغ بموصوفها إلى الكمال ، لهذا قال: ﴿**ما هم ببالغيه**﴾[2] أي لا يبلغون ذلك التكبر الداخلي .

والخلاصة؛ أن الذين لا يستشفي بالقرآن ، لا هو ناجٍ من مرضه (التكبر) ولا هو ببالغ هدفه الباطل ذاك؛ فإنّ الانسان المتكبر ـ في الحقيقة ـ صغير وحقير . لأنّ تكبره كاذب وتذلّله صادق ، وكبره مزيف ، وذلته صحيحة .

إن الله سبحانه المخبِر عن الحق يقول عن المستكبر انه يبتلى بعذاب «الهون» أي عذاب الذلة . لماذا؟ لأن تكبره كاذب . ومن كان تكبره كاذباً ، فان ذلّه وهوانه متحقّق وصادق لا محالة .

فلا يمكن ان يكون تكبره كاذباً ويكون ما يقابل ذلك أي ذلته وحقارته وانحطاطه كاذباً أيضاً . إذن ، فان كان كبره كاذباً فان ذلّته وحقارته صحيحة قطعاً . ويوم ظهور الحق ، تظهر ذلة المستكبرين ، والتي هي حق .

والسر في ذلة المستكبر ، وجهله بحقائق العالم هو ان الانسان

---

(١) سورة يونس ، الآية(٥٧) .

(٢) سورة غافر ، الآية(٥٦) .

المستكبر يرىٰ نفسه وحسب ، لهذا فهو لا يدري ماذا يدور في العالم؟ ومن هو وما هو مبدأ العالم؟ لذا فالانسان المتكبر لا يبلغ كمالاً أيضاً .

يريدون أن يكبروا لكنهم لا يكبرون ، لأن نظام العلية في العالم يرىٰ التواضع سبباً للرفعة ، لا التكبر . ولا يمكن الوصول إلى المسبب من دون السبب ابداً . لهذا قال في هذا المجال ﴿**ليس بأمانيكم ولا اماني أهل الكتاب**﴾[1] ان بلوغ الجنة ليس بأمنياتكم وتمنياتكم ولا بتمنيات سائر الأمم .

ثم قال : ﴿**فاستعذ بالله انه هو السميع البصير**﴾ : إلجأ إلى الله فهو سميع الدعاء وينظر إلى جميع المشاهد والحالات .

إن الله سبحانه يدعو الانسان إلى التفكير من كل طريق مناسب ، ويعلّمه طريقة التفكير الصحيح بعرض البرهان والدليل؛ وينذر المستكبرين وينبّههم انه ﴿**لخلق السماوات والأرض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون**﴾[2] وان كان الله سبحانه يرىٰ الانسان الصالح والمتقي أعلىٰ من السماوات والارضين ، واقوىٰ من الجبال ، بينما الانسان المادي أضعف منها .

وبما أن خصوصية هذه السورة هي تبكيت المستكبرين ، يعرض القرآن موضوع جدالهم اللامشروع للمرة الرابعة ويقول : ﴿**ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله**﴾[3] من غير دليل ولا برهان ، ويتعنتون : ﴿**انّىٰ**

---

(١) سورة النساء ، الآية(١٢٣) .

(٢) سورة غافر ، الآية(٥٧) .

(٣) سورة غافر ، الآية(٦٩) .

يصرفون﴾[1] : إلى أين يذهبون؟ فإذا اضاعوا وتركوا الطريق الصحيح فعلىٰ أي طريق يتعرفون؟ وبسلوكهم واجتيازهم الطرق المنحرفة ، فإلى أي هدف يصلون؟

تارة يقول الرسول الأكرم ﷺ ، الذي هو أرأف الناس بالمجتمع الانساني : **﴿اين تذهبون﴾**[2] بتخلّيكم عن الطريق القويم؟ وفي الآية التي نحن بصددها ، يقول تعالى : **﴿فانّىٰ يصرفون﴾** : أين يذهب هؤلاء؟

﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما ارسلنا به رسلنا فسوف يعلمون﴾[3] : هؤلاء الذين التزموا التكذيب ازاء الوحي وما اتىٰ به الوحي ، سيعلمون فيما بعد : مع من كان الحق ، وكيف سيُتصرف معهم . ثم يستعرض العذاب في يوم القيامة بقوله : **﴿إذ الاغلال في اعناقهم﴾**[4] أي : سيطوقون في اعناقهم بسلاسل ثقيلة منصهرة .

كذلك ترد في نهاية السورة «حم غافر» نفسها مسألة مجادلة المستكبرين مرة اخرىٰ ، من دون استعمال كلمة «جدال» ؛ يقول : **﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾**[5] . عندما كان الانبياء يحدثونهم عن المبدأ والمعاد والوحي والاحكام الآلهية ، كان المتكبرون والمعرضون عن مدرسة الوحي مسرورين بعلومهم المادية ومكتفين بها . فكانوا يقولون : حسبنا العلوم المادية ، ولا نريد علومَ ما وراء المادة .

---

(١) سورة غافر ، الآية(٦٩) .

(٢) سورة التكوير ، الآية(٢٦) .

(٣) سورة غافر ، الآية(٧٠) .

(٤) سورة غافر ، الآية(٧١) .

(٥) سورة غافر ، الآية(٨٣) .

وكما بيّنا من قبل ، فإن اعمال الانسان لا تتركه ، بل انها إذا كانت سيئة فانها تحتويه وتصير محيطة به ، لذا قال **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** : إن استهزاءهم لا يتركهم بل يحيط بهم ويهبط بهم؛ ويُدفَنُ المستكبرون في قبر خواطرهم الوهمية تلك .

وهذا الموضوع ، وهو أن انحطاط المستكبرين يكمن في اعمالهم القبيحة ورد في عدة سورة من سور : «حم» بتعبير : **﴿حاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾** .

وبما انهم دُفنوا في قبر الاستكبار ، وغاصوا في قعر بئر التكبر ، فانهم لا يرون مكاناً ، ولا يسمعون حديث حق ، ولا يوفقون للتفكير .

والخلاصة هي ان الله سبحانه عرض في هذه السورة «حم غافر» وبشكل مباشر ، اربع مرات ، جدال المستكبرين اللا مناسب ، بعناوين مختلفة ، وقال ان هؤلاء يجادلون بلا برهان ومن دون سلطان .

وسيرة القرآن الكريم انه يسعى لإنضاج الانسان في حيّز الحياة العقلية والحياة الطيبة؛ لذا فسعيه الدائب هو في ان يتمتع الانسان ، عن طريق البرهان والتفكير العقلي الصحيح ، بالحياة العذبة والطاهرة .

من هنا ، يأمر من يتبع شخصاً أو مذهباً أن يتبعه بعد التحقيق ، وإذا كان المتبوع شخصاً أو فئة أن يكون متبوعاً بعد التحقيق واحراز الجدارة والاهلية؛ فلا يسمح للانسان أن يتبع احداً من دون تحقيق ، ولا يسمح له أن يدعو الآخرين لاتباعه من دون تحقيق أيضاً .

في سورة الحج ، ذكر هذين الموضوعين إلى جانب بعضهما ، وأدان

كل جدال في غير موضعه ، فقال: ﴿**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد**﴾[1] . ولما كان التحقيق المناسب واجباً علىٰ الجميع ، والجدال الفارغ لا يليق بكل أحد ، لذلك اعتبر جدال الخاضعين والتابعين باطلاً ، لأن جدال المستكبرين والمتبوعين بلا دليل .

فإنه يجب على الزعيم والمقدم والمسؤول أن تكون زعامته على أساس التحقيق ، كما يجب علىٰ التابع والمطيع أن تكون تبعيته علىٰ أساس التحقيق . فلا يحق لأحد أن يلتحق بأمة من دون تحقيق ، ولا يحق لأحد أن يتزعم امة بلا تحقيق . وإن أراد احد أن يتبع مذهباً أو شخصاً معيناً فعليه أن يحقق ، وإلاّ فسيكون تابعاً لأي شيطان مريد .

في انتخاب الزعيم والمقلَّد ، رغم أن المقلِّد ليس بصيراً بمضامين القيادة؛ إلا أنه ينبغي أن يكون بصيراً بأصل التحقيق لا أن يكون تقليده مستنداً إلى تقليد الآخرين؛ بل أن يكون محققاً في أصل التقليد لأن كل ما هو بالعرض يجب أن يرجع إلى ما هو حجة بالذات .

كذلك يطرح في نفس سورة الحج ـ مرة أُخرى ـ مسؤولية المتصدين . يقول: ﴿**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله**﴾[2] أي يوجد البعض الذين اخذوا على عاتقهم مسؤولية هداية الآخرين من دون علم ، ومن دون وحي ، ومن دون عقل . هؤلاء متبوعون مضِلُّون . الفريق الأول هم الاتباع الضالّون؛ فهم مقلّدون وعُمْيٌ في الإتّباع والفريق الثاني هم أهل جدل وعمي في القيادة .

---

(١) سورة الحج ، الآية(٣) .

(٢) سورة الحج ، الآيتين(٨ و٩) .

بناء على هذا ، فإن الاستكبار والجدل الاستكباري لا يختص بالحكام المعاندين كفرعون وامثاله ، بل يشمل الاتباع المعاندين أيضاً . ان من لا يخضع للحق ، ولا يُحقق ، ويرضخ لسلطة المتسلطين ، هو الآخر يجادل بغير الحق ، لهذا فإنّ الفريقين ـ كليهما ـ سيلقيان نتيجة اعمالهما القبيحة ، ويعترض كل منهما على الآخر :

﴿**كلما دخلت امة لعنت اختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت اخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء اضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار**﴾[١] : كلما دخل الاتباع العمي والمتبوعون المعاندون إلى جهنم ، قال الاتباع العمي الذين اطاعوا آخرين بتقليد في غير محله ربنا هؤلاء اضلونا فضاعف عذابهم .

فيأتيهم الجواب : ﴿**لكل ضعف ولكن لا تعلمون**﴾[٢] . ان عذابكم ضِعفٌ ، لكونكم اتبعتموهم بلا تحقيق ، كما ان عذاب هؤلاء المتبوعين المعاندين ضعف ، لأنهم عصوا مرتين فلهم عذابان ، وانتم أيضاً ارتكبتم ذنبين ولكم عذابان .

احدىٰ معصيتَي اولئك انهم لم يَعبدوا الله ، ومعصيتهم الأخرىٰ انهم أغووكم وخدعوكم . كذلك احدىٰ معصيتيكم انكم ارتكبتم الاعمال المحرمة ، والمعصية الاخرىٰ هي انكم قبلتم ورضيتم بزعامة هؤلاء .

إن المستضعف الذي يقر سلطة المستكبر هو كالمستكبر الذي يفرض سلطته على المستضعف ، لذلك كان عذابه في القيامة ضعفين .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية(٣٨) .
(٢) سورة الأعراف ، الآية(٣٨) .

إذا كان المستكبر يعذب في القيامة ضعفين ، **فإن المستضعف الذي** يقبل بسلطة المستكبر ويتحمل ظلمه ، ولا يختار القائد الصحيح ، **ولا يقف** أمام الظلم ، سيكون عذابه مضاعفاً أيضاً؛ لهذا قال: **﴿لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾** .

وإن كان لأحدٍ استضعافٌ فكري ، **ولم يفهم مسألة القيادة والانقياد** أساساً؛ أو أنه باشر بالصراع ضد الاستكبار ، لكنه خسر **الصراع دون أن** يتسامح ، فهو معذور؛ وإلا فإن من يجادل في الحق ولا يقبل به ، **سواء كان** متبوعاً للآخرين أو تابعاً لهم ، فانه في الحالتين يكون **قد جادل جدالاً** استكبارياً .

عُرِضت لحد الآن جوانبُ من خصوصيات سورة «حم غافر» **التي** تميزها عن سائر سور «حم» السبعة .

اما خصيصة سورة «حم السجدة» فهي انها تتحدث مراراً حول الاعراض عن ذكر الله واسم الله . يقول تعالى في أوّل السورة: **﴿فأعرض اكثرهم فهم لا يسمعون﴾**[1] . **﴿وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾**[2] وقد مر بحثه .

ويقول مرة اخرى: **﴿فإن أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾**[3] : إذا اعرض قومك فذكرهم بالعقوبة المرة لعاد وثمود ، **فان** الاعراض عن ذكر الله لا عاقبة له سوى العذاب الأليم .

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٤) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٥) .

(٣) سورة فصلت ، الآية(١٣) .

وللمرة الثالثة في نفس هذه السورة «حم فصلت» ينقل حادثة اعراض المستكبرين عن ذكر الله ، فيقول: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[1] وهذا العمل هو المصداق البارز للاعراض عن ذكر الله وان لم يرد فيه ذكر لكلمة «الاعراض» . قال الذين كفروا لا تسمعوا انتم لهذا القرآن ، ولا تدعوا احداً يستمع اليه بل الغو فيه وحُولوا بلغْوكم وغوغائكم دون سماع الآخرين . . لا تحضروا انتم انفسكم مجالس الرسول ﷺ ولا تسمحوا للآخرين بالحضور بين يديه والاستماع لحديثه . لا تَقبلوا ولا تدعوا الآخرين يَقبلون . وقد بيّنا سابقاً وتعرضنا لمواجهة المستكبرين الشاملة للوحي .

كذلك ، جرىٰ التذكير في نفس هذه السورة «حم فصلت» وللمرة الرابعة ، بمسألة اعراضهم عن ذكر الله . قال: ﴿**ان الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا**﴾[2] : اولئك الذين يلحدون في الآيات الالٓهية ويسعون إلى الانحراف عن الصراط المستقيم ، وحرف الآخرين إلى دهليز الانحراف وزاوية السقوط ، ليسوا خافين علينا .

الالحاد هو الذهاب اللحد أي الابتعاد والتنكب . إذا كان ثمة طريق واسع ومفتوح ، وتحاشى شخص السير في عرضه . وسعى للتنحي جانباً والمشي على الاطراف ، قيل عنه انه تحاشى السير في العرض والمتن وألحد ، أي مال إلى الاطراف؛ فهو لا يريد أن يكون في عرض الطريق ويواصل السير بشكل صحيح بل يريد أن ينفصل عن هذا الطريق فيذهب صوب الحاشية أو الجانب أو اللحد والزاوية .

---

(١) سورة فصلت ، الآية(٢٦) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٠) .

يقال لزاوية القبر لحد ، ولا يقال ذلك لوسطه . فألحد يعني ابتعد عن عرض الطريق واقترب من الرصيف .

إن المستكبرين يتنكّبون عن الصراط المستقيم وعن التدبر في آيات الله وقبولها وإذا تنكبوا الصراط ﴿**عن الصراط لناكبون**﴾[1] هووا وسقطوا . ولما كان الصراط فوق جهنم أو في عرض جهنم ، فإن الناكب عن الصراط سيسقط في جهنم .

لهذا قال: ﴿**أفمن يُلقىٰ في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير**﴾[2] هذا التعبير ، وهو اعملوا ما شئتم ، كناية عن أنّه لا يمكن معالجتكم . فان المريض الذي لا أمل من علاجه يقول له الطبيب: كُلْ ما شئت . أي انّ أمرك قد تجاوز العلاج .

هؤلاء الذين يتنكبون عن الصراط ، يقول لهم القرآن الكريم ﴿**اعملوا ما شئتم**﴾ لأن العقوبة المرة بانتظاركم على كل حال؛ خلافاً للانسان الذي ـ رغم ارتكابه الذنب ـ لم يقطع صلته بالله ، حيث يرد الأمر بالتقوىٰ في هذا المجال .

الأمر الذي ينبغي الاهتمام به في هذه السورة «حم فصلت» هو أنه نُقل في أول السورة عن الكافرين قولهم ﴿**قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب**﴾ . وجاء في آخر السورة قوله: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾[3] . أي: ستحين اللحظة

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية(٧٤) .

(٢) سورة فصلت ، الآية(٤٠) .

(٣) سورة فصلت ، الآية(٥٣) .

التي نزيل فيها جميع الحجب والمغاليق وعندها سيرىٰ جميع المحجوبين وسيسمعون ، وسيدركون ويجدون كل ما اعرضوا عنه في الدنيا ولم يدركوه . هذه عصارة من خصوصيات سورة «حم فصلت» المباركة .

واما خصيصة سورة «حم الشورىٰ» المباركة فهي ان الوحي متناول فيها اكثر من سائر السور . يرد الحديث باستمرار عن اهمية الوحي ومبدأ ظهور الوحي وامثال ذلك يبتدىء أول السورة ببياد الوحي: ﴿**كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم**﴾[1] ولو أن هذه السور السبع جميعها تبدأ باسم القرآن وتنزيل الكتاب ، ـ وقد اشير إلى ذلك سابقاً ـ إلا أن معارف هذه السورة ـ بالخصوص تبتدىء بالوحي .

وبعد عدة آيات ، يرد الحديث مرة اخرىٰ عن الوحي: ﴿**وكذلك اوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرىٰ ومن حولها**﴾[2] : نحن ألبسنا هذا الكتاب ثوباً عربياً لتنذر أهل الحجاز ـ سواء منهم الذين يعيشون في مكة أو سائر المناطق المجاورة ـ وتخوّفهم بالعواقب المرة والوخيمة للفساد .

ويعود بعد عدة آيات اخرى للحديث عن الوحي والتشريع الديني ، فيقول: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصىٰ به نوحاً والذي اوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسىٰ وعيسىٰ**﴾[3] أي قرر من اجل هدايتكم واقرّ الدين الذي اوصىٰ به ابراهيم وموسىٰ وعيسىٰ . وان المحتوىٰ الأصلي للوحي الذي ارسلناه لجميع الانبياء ـ وخصوصاً هؤلاء الخمسة العظام الذين هم أولو العزم ـ هو: ﴿**ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا**

---

(١) سورة الشورى ، الآية(٣) .
(٢) سورة الشورى ، الآية(٧) .
(٣) سورة الشورى ، الآية(١٣) .

فيه﴾[1] كلكم . . متحدين . . اقيموا الدين ولا تستسيغوا أية تفرقة فيه؛ لأن عامل الاتحاد الوحيد إنما هو الدين الالّهي .

لهذا يعتبر القرآن الكريم طريقة تفكير الأمة الاسلامية تفكيراً اجتماعياً ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾[2] أي افهموا القرآن معاً كي تعملوا بأمره؛ لأن الحصانة من كل خطر ، وخاصة خطر التفرقة وضرر الاختلاف ، هو في ظل الاعتصام بحبل الله المتين . لهذا ، فمضمون الآية مورد البحث: إننا أبلغنا جميع الانبياء عن طريق الوحي أن أقيموا الدين معاً ولا تتفرقوا فيه .

ثم تناول اهمية الاتحاد وفوائده بالنسبة إلى المسلمين ، وكذلك خوف المشركين منه؛ وبين أن قبول اصل التوحيد واجتناب عبادة الاصنام والشرك أمر صعب ومؤلم للمشركين . وقد تَمّ طرح احتجاجاتهم في هذه السورة المباركة نفسها ، ضمن الحدود اللازمة .

كذلك يتناول البحث حول الوحي من حيث تقسيمه إلى كلام بلا واسطة وكلام مع واسطة في هذه السورة نفسها ، قائلاً: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً﴾[3] أيْ ان أيّ انسان لا يمكنه الاستماع إلى كلام الله سبحانه إلا عن احد ثلاثة طرق على نحو مانعة الخلو وجميع هذه الطرق ميسور للانسان الكامل ، وقد اتضح معنىٰ الكلام وكيفية التكلم وتقسيمه إلى اقسامه المختلفة في البحوث السابقة .

والخلاصة: إن كل ما هو موجود في سائر آيات هذه السورة «حم شورىٰ» ، أي الوحي ، وتشريعه وضرورته ، وتبيين الخطوط العامة

---

(١) سورة الشورى ، الآية(١٣) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية(١٠٣) .
(٣) سورة الشورى ، الآية(٥١) .

للوحي ، قد تناولته هذه الآية الاخيرة أيضاً . إذن اهم خصوصية لسورة الشورىٰ هي البحث حول الوحي الذي تتحدث عنه السورة باستمرار ، وتمتاز بها على سائر الحواميم .

اما خصوصية «حم الزخرف» فهي ان لها بحوثاً متعددة حول انذار الناس من عواقب المفسدين السيئة . يقول الله سبحانه ـ في هذه السورة ، مراراً ـ مخاطباً رسوله الأكرم ﷺ ان هؤلاء المشركين والكافرين والمعرضين عن الوحي الالهي لا يعلمون من أين يجيئهم ؛ ولا يعرفون أنفسهم ، ولا يعرفون العالم ، ولا يعلمون إلى أين يذهبون ، ولا يعلمون أن عليهم أن يستمعوا لحديث المرشد والدليل .

يقول في أوائل هذه السورة : ﴿**وكم ارسلنا من نبي في الأولين**﴾[1] أي الأمم الماضية لكنهم سخروا من انبيائهم ﴿**فأهلكنا اشد منهم بطشاً ومضىٰ مثل الاولين**﴾[2] . أي اهلكنا اشدهم بطشاً وجعلناهم جزءاً من القصص التاريخية وحكايا للمؤرخين . أي اننا أسلمنا أشدهم قوة واقتداراً إلى المصير الذي يكتبه التاريخ ولكن دون أن يكون لهم اثر في العالم الخارجي غير اسمائهم المسجلة في ذاكرة «حفظ الوقائع» التاريخية فقط .

ما يشبه هذا الموضوع عبر عنه في سورة «سبأ» بقوله : ﴿**وكذّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذّبوا رسلي فكيف كان نكير**﴾[3] . أي كان قبل منكري الحجاز ثمة كافرون كذّبوا الوحي الآلهي ، لا يبلغ اصحاب القوة والمال في الحجاز معشار ما آتيناهم ، أخذناهم بالعذاب حتىٰ

(١) سورة الزخرف ، الآية(٦) .
(٢) سورة الزخرف ، الآية(٨) .
(٣) سورة سبا ، الآية(٤٥) .

لم يعودوا يُعرفون .

فكما ان تعريف الله يُصبح سبباً للعَلمية والمعروفية ، فان انكار الله سبحانه ، أيضاً سيؤدي إلى الانغمار والمجهولية ، بحيث تغدو المبتلى به نكرة لا حظ له من الوجود . لهذا فالتعبير القرآني بشأن مثل هؤلاء الافراد هو انهم سيكونون على صورة مَثَل أو قصة ﴿**ومضى مثل الاولين**﴾ أو ان يقول: ﴿**وجعلناهم أحاديث**﴾[1] .

ثم يقول عن الانذار مرة اخرىٰ: ﴿**وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[2] .

نحن ارسلنا قبلك رسلاً لينذروا المفسدين من عواقب اعمالهم السيئة ويبلغوهم ان نهاية الكفر والمعصية الهلاكة؛ ولما كان اولئك مترفون ومنعمون ومرفهّون ، تصوروا ان هذا الترف والتنعم والترفّه موجود وباق دائماً؛ لهذا استندوا إلى السنّة الجاهلية البالية لآبائهم واسلافهم وقالوا: ﴿**إنا على آثارهم مقتدون**﴾أي سنبقىٰ على سيرتهم .

عند ذلك قال الله سبحانه: ﴿**فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذِّبين**﴾[3] وكم هي مرة وأليمة بحيث ليس هناك أي اثر خارجي منهم .

كذلك ، في نفس هذه السورة المباركة «حم الزخرف» ، هكذا يبين واقعة الانذار ـ مرة اخرى ـ: يقول: ﴿**هل ينظرون إلا الساعة ان تأتيهم بغتة**

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية(٤٤) .
(٢) سورة الزخرف ، الآية(٢٣) .
(٣) سورة الزخرف ، الآية(٢٥) .

وهم لا يشعرون﴾[1] أي ان هؤلاء عليهم ان ينتظروا يوماً ، سيحل بساحتهم بغتة ومن دون سابق اشعار ، وسيؤخذون بعذاب ذلك اليوم ، وهم لا يشعرون .

ثم تطرح قصة العداوة التي تؤول اليها الخلّة والصداقة الدنيوية في القيامة ، بعد ذلك: **﴿الاخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾**[2] وهذا أيضاً بدوره نوع من الانذار .

وفي نهاية السورة ، تطرح مسألة الانذار بصيغة اخرىٰ . يقول: **﴿فاصفح عنهم وقلْ سلام فسوف يعلمون﴾**[3] أي اصرف النظر عن هؤلاء ، وسلم عليهم سلام توديع ، إن هؤلاء سيدركون فيما بعد ويفهمون إلى أين سيذهبون وماذا سيشهدون ويشاهدون .

اما خصيصة سورة «حم الدخان» فهي ان انذارها موجّه إلى الاشخاص الذين يشككون في حقيقة الوحي ، وحقانية ما اتىٰ به الوحي ، وليسوا مستعدين رغم وضوح الآيات الالّهية للتفكير فيها ، وأن يقبلوا بالحق .

جاء في صدر هذه السورة: **﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾**[4] .

بعد عدة آيات يعاود طرح مسألة الانذار . يقول: إن هذا الفريق ممن يستندون الآن إلى قوتهم ويقولون: **﴿ان هي إلا موتتنا الاولى وما نحن**

---

(١) سورة الزخرف ، الآية(٦٦) .
(٢) سورة الزخرف ، الآية(٦٧) .
(٣) سورة الزخرف ، الآية(٨٩) .
(٤) سورة الدخان ، الآية(٣) .

بمنشرين﴾[1] ؛ ويقولون إن كانت القيامة حقّة ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ . فيأتيهم الجواب ﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم﴾[2] أي قل لهم : هل انتم خير أم قوم تبع وعصاة التاريخ الذين كانوا قبلهم ﴿اهلكناهم﴾ . وانما فعلنا ذلك بهم لِـ﴿انهم كانوا مجرمين﴾[3] .

ثم يعود مرة أخرى لذكر كيفية تعذيبهم حتىٰ يصل إلى قوله : ﴿ذق إنك انت العزيز الكريم﴾[4] فقد كانت لك في الدنيا عزة في غير موقعها وكرامة باطلة ، إذ ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[5] . فالكافر لن يكون عزيزاً اطلاقاً ، لهذا يقال له في يوم القيامة إن كرامتك لم تكن في محلها ، و﴿ان اكرمكم عند الله اتقاكم﴾ . فيتبين ان الكرامة تدور في محور التقوىٰ ، وان الانسان اللا متقي محروم من الكرامة؛ ولذا يقال للمحروم من فضيلة التقوىٰ ، ومن الكرامة : ﴿ذق إنك انت العزيز الكريم﴾ أي ان عزتك وكرامتك كانت باطلة .

ثم يقول في نهاية نفس السورة «حم الدخان» : ﴿فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ، فارتقب انهم مرتقبون﴾[6] . انتظر انت ، فان هؤلاء ينتظرون العذاب أيضاً . وهذا بدوره اسلوب من اساليب الانذار والتخويف .

النقطة التي لا ينبغي اغفالها هي أن البحث في سورة «حم الشورىٰ»

---

(١) سورة الدخان ، الآية(٣٥) .
(٢) سورة الدخان ، الآية(٣٧) .
(٣) سورة الدخان ، الآية(٣٧) .
(٤) سورة الدخان ، الآية(٤٩) .
(٥) سورة المنافقون ، الآية(٨) .
(٦) سورة الدخان ، الآيتان(٥٨ ـ ٥٩) .

ابتدأ بالوحي ، وانتهىٰ بالمحادثة حوله . وفي سورة «الجاثية» يبتدىء الحديث حول التوحيد الربوبي ، وينتهي بالكلام حوله .

ففي صدر سورة «الجاثية» قوله: **﴿ان في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين﴾**[1] . وفي خاتمتها: **﴿فلله الحمد رب السماوات ورب الارض رب العالمين، وله الكبرياء في السماوات والارض وهو العزيز الحكيم﴾**[2] .

وفي سورة الاحقاف يبدأ البحث عن المعاد ويختتم به ، فقد جاء في مطلع السورة **﴿ما خلقنا السماوات والارض وما بينهما إلا بالحق واجل مسمى﴾**[3] أي ان لنظام الخلقة هدفاً وان خلْقها ليس باطلاً . وفي ختام نفس السورة «حم الاحقاف» قوله: **﴿يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾**[4] .

إذن ، فبداية سورة «حم الاحقاف» عن المعاد ونهايتها أيضاً حول المعاد والانسجام الخاص الملاحظ في كافة آيات بعض السور هو السبب وراء التسمية التفسيرية لكل منها باسم معين ، لذا يمكن تسمية بعضها باسم سورة التوحيد أو المعاذ أو الوحي أو النبوة .

وهذا لا يعني أن لكل سورة موضوعاً خاصاً ، بل ان المقصود بذلك ان جميع هذه السور المذكورة ، وان كانت تنطوي على المعارف الدينية العامة ، إلا أن ما تبرز وتتميز فيه مختلف ومتفاوت . أي: بغض النظر عن

(١) سورة الجاثية ، الآية(٣) .
(٢) سورة الجاثية ، الآيتان(٣٦ ـ ٣٧) .
(٣) سورة الاحقاف ، الآية(٣) .
(٤) سورة الاحقاف ، الآية(٣٥) .

المضمون المشترك الذي تمتاز به هذه السور السبع ، فان لكل منها خصيصة تكون سبباً لتمايزها فيما بينها .

كان القسم المهم من معارف هذه السور هو المضمون المشترك لها ، والذي تم تفصيله ضمن المسائل والمباحث الواسعة . وكان البحث الأخير بصفة الخلاصة والاجمال الذي اتضح فيه كيفية انفكاك هذه السور السبع عن بعضها .

نسأل الله تعالى ببركة القرآن الكريم ان ينور قلوبنا جميعاً بالمعارف الالهية . وان يحشر ارواح معلمينا ومؤلفي العلوم الالهية مع ارواح الانبياء والاولياء الالّهيين .

غفر الله لنا ولكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الدرس العشرون

القرآن كلام الله وتكلم الله

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلىٰ الله على جميع الانبياء والمرسلين والائمة الهداة المهديين سيما خاتم الانبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

انتهىٰ البحث المتعلق بشرح المضامين المشتركة للحواميم السبعة بلطف الله تعالىٰ ما سنشرع به الآن برعاية الله هو ان القسم المهم لتعليم وتزكية القرآن ناظر إلى تبيين المعارف العامة في الدين أي معرفة التوحيد ، ووحدانية الله سبحانه في الذات والوصف والفعل ، وكذلك معرفة الوحي والنبوة والرسالة ، وهكذا معرفة المعاد واحكام ما بعد الموت ومواقف القيامة .

حمّل الله سبحانه الرسول ﷺ مسؤولية عدة أعمال ، وقدّمه من خلال تلك المسؤوليات إلى الناس؛ حيث نذكر فيما يلي بعضها:

احدىٰ تلك المسؤوليات الحتمية هي الرسالة وأولاها ، تلاوة آيات

الله ، بأن يقرأ للناس آيات الله جيداً . الثاني : توضيح وتفسير الآيات السماوية . الثالث : تبيين النهج العملي وشرح طريقة العمل بقوانين الله واحكامه ، وكذلك تزكية الناس عن طريق العمل الصالح . الرابع : تنبيه الناس إلى أن ما اتىٰ به الوحي لا يعارض رغباتهم الاصيلة ، بل هو منسجم مع فطرتهم ومطابق لخلقتهم وطينتهم وباطنهم .

قال ﴿**يتلو عليهم آياته**﴾[1] أي ان رسول الله تالي آيات الله . وأُمر بأن يقول ﴿**وان أتلوَ القرآن**﴾[2] أي ان وظيفتي قراءة القرآن الكريم ، كما إنّ عليه ان يبين الآيات ويفسّرها للناس بعد تلاوتها : ﴿**يعلّمهم الكتاب والحكمة**﴾[3] ، ﴿**وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل اليهم**﴾[4] ثم قال ﴿**ويزكيّهم**﴾ أي يعلّمهم طريق العمل بمحتوىٰ الكتاب والحكمة ، ويهذبهم بتوضيح السيرة العملية لهم .

كذلك ، ويُبلِّغ الناسَ أن الاوامر السماوية هي عين رغبتهم الداخلية ، ومعروفة لهم في فطرتهم وبواطنهم؛ ولهذا كان القرآن «تذكرة» ، وخاطب الله سبحانه رسوله وقدّمه إلى الناس بصفة مذكِّر : ﴿**إنما انت مذكِّر**﴾[5] .

التذكرة تعني التذكير؛ مما يدل على أنّ المعارف الالٰهية كانت موجودة في اعماق الانسان ، ولا زالت وان الانسان قد نسيها إثر انشغاله بالطبيعة ، وان رسالة الرسول ﷺ هي أن يزيح حجب الغفلة وينمي الفطرة الداخلية وينبه الانسان ويذكره بعهده القديم مع الله ، ليتّجه نحو

---

(١) سورة الجمعة ، الآية(٢) .
(٢) سورة النمل ، الآية(٩٢) .
(٣) سورة الجمعة ، الآية(٢) .
(٤) سورة النحل ، الآية(٤٤) .
(٥) سورة الغاشية ، الآية(٢١) .

التوحيد والنبوة والمعاد ، ولا يؤخِّر نفسه وسط طريق العودة إلى الهدف النهائي .

هذه الامور المذكورة وأمثالها ، هي المسؤوليات الرسمية للرسول الاكرم ﷺ ، والتي ينبغي بحثها بالتدريج . إن فهرست المباحث الآتية عبارة عن الحديث حول تلاوة القرآن ، وتعليمه وتبيينه وتفسيره ، وكذلك التحدث حول التهذيب وتزكية النفس ، والبحث حول ما يتعلق بالتذكرة ، وتذكير القرآن ، وامثال ذلك .

وبما ان الله سبحانه جعل الرسول ﷺ أسوة وقدوة ، فقال **﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة﴾**[1] وأقرَّ هذه المسؤوليات للرسول ، فإنه يجدر بالآخرين ، بل يجب عليهم ، ان يتأسوا به ﷺ في الأمور المذكورة .

أي ان لمسألة التلاوة ، وكذلك تعليم الكتاب والحكمة ، وهكذا تزكية النفوس ، وانذار الناس والتي هي مما اتى به الوحي ، سابقة فطرية في باطنكم وداخلكم ، وليست الاوامر السماوية برامج مفروضة كالكثير من القوانين الوضعية التي يفرض واضعوها ـ لجهلهم بالفطرة الداخلية للانسان ـ قوانين تتعارض مع رغبات الانسان الحقيقية بل بما ان مخطط القوانين الشرعية هو خالق الانسان نفسه ، فانه يضع له قوانين على أساس حاجاته الداخلية وبما يتناغم مع فطرته ، بحيث: لو عُرضت تلك القوانين على فطرته لما أنكرتها؛ لهذا سمي القرآن الكريم بـ «التذكرة» ـ سواء في مجال المعارف أو في مجال الأحكام ـ .

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية(٢١) .

أما ما يتعلق بالتلاوة فهو انه عندما يتحدث الله سبحانه عن مسؤوليات الرسول ﷺ ويقدّمه إلى الناس ، في كثير من السور ، فانه يقول : **﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾** أو أن الرسول ﷺ نفسه ـ وحسب ما جاء في سورة (النمل) المباركة يقول : **﴿إنما أُمرت أن اعبد ربَّ هذه البلدة . . . ، وأن اتلو القرآن﴾**(١) . أي انـي امرت أن اعبد رب «مكة» ، لا هذه الاصنام ، وكذلك أُمرت أن اتلو عليكم القرآن .

أي : انّي أنقل الآيات الالّهية إلى اسماعكم مثلما استمعت اليها من دون زيادة أو نقصان .

يقول الله سبحانه : **﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾**(٢) .

إذن : أول مرحلة للتلاوة هي تلاوة الله ـ سبحانه ـ التي تتلىٰ على السمع المبارك للرسول ﷺ بواسطة ملك أمين . وبما ان التلاوة الالهية مقرونة بالحق أو مكتسبة بالحق ، فهي مصانة من كل زيادة أو نقصان .

واستناداً إلى هذا الأمر ، وهو ان الله سبحانه ينسب التلاوة الأولى (أي التلاوة في المرحلة الاولى) إلى نفسه ، يُعلَم أنّ كل ما تلاه الله سبحانه قد وصل إلى الرسول ﷺ ، بلا زيادة ولا نقصان؛ لأنه : لا الله ينسىٰ **﴿وما كان ربك نسيا﴾**(٣) ولا الملائكة تُزيد أو تُنقص فيه؛ فهم **﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾**(٤) ، ولا الشيطان يجدُ له إلى حرم الأمن الالّهي طريقاً لكي يمكنه انساء الملائكة فيزيدوا فيه أو ينقصوا على أساس النسيان أو

---

(١) سورة النمل ، الآيتان(٩١ ـ ٩٢) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية(١٠٨) .
(٣) سورة مريم ، الآية(٦٤) .
(٤) سورة الانبياء ، الآية(٢٧) .

يجوزا التصحيف والتحريف وامثال ذلك؛ لأن الله سبحانه ذَكر الملائكة بصفتهم رسل أمناء ، وأثنى عليهم بقوله : ﴿مطاعٍ ثمَّ امين﴾[1] .

أي ان ملَك الوحي مطاعٌ ومتبوعٌ من قبل سائر الملائكة المأمورين بتلقّي الوحي وحفظه وإبلاغه ، وإلا لما كان مطاعاً . وإذا وَجدت الزيادة أو النقصان سبيلاً إلى الوحي فلن يكون ذلك الملك المسؤول عن الابلاغ أميناً . في حين أن الله سبحانه وتعالى وصفه بقوله : ﴿مطاع ثم أمين﴾ .

لهذا ، فحين ينسب الله تعالى تلاوة الآيات إلى نفسه يقول ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق**﴾ ، والباء في «بالحق» إما للمصاحبة أو الملابسة . وفي الحالتين يُفهم أن تلاوة الآيات إما مقترنة بالحق أو متلبّسة به؛ أي ان الآيات الالٓهية إما أن تُتلى مصحوبة بالحق أو متجلببة به ، وتصل إلى الرسول الاكرم ﷺ . لهذا لا يمكن ابداً أن تنقص آية أو تزاد .

وذلك لأن آيات القرآن إذا كانت تتلىٰ بصحبة الحق أو متلبسة به فلن يطالها النقص أو الزيادة أبداً .

إذن ، فالآيات الالٓهية تُلِيَت من مصدر الغيب إلى سامعة الرسول الاكرم ﷺ المباركة كما هي وكما ينبغي ، من دون تغيير أو تبديل .

وطريقة ايصالها من قبل الرسول الكريم ﷺ إلى الأمة الاسلامية تحظى بصيانة خاصة أيضاً؛ لأن الله سبحانه مدح رسوله ﷺ في هذا المجال بعدة صفات جليلة وممتازة؛ فقال عنه انه يُبلِّغ كل ما يستلمه من الوحي إلى الناس ، وانه لا يقول غير ما اتىٰ به الوحي في المعارف والقوانين والأحكام شيئاً أي انه حصر العقد الايجابي في القضية كما حصر العقد

---

(١) سورة التكوير ، الآية(٢١) .

السلبي فيها؛ فقال انه يوصل كل ما نقوله إلى الناس ولا يكتم منه شيئاً ، كما قال: ان كل ما يقوله وحي .

هذان الموضوعان المهمان يُعرفان كأصلين ومبدأين في علم النبوة الأصل الأول هو: أن كل ما قلناه للرسول فهو يقوم بإيصاله للناس كاملاً غير منقوص ، ولا يخفي منه شيئاً؛ أي لا يُنقص؛ فلا بخل لديه ولا ضنة باطلة كي لا يقول ما يجب عليه قوله ولا سخاوة وكرم في غير موقعه وموضعه ليقول ما لا ينبغي له قوله ويبلغه الناس .

وبما انه ﷺ يمتاز بهذه الملكات النفسانية من حيث السير والسلوك الالٓهي ، فسيكون هو ﷺ عين الصراط . فلو ان انساناً كاملاً يقول كل ما ينبغي عليه قوله ، ويكون كلُّ قوله الوحيَ ، أي لا افراط في قوله بأن يضيف ، ولا تفريط بأن يُنقص في ابلاغه ، يتضح ـ إذن ـ ان طريقة وجوده هي ذات الصراط المستقيم .

لهذا ، فليس هو بذاته على الصراط المستقيم وحسب ، بل ان سائر صفاته ومسؤولياته وشؤونه الرسالية ستكون على صراط مستقيم . أي ان تعليمه وتفسيره على صراط مستقيم وتزكيته على صراط مستقيم ، وتذكيره ـ أيضاً ـ علىٰ صراط مستقيم .

ان الصراط المستقيم هو ما كان بعيداً عن خطر الافراط ، وخطر التفريط معاً . لهذا ، خاطب الله سبحانه رسوله ﷺ بالنحو التالي:

﴿يس ، والقرآن الحكيم ، انك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم﴾[١] أي قسماً بالقرآن الحكيم إنك علىٰ الصراط المستقيم .

---

(١) سورة يس ، الآيات(١ ـ ٤) .

ذكرنا في المباحث السابقة ان القسمَ الالّهي ليس كيمين البشر ، الذي هو قسَمٌ مقابل البينة فمن لا شاهد لديه في المحكمة يُقسم . اما قسم الله سبحانه فليس مقابل الشاهد بل هو ذاته بيّنة ، وان الله سبحانه وتعالى يُقسم بالشاهد نفسه .

فمثلاً عندما يقول الله سبحانه . قسماً بالقرآن الكريم انك على صراط مستقيم ، فهو يعني أنه: قسماً بهذا القرآن الذي هو ذاته الدليل والشاهد والبينة ، انك جئت بالحق وتقول الحق وانك على الصراط المستقيم .

بناء على هذا ، لو قدّم الله سبحانه الرسول ﷺ بصفة الهادي إلىٰ الصراط المستقيم ، فذلك يعني انه كذلك في جميع شؤون نبوته ، أعم من التلاوة والتبيين والتفسير والتعليم والتزكية والتذكرة وغير ذلك .

إذن ، فكما ان تلاوة ألفاظ القرآن مصونة عن الزيادة والنقصان ، فجميع الشؤون المتعلقة بها منزهة عن الزيادة والنقصان كذلك . أي من التعليم حتىٰ التذكرة وأمثالها ، جميعها سالمة من الافراط والتفريط . ومن اجْل تفهيم هذه الصيانة الشاملة تلزم قضيتان منفصلتان عن بعضهما .

لهذا ، أوضح الله سبحانه كلتا هاتين القضيتين بشكل جلي . اما ما يتعلق بصيانة الرسول ﷺ وحفظه وحصانته من التفريط وعصمته من البخل والانقاص من الوحي ، فقال: **﴿وما هو على الغيب بضنين﴾**(١) .

الضنين هو البخيل ، والضنة: البخل . قال تعالى ان الرسول ليس ضنيناً ، أي ليس بخيلاً ، ليكتم الآيات الالّهية ولا يبلّغَها الناس . . ليس ضنيناً ولا بخيلاً في أي قسم من الآيات القرآنية أي انه مصون ومعصوم في

---

(١) سورة التكوير ، الآية(٢٤) .

جميع شؤون النبوة من الضنة والبخل؛ فهو في التلاوة غير ضنين ، وفي التفسير والتعليم ليس ضنيناً ، وفي التزكية أيضاً غير ضنين ، وكذلك في التذكرة وامثالها .

فإن يكتم الرسول ﷺ معاذ الله ـ شيئاً ، في شأن من الشؤون المذكورة ولا يوصله إلى الناس ، أو لا يعلمهم ، أو لا يسعى في تزكيتهم ، أو يقصر في تذكرتهم ، فانه يكون قد بخل وضنّ؛ في حين أن التعبير القرآني اللطيف هو أن الرسول ﷺ ليس ضنيناً بالمعارف الغيبية .

ان نفي الضنة والبخل ، واثبات السخاوة والجود هو غير نفي الخيانة واثبات الأمانة ، لأن الأمين غير السخي . بناء على هذا سيكون المستفاد من القرآن ان المائدة الالٓهية دوماً مبسوطة على يد الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وآله ، وليس هناك سخاء وكرم كجود وسخاء الرسول الأكرم ﷺ ؛ لأنه إذا كان الآخرون يغذون الجانب الطبيعي للانسان بالمواد الغذائية ، فان الرسول الأكرم ﷺ يربيهم ويزكيهم وينمي جانبهم الآخر (ما وراء الطبيعة) بالمعارف الغيبية .

إذن ، فالجميع ضيوف الرسول الأكرم على مائدة العلوم الالٓهية . لهذا نقل عن الرسول صلى الله عليه وآله انه قال: «القرآن مأدبة الله»[1] أي الغذاء الالهي الناضج والجاهز للبشر .

ويحتمل كون المأدبة بمعنى مكان الأدب والتربية والنضوج الأدبي . وتتجلى عصارة الجود الالٓهي ، الذي يتحقق بضيافة الرسول الأكرم ﷺ ، علىٰ هيئة القرآن الكريم؛ والرسول ﷺ مصون من

---

(١) بحار الأنوار ، ج٩٢ ص١٩ .

البخل كي يكتم هذا الجود ولا يوصله إلى الناس ، إذن فجميع الارزاق المعنوية التي تتنزل بصورة آيات قرآنية من مخزن الغيب ، تصل الناس بواسطة المضيف الكريم أي الرسول الأكرم ﷺ .

هذه خلاصة الكلام في الأمر الأول أي نفي البخل والضنة واثبات الجود والسخاء للنبي الأكرم ﷺ .

وامّا عن الأمر الثاني ، وهو ان كلّ ما يقوله الرسول ﷺ بشأن القوانين والأحكام فهو وحيٌ آلهي ، وليس من هواه ، ولا من القاءات الآخرين ، فقد جاء في سورة النجم قوله: **﴿والنجم إذا هوىٰ ، ما ضل صاحبكم وما غوىٰ ، وما ينطق عن الهوىٰ ، إن هو إلا وحي يوحى﴾**[1] .

فمضمون هذه الآيات يؤدي المعنىٰ الثاني؛ أي ان الرسول الأكرم ﷺ ، وكما هو مصون عن التنقيص في الوحي لأنّه منزه عن الضنة والبخل ، فهو معصوم عن الزيادة أيضاً ، لأن اقواله هي الوحي ولا غير . ولما كان نفي البخل لا يستلزم نفي الزيادة على الوحي ، لذا فقد ذكر الموضوع الثاني مستقلاً عن الموضوع الأول في سورة (النجم) المباركة .

خلاصة محتوى الآيات المذكورة هي أن الرسول الأكرم ﷺ لا يتحدث وفق ميوله واهوائه ورغباته ، بل ان كل ما يقوله: وحي فقط . إذن ، فهو لا يتحدث عن غيره ليقال: **﴿إنما يعلمه بشر﴾**[2] ولا يتحدث من عند نفسه ليقال انه افترىٰ على الله؛ لأن القرآن ليس كتاباً يمكن أن يفترىٰ عليه **﴿وما كان هذا القرآن أن يفترىٰ من دون الله﴾**[3] كما بيّنا ذلك من قبل؛

---

(١) سورة النجم ، الآيات من (١ ـ ٤) .

(٢) سورة النحل ، الآية(١٠٣) .

(٣) سورة يونس ، الآية(٣٧) .

فهو ليس قابلاً للتحريف والتصحيف لأن احداً لا يستطيع أن يأتي بمثله . فلا يمكن الاتيان بآيات أو سور من مثل القرآن ، وابلاغها إلى الناس كذباً على انها قرآن؛ لأن القرآن معجزة ، ويعجز الآخرون عن الاتيان بمثله؛ فهو كلام الله ولا غير .

بناء على هذا ، ليس فقط ان الرسول صلىٰ الله عليه وآله ينقل ويقول كل ما يتلقاه من الله ، بل ان كل ما ينقله ويقوله هو عين الوحي أيضاً . إذن ، فلا تفريط في مقام التلاوة بأن لا يتلو شيئاً من الوحي على الناس ، ولا افراط في البين بان ينسب إلى الوحي زيادة ليست فيه .

وتنطوي آيات سورة النجم علىٰ موضوع أدقّ أيضاً؛ فكما أن آية ﴿**وما هو على الغيب بضنين**﴾ أوصلت مفهومين؛ الاول: ان النبي ينقل كل ما سمعه والآخر: ان ابلاغ الرسالة الالٓهية هي الجود والكرم؛ فان آيات سورة «النجم» تحتوي نكتتين أيضاً؛ الأولى: ان كل ما يقوله الرسول ﷺ هو قول الله سبحانه: ﴿**ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾ أي لا يضيف شيئاً من نفسه ولا من الآخرين ، ولا يقول غير كلام الله .

والنكتة الاخرى: إن نطقه هو عين الوحي الذي يتجلىٰ؛ كما في ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ**﴾[1] . فهو كلام الله سبحانه الذي يسمع من لسان الرسول ﷺ ، فكما ان يد الله ـ في سورة الانفال ـ هي التي تخرج وتظهرمن أردان محمد ﷺ ، وان الله الذي ليس له جوارح واعضاء مادية يُخرج يده الالٓهية من عند محمد ﷺ ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾ أي ان رميك ـ في الحقيقة ـ هو رمي الله تعالى . فهو هاهنا أيضاً يقول

(١) سورة الانفال ، الآية(١٧) .

ان نطقك هو عين الوحي ، أي ان كلامك في الحقيقة كلام الله ، وتكلّمك أيضاً هو تكلم الله سبحانه .

إذن ، يستفاد من هذه الآية موضوعان؛ الأول: ان الكلام هو كلام الله؛ والثاني ان التكلم هو تكلم آلهي .

﴿إنْ هو﴾ أي ذلك النطقُ ﴿الا وحي﴾ ، لا ان يكون ما ننطق به يطابق الوحي ، أو ان ما أوحي أنت تنطق به ، بل ان المقصود ان تكلمك ونطقك هو ذات التكلم الالهي ، لهذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ، وكذا جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة ، أن الله تعالى تجلّى لعباده في كتابه «فتجلىٰ لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه»[1] .

وما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام ونقله الشيخ البهائي (رضوان الله عليه) في تفسير «فاتحة الكتاب» هو: «ولقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون»[2] واما ما نورد في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام ، ففيه تفاوت بسيط عما ذكرنا عن الإمام الصادق عليه السلام .

في الحديث الذي نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام ، وردت عبارة في كلامه ، واما في الحديث الذي نقل عن الإمام المرتضى عليه السلام في نهج البلاغة فهي «في كتابه» والقرآن كلام الله ، وكتابه أيضاً .

النتيجة أنّه ليس الكلامُ كلامَ الله فحسب ، بل التكلمُ تكلمٌ الهي أيضاً ، فكأن الله تعالى قال «وما تكلّمت إذ تكلمتَ ولكن الله تكلم

---

(١) نهج البلاغة ، صبحي الصالح ص٢٠٤ .

(٢) بحار الأنوار ، ج٩٢ ، ص١٠٧ .

و . . . » .

وعلى هذا الأساس ، يمكن توجيه ما نقله المرحوم الشيخ البهائي عن الإمام الصادق عليه السلام في نفس تفسير سورة «فاتحة الكتاب» المباركة . فقد نقل (الشيخ البهائي) عن الإمام الصادق أنه سلام الله عليه كرّر بعض الجمل من سورة فاتحة الكتاب مثل **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾**[1] أو **﴿مالك يوم الدين﴾**[2] حتى انه «فخرّ مغشياً عليه»[3]. ثم قال الإمام عليه السلام نفسه: لقد كررت هذه الكلمة حتى لكأني سمعتها من قائلها مما يدل على أن متكلم هذه الكلمات موجود آخر . وان قال الله سبحانه عن القرآن: **﴿وان احد من المشركين استجارك فأجره حتىٰ يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾**[4] فليس المقصود ان يُقرأ عليه ما في الكتاب باسم القرآن ثم يُطلق ليعود إلى مأمنه . فلا يكون الكلام كلام الله إلاّ حين يكون متكلِمَه اللهُ . إذن ، ففي هذه الحالة أيضاً قائل القرآن هو الله تعالى . غاية الأمر اننا نسمعه من لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . إذن ، المتكلم الحقيقي لهذه الكلمات هو الله سبحانه ، وتجري الكلمات على اللسان المبارك للمعصوم سلام الله عليه .

﴿إن هو﴾ أي ذلك النطق **﴿إلا وحي﴾** . فالكلام كلام الله ، والتكلم الهي . وإذن ، فالمتلو كلام الله ، وتلاوتها تكلم الله أيضاً .

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ . إذن: لو نصغي جيداً فان الله هو الذي يتلو علينا آياته ، ويتحدث معنا . لهذا يجدر بنا ـ عند سماعه جملة

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية(٥) .
(٢) سورة الفاتحة ، الآية(٤) .
(٣) مفتاح الفلاح . تفسير الفاتحة ص٢٩٢ .
(٤) سورة التوبة ، الآية(٦) .

﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ ـ ان نقول: «لبيك»؛ لأن المتكلم ها هو الآن يخاطبنا وينادينا شفاهاً . وبناءً علىٰ هذا ، فان ما يصل اسماعنا هو عين ما يتنزل من المبدأ المتعال ، ويهبط على قلب وسمع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يجد أيُ تغييرٍ السبيلَ اليه . ويجب أن يَحُلَّ بجميع خصوصياته في أُذن القلب لتغدو السامعة وعاءً لآيات القرآن الكريم لا معبراً لها ، كما قال الله سبحانه في هذا الصدد: ﴿**تعيها أذن واعية**﴾[1] .

أي ان الاذن الواعية والقلوب المستجيبة ـ فقط ـ هي التي ستكون وعاءً للمعارف القرآنية ، وإلا فان آذان الآخرين ستكون معبراً لها لا وعاء .

وبما ان الايات القرآنية بلغتنا ووصلت اسماعنا دون افراط أو تفريط أو زيادة ونقصان ، وان هذا النزول والوصول ـ أيضاً ـ كان علىٰ نحو التجلي لا التجافي ، فبناءً علىٰ هذا ، لو أننا ترقّينا برفقة نفس هذه الآيات الالٰهية واعتصمنا بها حقاً فسنبلغ ـ يقيناً ـ اعلى مراتبها ، لأن القرآن الكريم هو الخيط المتصل الذي لا ينقطع ، بين الله سبحانه وكل عبد صالح . وليس الخيط المعلق بين الله سبحانه والقلب والسمع المبارك للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فحسب؛ بل هو متصل ، ويتصل بجميع القلوب والآذان الانسانية حتىٰ انقراض العالم ، وهو في جميع هذه المراحل بصحبة الحق أو متلبس به .

والدليل على أن الوحي لا ينقطع بمجرد وصوله إلى السمع والقلب المبارك للرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو قول الله سبحانه من أن ما ينطق به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو عين الوحي ﴿**ما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحى**﴾ . إذن فان ما نسمعه ـ نحن ـ هو عين الحق قد سمعناه . عند ذلك

---

(١) سورة الحاقة ، الآية(١٢) .

قال: ﴿فلله الحجة البالغة﴾[1] .

وبما ان ما يصدر عن الله سبحانه يصل بعينه إلى اسماعنا دون زيادة ونقصان ، فقد وردت في مقام التلاوة أوامر كثيرة ينبغي الاتيان بها كوظيفة عبادية . فليس القصدُ الوحيد من بحث التفسير ، ترسِمَ سلسلةٍ من المفاهيم القرآنية في الذهن ، بل ان وظيفة الانسان السالك أن يقرأ الآيات بنحو الترتيل أيضاً ، وان يُوفَّق للتزكية والتذكرة كذلك . وإلا فان التفسير والتبيين والتعليم الذي يكون على مستوى القول والسماع والايداع في الذهن فقط ، لن يفتح الطريق للانسان السالك أبداً .

فلو لم يكن لقارىء أو سامع القرآن التزامٌ عملي به ، فان صِرْفَ دراسة القرآن وبحثَه ليس زاداً للمسير .

ان الهدف الاصيل لتلاوة وتعليم وتفسير القرآن هو النفس والقلب ، وان كان كلٌّ من الامور المذكورة يحظىٰ باهمية خاصة؛ فمثلاً : إن تلاوة آيات القرآن مهمة لدرجة أن أمير المؤمنين سلام الله عليه يوصي ولده محمد «ابن الحنفية» بتلاوة خمسين آية منه عهد الله هذا في اليوم على الاقل . وإن من لا يقيم ارتباطاً بعهد الله من خلال تلاوة خمسين آية في اليوم على الأقل فقد حرم نفسه من فيض الٓهي مهم .

فان كان الله سبحانه يقول لنا : ﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة﴾ ، فذلك يعني ان نتأسّىٰ ونقتدي به في جميع مراحل معرفة القرآن ، أي في التلاوة كما في التعليم والتبيين ، وفي التزكية والتذكرة كذلك .

يُنقل عن رسول الله ﷺ انه كان يتلو كل ليلة المسبحات الست ،

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية(٢١) .

أي تلك السور الست المفتتحة بالتسبيح وهي: الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلىٰ . وان كان المرحوم المجلسي قد عدّ سورة الاسراء التي تبدأ بقوله ﴿سبحان الذي اسرىٰ بعبده﴾[1] جزءاً من المسبحات ، واعتبر استحباب قراءتها كل ليلة ضمن المسبحات أيضاً .

بناء على هذا ، ينبغي للانسان السالك أن يكون له برنامج عملي من حيث تلاوة القرآن ، كأن يقرأ كل ليلة قبل النوم: سورة «الواقعة» المباركة . فإن تلاوة القرآن مؤثرة لدرجة لو أن احداً قرأ آياتٍ من القرآن الكريم بإخلاص ، شمله فيض الله سبحانه ، حتىٰ لو لم يدرك معانيها . وبالطبع فانه لا يُدرك ذلك الهدف الاصيل ، لكن نفس هذا الفيض الخاص يهيىء الأرضية للحصول على فيض اعلى؛ لأن القرآن ، وكما بيّنا سابقاً ، كلامٌ الٓهي وتكلّم الٓهي أيضاً .

أي ، كما ان يد الرسول ﷺ جعلت مظهراً ليد الله سبحانه ، فقال: ﴿وما رميت إذ رميت﴾ ؛ فان يد اتباع الرسول ﷺ أيضاً مظهر ليد الله سبحانه .

ولهذا قال لهم: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾[2] ؛ وهذا التناسب والارتباط المعنوي بين الظاهر والمُظهِر يوجب ان ينسب الله تعالى عمل مظاهر قدرته وهم جنود الاسلام إلى نفسه ، وان يقول لهم: ﴿فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم﴾ .

هذا النوع من الدقة القرآنية يبين مسألة التوحيد الافعالي ، لا الجبر

---

(١) سورة الإسراء ، الآية(١) .
(٢) سورة الأنفال ، الآية(١٧) .

وامثاله مما هو مستحيل وباطل عقلاً ونقلاً . لهذا فان الله سبحانه ينسب افعال الخير التي ترجع إلى الوجود والكمال الوجودي إلى نفسه في حين ينسبها إلى الفاعل القريب منها أيضاً . وانه ، إن كان يسلب تلك الافعال من فاعلها المباشر ، فالمقصود هو سلب الاستقلال ومبدأ كونها ذاتية منها ، لا اصل الاستناد والفاعلية .

لهذا ، فحين ارسال القوات المقاتلة إلى ساحة المعركة ضد الباطل يقول للمقاتلين ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم**﴾[1] حيث نسب في هذه الآية القتال والمبارزة إلى المؤمنين والتعذيب إلى نفسه ، ولكن اعتبر ذلك القتال تعذيباً في الوقت نفسه وبما أن القتل والتعذيب وامثالهما من الاوصاف الفعلية للحق لا من اوصاف الذات ، وان الاوصاف الفعلية كلها تنتزع من مقام الفعل لا من مقام الذات ، فبناءً على هذا ان عمل المؤمنين هو ظهور فعل الله .

إذن ، فتلاوة الآيات الآلهية التي تسمع من لسان أهل الايمان تعتبر بمنزلة تكلم الله والتلاوة الالهية؛ لهذا يجدر الاستماع اليهما جيداً والاصغاء اليهما: ﴿**وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا**﴾[2] كما انه يجدر بنا ان نقتدي في اصل التلاوة أيضاً بالرسول الأكرم ﷺ ، فانه ﷺ كان مأموراً بالتلاوة ، ونحن أيضاً ينبغي أن نعيش ذلك الاحساس بالأمر ، ونتلو القرآن بتدبر تام .

فقد يواجه الانسان اثناء التلاوة معنىً لطيفاً يكون ظهوره على اثر ظهور المتكلم؛ وان كثيراً من المعارف تنجلي للانسان حين التلاوة .

---

(١) سورة التوبة ، الآية(١٤) .
(٢) سورة الأعراف ، الآية(٢٠٤) .

وردت روايات كثيرة حول اهمية تلاوة القرآن الكريم ، كما وردت روايات كثيرة حول شفاعة القرآن الكريم . أي ان الكتاب الالٓهي يتمثل في القيامة على احسن وجه ، بحيث يتصور كل فريق ان هذه الحقيقة المتمثلة هي من سنخهم ، لكنها تتمتع بجمال أعلىٰ . فالمؤمنون والاولياء والانبياء والصلحاء والشهداء - مثلاً - يظن كل فريق منهم ان هذه الحقيقة النورانية من نوعهم وتتصل بصفهم ، لكنهم يرون انها تجتاز صفوفهم جميعاً حتىٰ تبلغ مقامها الخاص وتشفع في النهاية للآخرين ممن تتوفر فيهم شروط الشفاعة .

إذن ، فحقيقة القرآن اعلىٰ من أن نحصرها في تلك المقامات المعهودة؛ ولكي ننتفع منه اكثر واكثر ، فحريّ أن تكون تلاوته مقترنة بالتدبر في معارفه .

فعندما نصل إلى آيات الرحمة مثلاً نتعرف على معنى الرحمة ، ونسأل الله سبحانه محتواها والتي هي الرحمة الخاصة . وعندما نصل إلى آيات العذاب نطلب من الله تعالى المغفرة والنجاة والعفو كي نجْلوَ بتلاوته القلب من كل ما تراكم عليه من صدأ أو وسخ أو غبار .

ومن هنا ، ينبغي أن نتعلم قبل ذلك آداب التلاوة؛ فمثلاً ينبغي تطهير افواهنا؛ لأن القرآن سيجتاز من هذه الافواه ، وبما ان الفم طريق لعبور القرآن ، وان القرآن نفسه مطهّر من كل لوث ، لذلك فان معبره هو الآخر ينبغي أن يكون طاهراً - أيضاً - بشكل كامل . وان تطهير الفم هو غير تنظيف الاسنان ، لأن السواك وتنظيف الاسنان جانب من البرنامج الواسع لتطهير الفم؛ كما انه يجب في تطهير الفم اجتناب دخول الغذاء الحرام اليه ، وخروج الكلام البذيء منه .

والخلاصة انه يجب حفظ اللثة والاسنان وفضاء الفم واللسان القليل الجرم الكثير الجرم ـ جميعاً وجميعاً ـ والابقاء عليه طاهراً ، ليجتاز القرآن من مجاري الفم بجميع حروفه المختلفة .

ورد في كتبنا الروائية عنهم عليهم السلام : «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد السنتهم»[1] .

فإن الفم إذا طهر فلم يخرج منه بذيء من القول ، ولم يدخل إليه رديء من الطعام . عندها يكون جديراً بأن يكون قناة ونهراً لماء القرآن الزلال .

وهل يمكن تلاوة آيات الله جيداً بفم كريه الرائحة ، فان للذنب رائحة كريهة ، تفضح الانسان المفسد . وانّ أمْرَ الدين هو أن استغفروا كي لا تفضحكم رائحة الذنوب السيئة «تعطروا بالاستغفار لاتفضحنكم روائح الذنوب»[2] . مما يدل على أن رائحة الذنب كريهة وتفضح الانسان وان اهم عامل للاجتناب منها هو الاستغفار .

إذن ينبغي على الانسان أن يتلو القرآن بفم طاهر . فان اتضحت فضيلة تلاوة القرآن ، وعُلِمَ أن القرآن هو عهد الله سبحانه ، فلا نُسلبَ أبداً الفيض العظيم لتلاوته ، بتلاوة خمسين آية منه يومياً علىٰ الأقل .

إن تلاوة القرآن لا تتطلب وقتاً كثيراً . لو كان أحد من أهل المحاسبة لرأىٰ أن كثيراً من أوقاته تذهب هدراً ، غير انه لو كان من اهل البرمجة والتخطيط وسخر عمره في خدمة القرآن الكريم ، فان بركة عيشه ستَشهد

---

(١) الكافي ج٢ ، ص١١٥ .

(٢) البحار ، ج٩٣ ، ص٢٧٨ .

بشكل كامل .

والانسان الملتزم يدرك قيمة وقته كما يحترم مجلسه ومكانه .

حول اهمية تعلم العلوم الالٓهية في كل مجلس نقل عن الرسول الأكرم ﷺ قوله: انه «من جلس مجلساً ولم يزدد فيه من العلم شيئاً لم يزدد من الله إلا بعداً» . ومن ابتعد عن الله سبحانه لا ينتفع من فيضه: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾[1] .

ومن كان بعيداً عن الله تُرك لحاله . فلو أدرك الانسان نفسه لرأى أن بامكانه أن يحصل علىٰ كثير من الفضائل الالهية والنفسية في وقت قصير . عندها يكون عمره مليئاً بالبركة .

الخلاصة: إذا اتضحت اهمية تلاوة القرآن بما ذكرنا من أن القرآن افضل جود وعطاء الٓهي وانه كلام الله وتكليمه أيضاً ، فلا نكونَ مستعدين ابداً لأن نجعل فاصلة بيننا وبين القرآن ، أولاً تريد القوة السامعة أن تلتذ؟ فلماذا لا نحقق لها ذلك بسماع التكلم الالٓهي بدل تلهيتها باللذات المادية عن طريق الباطل؟ إذا اتضح لنا أن القرآن كلام الله ، وتكليمه أيضاً ، فلم لا نهرع لاستقباله؟ .

إذا لوث احد مزاجه الروحي وسممه بالذنوب ، فانه لا يلتذ بشَهد القرآن . فكما ان الانسان المدمن الذي سمّم مزاجه بالسموم لا يلتذ بالعسل ، ويلتذ بذلك السُمّ فقط؛ فكذلك الذي سمم مزاجه الروحي بالذنب فانه لا يلتذ بتلاوة القرآن . فلماذا نلتذ بسماع الغيبة مثلاً ولا نلتذ بسماع التكلم الالٓهي؟ هل ذلك إلا لأننا قد سممنا امزجتنا بالغيبة والذنوب؟

---

(١) سورة فصلت، الآية(٤٤) .

وهل ذلك إلا لأن تلك الذنوب لم تدعنا نتذوق طعْم ومذاق الكلام الالّهي العذب اللذيذ ، ونجلس إلى مائدة جود الله سبحانه؟

التعبير اللطيف لله سبحانه هو أن القرآن جود وكرم الّهي ، وان الرسول الأكرم ﷺ لا يضن في ايصال هذا العطاء الالّهي ، بل انه يُبلِّغ جميع العطايا والمواهب الالّهية للناس المؤهلين . فليس القرآن بمثابة التكليف المحض والفرض الصرف بل هو عطاء الّهي خاص؛ وكما ان الرسول ﷺ لم يبخل في ابلاغه ، فانتم أيضاً لا تبخلوا في تقبله وفهمه ، فانه ﴿**سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**﴾[1] . أي لو انكم بخلتم ولم تجودوا؛ فلم تنقصوا من ابدانكم وتهبوا لارواحكم ، فان ما بخلتم به ـ سواء كان في المسائل المالية أو من جهة بذل الوقت بقصد تلاوة القرآن والتدبر في آياته ـ سيصير طوق لعنة ، ويطوّق اعناقكم في يوم القيامة .

لقد اوضح أمير المؤمنين عليه السلام حقيقة الجود بقوله: «جودوا بها على أنفسكم»[2] أي خذوا من راحة ابدانكم واضيفوا منها على رقي ارواحكم ، ولا تفكروا كثيراً براحة أبدانكم . قللوا من اللذات الجسمية لتأمين اللذة الروحية والمعنوية . ان افضل الجود هو التضحية بالداني من اجل العالي ، والبلوغ بالطبيعي إلى ما وراء الطبيعة . وان بخِل احد في ذلك . فان كل بُخلٍ سيكون طوق لعنته يوم القيامة ، وهذا هو تجسم العمل .

وان قال رسول الله ﷺ «اجود الاجواد الله وانا اجود بني آدم»[3] (يعني ان الجواد بالاصالة والذات هو الله سبحانه ، وان الأجود من بين البشر

---

(١) سورة آل عمران ، الآية(١٨٠) .

(٢) نهج البلاغة ـ صبحي الصالح . خ١٨٣ .

(٣) ارشاد القلوب ، في ثواب الموعظة . ص١٨ .

أنا ـ أي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه ـ) فلأن المائدة التي نصبها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم ينصب مثلها أحد . فان كان كرماء الدنيا (مثل حاتم الطائي والآخرين) يعطون الناس الماء والخبز ، فان الرسول العظيم منح المجتمعات الانسانية الحياة . اذن ، فجود أي جواد في عالم الامكان لا يبلغ جود وسخاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . ويأتي الاولياء الالهيون الآخرون بعد النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم في الجود والكرم ، فهم أجود الناس بعده ، ذلك انهم دعوا ويدعون الناس إلى تعلم واكتساب العلوم الالّهية .

وبما ان البحث حول اهمية تلاوة القرآن والتدبر فيه واسع جداً ، فقد نشير إلى بعض منه في المستقبل إن شاء الله .

نسأل الله تعالى بحق محمد وآل محمد عليهم افضل صلوات المصلين ان يجعل قلوبنا اوعية لمعارف القرآن الكريم . وان يوفقنا لتلاوة آيات القرآن وتعليمها وتبينهـ ـالتزكية والتذكرة جميعاً . وان يشمل اساتذتنا ومؤلفي العلوم الالهية برحمته الواسعة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفهرس

